

السَّيِّدُ السَّيِّدُ النَّشَار

تَارِيخُ الْمَكْتَابِ فِي مِصْرَ

العَصْرُ الْمَمْلُوكِي



الدار المصرية اللبنانية

تاريخ المكتبات في مصر
العصر المملوكي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالحال لروت - تلفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برلأ: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

قدم هذا البحث أصلاً كأطروحة لنيل درجة الماجستير في الآداب من
جامعة الإسكندرية تحت إشراف الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ومنح
صاحبها الدرجة بتقدير ممتاز

إهداء

إلى...

الذين تحملوا معي عناء رحلة إعداد هذا الكتاب

فوقفوا إلى جوارى

وإمدوني بعونهم وتأييدهم

وأعطوني بغير سؤال

إلى جميع أشقائى الثمانية

أمدى هذا الكتاب

وفاءً وعرفاناً

وحباً وتقديراً.

السيد النشار

قائمة المحتويات

٥	الاهداء
٧	قائمة المحتويات
١٣	تقديم بقلم دكتور محمد فتحى عبد الهادى
١٥	تقديم بقلم دكتور جوزيف نسيم يوسف
١٩	المقدمة
٢٧	دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر الكتاب ومراجعته
٢٩	- الوثائق المملوكية: أهميتها - أماكن تواجدها - أنواعها
٢٤	- المصادر العربية
	بدر الدين بن جماعة الإدفوى - ابن الأكفانى - السنجارى - تاج الدين
	السبكى - القلقشندى - المقرئى - ابن حجر العسقلانى - شمس الدين
	السخاوى - جلال الدين السيوطى - ابن اياس الحنفى -
٣٨	- المراجع العربية
٤٤	- المراجع الأجنبية
	تهديد
٤٧	أحوال المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
	(نبذة مركزة)
٤٩	- المماليك : نشأتهم والظروف التى مهد لقيام دولتهم
٥١	- الأحوال السياسية

- ٥٢ - الأحوال الاقتصادية
- ٥٤ - الأحوال الاجتماعية
- ٥٧ - الأحوال العلمية والثقافية
- ٥٨ - مدى انعكاس ذلك على موضوع البحث

الفصل الأول

المكتبات في مصر في عصر سلاطين المماليك نشأتها وأنواعها

- ٦٤ ١- نشأة المكتبات في مصر وتطورها قبيل العصر المملوكي
- ٧٢ ٢- أنواع المكتبات المملوكية
- ٧٦ - المكتبات الخاصة
- ٨٠ - مكتبات المساجد والجوامع
- ٨٧ - مكتبات المدارس
- ١٠١ - مكتبات البيمارستانات
- ١٠٤ - مكتبات الخوانق والربط والزوايا والخلاوى
- ١٠٧ - مكتبات الترب والمدافن والقباب

الفصل الثاني

الموارد المادية والبشرية في المكتبات المملوكية

- ١١٣ ١- المبنى والتجهيزات : الموقع ومواصفاته - الأثاث والأدوات الخاصة بحفظ الكتب - صناديق الكتب ورفوفها - كراسي الكتب - أدوات الكتابة - أدوات أعداد الكتب وتسجيلها وصيانتها.
- ١٢٨ ٢- الموارد المالية ووجوه الإنفاق : إيرادات المكتبة المملوكية - ريع الوقف - المهبات والتبرعات - وجوه الإنفاق - مرتبات العاملين بالمكتبات - صيانة

وترميم المكتبة ومجموعاتها وتجهيزاتها وأدواتها.

- ٣ - الموارد البشرية : فئات العاملين بالمكتبات وواجباتهم ومؤهلاتهم - خازن الكتب أو أمين المكتبة - المناولون - الوراقون . ١٣٧
- ٤ - المجموعات المكتبية : أحجام مقتنيات المكتبات - أنواعها وموضوعاتها . ١٥١

الفصل الثالث

النظم والإجراءات الفنية فى المكتبات المملوكية

- ١ - التزويد : سياسته ومصادره - الشراء - الوقف - الإهداء - النسخ . ١٥٩
- ٢ - الإجراءات الفنية الخاصة بأعداد المجموعات المكتبية للتداول : التسليم والتسليم - التسجيل والسجلات - الجرد - الفهرسة والفهارس - التصنيف - التخصيص . ١٧٥
- ٣ - الإجراءات الفنية الخاصة بصيانة المجموعات المكتبية : التجليد - الترميم . ١٩٠

الفصل الرابع

الخدمات والانشطة فى المكتبات المملوكية

- ١ - مواعيد فتح المكتبات المملوكية ١٩٧
- ٢ - المستفيدون من المكتبات المملوكية : فئاتهم ، وأنواعهم . ١٩٩
- ٣ - أنواع الخدمات المكتبية ٢٠١
- خدمات الاطلاع الداخلى والنسخ ٢٠١
- خدمات الإعارة الخارجية ٢٠٢
- خدمات أخرى : إرشاد القراء - الخدمات الببليوجرافية - الخدمات التعليمية . ٢٠٩
- ٤ - تقييم الدور التربوى للمكتبة المملوكية ٢١١

- ٥- أوجه الشبه والاختلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوربية ٢١٥
المعاصرة لها، ومدى الاتصال بينهما.

الفصل الخامس

مصائر المكتبات المملوكية

- ١- تدهور أوضاع المكتبات المملوكية والتفريط في محتوياتها: ٢٣٢
- التلف والتبديد : أسبابه ومظاهره ٢٣٣
- استغلال الكتب ونهبها من قبل العلماء والقضاة ٢٣٦
- تفريط المشرفين على المكتبات وسوء إدارتهم لها ٢٣٧
- تدهور الأوقاف ونظامها في أواخر العصر المملوكي وأثر ذلك على المكتبات. ٢٣٩
٢- الفتح العثماني لمصر وتأثيره على المكتبات المملوكية ٢٤٢
- تعرض المكتبات المملوكية للسطو والنهب من قبل الولاة الاتراك والعوام. ٢٤٤
- مكتبات مصر إبان الحكم العثماني وما بعده ٢٤٩
- الخاتمة ٢٥١

الملاحق

- الملحق الأول : ١٢ لوحة مصورة لنصوص وقفية لها صلة بموضوع البحث ٢٦١
- الملحق الثاني : جدول إحصائي بمرتبات أمناء المكتبات في العصر المملوكي. ٢٧٥
- الملحق الثالث : نص السخاوي عن تولى ابن حجر العسقلاني أمر خزانة كتب المدرسة المحمودية وقضية الإعارة في المكتبات نقلا عن : السخاوي : الجواهر والدرر. ٢٨١

قائمة المصادر والمراجع

- ٢٩١ - الوثائق المملوكية
- ٢٩٤ - المصادر العربية المخطوطة والمصورة
- ٢٩٧ - المصادر العربية المنشورة
- ٣١٢ - المراجع العربية والمعربة
- ٣٢٦ - رسائل الماجستير والدكتوراه
- ٣٣٥ - المراجع الأجنبية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم دكتور محمد فتحى عبد الهادى

أستاذ المكتبات والمعلومات

بجامعة القاهرة والسلطان قابوس

يعتبر هذا الكتاب - بحق - واحداً من الكتب ذات الأهمية فى تاريخ المكتبات العربية والاسلامية عامة وتاريخ المكتبات فى مصر بصفة خاصة. ويرجع ذلك إلى قلة أو حتى ندرة الدراسات العربية الجادة التى تؤرخ لمكتباتنا من قبل متخصصين فى التاريخ أو فى علم المكتبات، ومن ناحية أخرى فلم يتناول الأولون المكتبات التى عاصروها بالوصف والتحليل مثلما تناولوا أشياء أخرى عديدة، بل إن ما كتبوه عن المكتبات لا يربو عن صفحات متناثرة فى كتبهم الضخمة. ومن هنا يجد الباحث فى الوقت الحاضر صعوبة كبيرة فى تتبع أخبار المكتبات وأحوالها فى عصور التاريخ المختلفة، وربما يرجع ذلك حسبما ذكر مؤلف الكتاب إلى أن فن الكتابة فى تاريخ المؤسسات، ومنها المكتبات - إنما هو اتجاه جديد لم يعرف فى العالم الاسلامى إلا متأخراً. ولذلك فإن الكتاب الذى بين أيدينا يسد فجوة واضحة فى تاريخ المكتبات فى مصر.

ويعتمد الكتاب، الذى كان فى أصله أطروحة قدمها المؤلف للحصول على درجة الماجستير فى المكتبات، على منهج بحثى جيد وقد جمع المؤلف المعلومات اللازمة لدراسته من المصادر التراثية الأصلية التى أرخت للعصر المملوكى، وهى كتب التاريخ

والسير والطبقات وكتب الرحلات والخطط، فضلا عن الوثائق، والمراجع الحديثة التي تناولت تاريخ المكتبات في العصر الوسيط.

وقد حرص المؤلف على تغطية موضوع دراسته، وهو المكتبات في مصر في العصر المملوكي، تغطية شاملة، وتتبع الفصول تتابعا منطقيا، وهي تعرض الموضوع بطريقة واضحة. ولم يستخدم المؤلف أسلوب التسلسل الزمني في العرض وإنما استخدم أسلوب المعالجة الموضوعية لجوانب المكتبات المختلفة، وهو الأسلوب المألوف بالنسبة للمشتغلين بالمكتبات.

يبدأ الكتاب بعرض لأهم مصادر البحث ووثائقه ومراجعته وهذا يشير إلى اطلاع الباحث الواسع على عدد كبير من المصادر القديمة والحديثة. يلي ذلك مقدمة عن أحوال المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ثم خمسة فصول يتناول أولها نشأة المكتبات في مصر في العصر المملوكي وأنواع هذه المكتبات، ويتناول الفصل الثاني الموارد المادية والبشرية في المكتبات المملوكية، أما الفصل الثالث فهو يتناول النظم والإجراءات الفنية المتعلقة بالتزويد والفهرسة والتصنيف، بينما يتناول الفصل الرابع الخدمات والأنشطة المكتبية ويتبع الفصل الخامس مظاهر تدهور أوضاع المكتبات المملوكية وأسبابها.

وهكذا فإن الكتاب يقدم صورة موثقة لحركة المكتبات في العصر المملوكي، وهو بمثابة مصدر لاغنى عنه لدارسي تاريخ المكتبات في مصر.

تحية لصاحب هذا الكتاب الذي يبشر بمستقبل زاهر، والذي وضع بكتابه هذا لبنة طيبة في سيرته العلمية.

والله ولي التوفيق

د. محمد فتحى عبد الهادى

تقديم

بقلم

دكتور جوزيف نسيم يوسف

استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية

يسعدنى أن أقدم لقراء العربية الكرام باحثاً ممتازاً وكتاباً قيماً. الباحث الاستاذ السيد السيد محمود النشار المدرس المساعد بقسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية. والكتاب «تاريخ المكتبات فى مصر : العصر المملوكى».

أما عن الباحث فهو من خريجى قسم المكتبات والمعلومات. حصل على درجة الليسانس فى مايو ١٩٨٦ بتقدير «ممتاز» مع مرتبة الشرف. وفى نوفمبر من نفس العام عين معيداً بالتكليف بالقسم. وفى نوفمبر ١٩٨٩ اجتاز امتحان السنة التمهيدية للماجستير بتقدير «جيد جداً». وفى يناير ١٩٩٠ سجل تحت إشرافى لنيل درجة الماجستير فى موضوع هذا الكتاب. وفى مارس من نفس العام حصل على شهادة التوفيل من مركز خدمة المجتمع بجامعة الاسكندرية بتقدير «جيد». وفى يناير ١٩٩٢ حصل على درجة الماجستير بتقدير «ممتاز». وفى فبراير ١٩٩٢ عين مدرساً مساعداً بالقسم. فى نفس الشهر سجل للحصول على درجة الدكتوراه تحت الإشراف المشترك منى ومن الزميل الاستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطى استاذ المكتبات والمعلومات بجامعة القاهرة فى موضوع «الضبط الببليوجرافى للمخطوطات العربية فى مصر : دراسة وتخطيط».

يمتاز الباحث بنشاطه العلمى وحبه الكبير لكل ما يمت بصلة للكتاب والمكتبات. وهو عضو فى العديد من الجمعيات العلمية، من بينها الجمعية المصرية للمعلومات والمكتبات والأرشيف، وجمعية المكتبات المدرسية بالقاهرة والجمعية العربية لنظم وتكنولوجيا المعلومات. وله العديد من المقالات والدراسات النقدية الطيبة التى نشرت فى عدد من

الدوريات المتعلقة بالحركة المكتبية مثل «عالم الكتاب»، و«صحيفة المكتبة»، و«مجلة المكتبات والمعلومات العربية»، لعلنا نستشف، مما سبق، أننا أمام شاب جاد عطاء يعشق الكتاب والمكتبة. وقد ترك هذا كله بصماته على كتابه الذى نحن بصددده.

هذا عن المؤلف، أما عن الكتاب فهو يتميز بأسلوبه السليم، ومنهجه العلمى الصحيح، وتماسك بنيانه. ويشتمل على خمسة فصول، تسبقها المقدمة، ثم الدراسة التحليلية لأهم وثائق البحث ومصادره، ثم التمهيد وبآخره الخاتمة، وثلاثة ملاحق تلقى المزيد من الضوء على قضايا البحث، وقائمة الوثائق والمصادر والمراجع التى اعتمد عليها وأفاد منها فائدة واضحة.

فى المقدمة أشار الباحث إلى أهمية الموضوع، وأهدافه، ومجاله، وحدوده الزمنية. ثم نقد الدراسات السابقة عنه مبينا أنها لم تتعرض له إلا عرضا وبشكل عام. بينما تناول هذا الكتاب الموضوع بالتفصيل من كل جوانبه، وناقش كل قضاياها ومشاكله اعتمادا على مختلف مصادره ووثائقه. وخرج بعدد من التساؤلات التى تتعلق بجوهر الحركة المكتبية فى مصر فى العصر المماليكى، والتى تناولها بالشرح والتحليل والتفسير والتعليل فى فصول الكتاب.

وأتابع ذلك بدراسة تحليلية نقدية لأهم وثائق البحث ومنابعه تتميز بقيمتها الواضحة وذكر أنه لم يصلنا عن المكتبات فى العصر الإسلامى الوسيط بعامة وعصر المماليك بصفة خاصة مصنف قائم بذاته بتاريخها ومواردها نظمها وخدماتها ومصائرهما، وأن الوثائق والحجج المملوكية هى التى أمدتنا بمادة من الطراز الأول بهذا الخصوص. وتأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية المصادر العربية التى تتصف بالعمومية دون التفصيل والتحديد. وتبين أن الوثائق والمصادر معا ساعدا على استكمال الصورة العامة للبحث. وتعتبر هذه الدراسة إضافة لها وزنها إلى الدراسات الوثائقية والبيبلوجرافية المتعلقة بالحركة المكتبية فى مصر فى العصر الإسلامى الوسيط.

وفى التمهيد تحدث بتركيز عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، وكيف أنها تركت بصماتها على الحركة المكتبية آنذاك. ذلك أن استقرار أحوال مصر أدى إلى الرخاء وإثراء الحياة الفكرية، الأمر الذى ترتب عليه ازدهار المكتبات بمختلف أشكالها، وبما حوته من نفائس المخطوطات، ويعتبر هذا التمهيد مدخلا طبيعيا لفصول الكتاب.

أما الفصل الأول وعنوانه «المكتبات المملوكية في مصر : نشأتها وأنواعها، نقد تحدث فيه عن ظروف نشأة المكتبات في مصر الإسلامية، موضحاً أن المكتبات المملوكية هي امتداد طبيعي للمكتبات في العهود السابقة عنها. ثم تناول بالتفصيل أنواع المكتبات المملوكية ومسمياتها. وتوصل إلى نتيجة هامة وهي أن المكتبة وجدت داخل كل منشأة، كبيرة كانت أم صغيرة، بهدف تلبية احتياجات مجتمعها ولو كان محدوداً وأن الكتاب والمكتبة كان جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان وقتذاك.

وتناول في الفصل الثاني وعنوانه «الموارد المادية والبشرية، عدداً من القضايا الهامة مثل المباني والتجهيزات، والموارد المالية ومصادرها ووجوه إنفاقها، والمجموعات المكتبية، والعاملين في المكتبات وفئاتهم ومشاكلهم. وأدلى بدلوه في مناقشة هذه القضايا التي تعالج للمرة الأولى بالنسبة للمكتبة المملوكية في مصر، وتوصل إلى نتائج تتسم بقيمتها وأهميتها وتضيف جديداً إلى الموضوع. وفي الفصل الثالث وعنوانه «النظم والإجراءات الفنية في المكتبات المملوكية» ناقش موضوعين هامين : أولهما بناء وتنمية المجموعات المكتبية، وثانيهما التنظيم والإعداد الفني للمكتبة. وفيما يتعلق بالموضوع الأول أثبت أن المكتبات المملوكية عرفت سياسة التزويد متمثلة في وثائق الوقف التي كانت بمثابة لوائح تنظيمية لها. وأوضح أن مصادر التزويد تعددت ما بين شراء ووقف وإهداء ونسخ. وحدد، أيضاً، كيفية اختيار الكتب مبيناً أنها كانت تتم عادة بالتشاور بين أمراء المكتبات وأولى الأمر في المؤسسات التي تتبعها. وبالنسبة للموضوع الثاني أكد أن المكتبات المملوكية عرفت نظم التسليم والتسلم، وإجراءات التسجيل، والجرد، والفهرسة، والتصنيف، والتجليد، والترميم، والصيانة.

واستعرض في الفصل الرابع وعنوانه «الخدمات والأنشطة في المكتبات المملوكية، أنواع تلك الخدمات والأنشطة والتي يدخل في نطاقها مواعيد فتح المكتبة، وعدد ساعات العمل بها، مبيناً أن ذلك كان يختلف من مؤسسة إلى أخرى وفقاً للائحة كل منها وشروط الواقع. وتحدث عن المستفيدين من تلك المكتبات وفئاتهم، مؤكداً أن أنماط الإفادة تعددت بين خدمات الاطلاع الداخلي، والإعارة الخارجية، والنسخ، وإرشاد القراء، إلى جانب الخدمات الببلوجرافية والتعليمية. وأنهى الفصل بتقييم عام للدور التربوي لتلك المكتبات. وفي الفصل الخامس والأخير وعنوانه «مصادر المكتبات المملوكية، تتبع المؤلف أسباب ومظاهر تدهور أوضاع تلك المكتبات والتفريط في محتوياتها خاصة في الفترة الأخيرة

من عصر دولة المماليك الجراكسة . وأرجع ذلك إلى عدة عوامل منها سوء إدارة بعض المشرفين على تلك المكتبات ، واستغلال بعض العلماء والقضاة لها ونهب محتوياتها ، وفقد عدد منها لمصادر تمويلها ، بالإضافة إلى عوامل الجو والطبيعية . كما أن تلك المكتبات تعرضت للسلب والنهب خلال فترة الانتقال من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني .

وفي خاتمة الكتاب استعرض المؤلف أهم القضايا والمشاكل التي تعرض لها ، وأبرز النتائج التي توصل إليها . ولم يكتف بذلك ، بل قدم عددا من التوصيات كحلول للمشكلات التي ناقشها . بحكم ارتباط الكتاب بتاريخنا الممتد وتراثنا العربي العريق ، وبحكم ارتباطه الوثيق بالحركة المكتبية بمفهومها الدقيق بالنسبة للمعنيين بعلم المكتبات . وفي هذا الصدد أوضح أن التجربة المملوكية في مجال الحركة المكتبية ، إلى جانب غيرها من التجارب العربية ، يمكن أن نفيد منها وأن نعتبرها الأساس المتين الذي يركز عليه علم المكتبات والمعلومات في عالمنا العربي المعاصر .

يتضح مما تقدم أن المؤلف تصدى بشجاعة لموضوع صعب لندرة ماداته التي اعتصرها من بطون الوثائق والأصول . وهو ، في نفس الوقت ، موضوع هادف لأنه ألقى ضوءا كاشفا على الحركة المكتبية في مصر في عصر دولة سلاطين المماليك الأولى والثانية الذي يشغل أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، كشف فيه عن تجربة حية نابضة لهذه الحركة بكل أبعادها ومن مختلف زواياها وجنبااتها . والموضوع ، فوق هذا وذاك جديد في بابه ، لأنه يمثل أول دراسة علمية مستقلة متكاملة قائمة بذاتها في هذا الميدان الحيوي الهام . كذلك ناقش المؤلف في ثلث فصول الكتاب العديد من القضايا البالغة الأهمية في حيدة وموضوعية وأمانة ، وتوصل إلى العديد من الآراء والنتائج التي تتميز بدقتها وجدتها وأصالتها ، مما يكشف عن حاسة مكتبية أصيلة يتمتع بها ، وعن فهم راع دقيق لموضوع الكتاب بكل أبعاده .

ويعتبر هذا الكتاب إضافة لها وزنها إلى الدراسات المتعلقة بالحركة المكتبية في العالم العربي بعامة وفي مصر على وجه الخصوص ،

الإسكندرية في ١٠ أكتوبر ١٩٩٢

دكتور جوزيف نسيم يوسف

المقدمة

شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك نشاطا علميا وثقافيا متعدد الأطراف^(١) ساعدت عليه عوامل عدة، منها الازدهار الاقتصادي الذي عاشته مصر إبان تلك الفترة والذي حقق لها الأمن والأمان، ومنها أيضا إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على أيدي التتار^(٢). وقد تمثل هذا النشاط فيما أنشئ من مؤسسات تعليمية وتربوية. ولأن الكتب تعتبر حزاء لا يتجزأ من العملية التعليمية التي لا تقوم إلا بها، فقد حرص المماليك على توفير المكتبات داخل كل مؤسسة. فكانت هناك إلى جانب المكتبات الخاصة، المكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس والبيمارستانات ومؤسسات الصوفية حتى وصل الأمر إلى إقامة مكتبات في الترب والمقابر. وقد وفر لها أولو الأمر جميع مقومات الخدمات والأنشطة من موارد مادية وبشرية، ومن نظم وإجراءات فنية وإدارية.

ورغم أهمية الدور الذي لعبته المكتبات إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة والتي امتدت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان، فقد أغفل معظم الذين كتبوا عن تاريخ المكتبات هذه الفترة وأسقوطها من حسابهم^(٣). وربما أشار بعضهم إلى هذه الفترة أشارت

(١) انظر ص ٥٤ - ٥٨ من الكتاب

(٢) انظر ص ٥٠ من الكتاب

(٣) انظر على سبيل المثال : عبد الستار عبد الحق الحلوجي : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢، محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام، نشأتها وتطورها ومصائرهما، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٧٩م، عبد اللطيف الصوفي : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م. راجع أيضا.

Youssef Eche, Les Bibliothèques Arabes Publiques et Semi Publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypt au Moyon age, Damas, Instiute Francaise de Damas, 1967

عابرة مفادها خلو عصر سلاطين المماليك من هذا النشاط المكتبي لأنه - في زعمهم كان عصر انحطاط وتأخر. من ذلك ما ذهب إليه أحد الكتاب الغربيين بتاريخ المكتبات وهو تومبسون J.W. Thompson من أن الشرق العربي الإسلامي قد إنها وأصبح خرابا بعد غزوات المغول، وأنه لم يبق من كبروته حتى قيام دولة العثمانيين^(١) وسوف يكشف هذا البحث بالأدلة والأسانيد الموثقة عكس هذا الرأي تماما.

أما مؤرخون المكتبات في مصر فقد تجاوزوا العصر المملوكي في مؤلفاتهم، سواء في ذلك من كتب في تاريخ المكتبات عن الفترة السابقة للعصر المملوكي^(٢)، أو من كتب عن الفترة اللاحقة له^(٣). وربما كان سبب الإحجام عن الخوض في هذا الميدان، هو تلك الفكرة السائدة عن المظالم التي ارتكبتها بعض السلاطين المماليك، والتي استووا فيها مع سابقهم من الحكام من عباسيين وغيرهم. ولكن هذا لا يبرر، في رأينا، إسقاط الصفحات المشرفة للنهضة المكتبية في العصر المملوكي، التي لازلنا نتمتع بثمارها حتى يومنا هذا. آية ذلك الموسوعات والمؤلفات التي تعج بها مكتبات العالم من أقصاه إلى أقصاه والتي ترجع إلى ذلك العصر.

ومهما يكن من نظام المكتبات في العصر المملوكي، فإن الواجب يحتم علينا ألا نهمل جانباً من حياتنا العلمية ونقتطع حلقة من حلقات تطور المكتبة العربية، ذلك لأن حياتنا المعاصرة متصلة دون شك اتصالاً وثيقاً بحياتنا في العصر الإسلامي الوسيط.

(١) - Thompson, J.W., The Medieval Library, New York, 1967, p 368.

(٢) من ذلك راجع: متولى محمد متولى: المكتبة ودورها التربوي في مصر الفاطمية شبين الكوم، ١٩٨٣. (رسالة ماجستير - كلية التربية - جامعة المنوفية).

(٣) لعل من أهم الدراسات التي تناولت الحركة المكتبية في العصر الحديث والمعاصر مستخدمة في ذلك المنهج التاريخي:

- سيدة ماجد محمد ربيع: تبادل المطبوعات بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، دراسة تاريخية تقويمية، القاهرة، ١٩٨٩، (رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القاهرة).

- شعبان عبد العزيز خليفة: حركة نشر الكتب في مصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٤ م.

- عابدة إبراهيم نصر: حركة نشر الكتب في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٨٩ م (رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القاهرة).

ولا نغالى إذا قلنا إن عصر سلاطين المماليك فى حياتنا المعاصرة من الآثار والتجارب والخبرات ما لم تخلفه العصور السابقة عليه . وكان هذا السبب من بين الأسباب التى شجعت الباحث على وصل هذه الحلقة المكتبية المنسبة بالحلقات السابقة عنه واللاحقة لها ، وباستكمال هذه الحلقة يكون قد تم وضع لبنة فى تاريخ المكتبات الإسلامية بشكل عام ، وتاريخ المكتبات المصرية بشكل خاص . هذا عن أهمية البحث وسبب اختياره موضوعا للدراسة . أما عن أهدافه فهو يعنى فى المقام الأول التعرف على عناصر ومكونات الخزنة المكتبية فى مصر المملوكية من حيث الموارد المادية والبشرية ، والنظم والإجراءات الفنية ، والخدمات والأنشطة ، بغرض تقديم صورة واقعية للحركة المكتبية وقتها حتى يتسنى الوقوف على المتغيرات التى حدثت فى هذا العصر وانعكاساتها على حركة المكتبات بعامة مما يمكننا من الاستفادة منها فى حياتنا المعاصرة .

لذلك يتجه البحث إلى الإجابة عن الاستفسارات التالية :

١ - إذا كانت المكتبات جزءا من العملية التعليمية لا تقوم إلا به ، وأن العصر المملوكى شهد نهضة علمية كبيرة ، فهل وجدت مكتبات فى هذا العصر أم لا ؟ وإن وجدت فما هى أنواعها ؟

٢ - هل كانت هناك مواصفات خاصة بمباني المكتبات المملوكية ؟ وما مدى مساهمة ذلك فى تقديم الخدمة المطلوبة ؟

٣ - ما هى التجهيزات التى استخدمت من قبل المكتبات وإلى أى مدى ساهمت فى تقديم الخدمة ؟

٤ - ما هى الموارد المالية الخاصة بالمكتبات المملوكية وأوجه إنفاقها ؟

٥ - من هم العاملون بالمكتبات المملوكية وصفاتهم ورواتبهم ، ومدى التزامهم بهذه الواجبات ؟

- ٦ - المقتنيات بالمكتبة المملوكية ما هي، أنواعها، وأحجامها، وتغطيتها الموضوعية؟
 - ٧ - هل كانت هناك سياسة للتزويد من المكتبة المملوكية؟ وما هي مصادر التزويد؟
 - ٨ - هل كانت هناك نظم أو إجراءات فنية استخدمت من قبل المكتبة المملوكية؟ وما هي إن وجدت؟
 - ٩ - هل كانت هناك مواعيد محددة لفتح المكتبة للجمهور في العصر المملوكي؟
 - ١٠ - من هم المستفيدون من المكتبات؟ وفئاتهم وأعدادهم؟
 - ١١ - ما هي أوجه الإفادة من الخدمة المكتبية في المكتبات المملوكية؟
 - ١٢ - هل كان هناك دور تربوي تعليمي للمكتبات المملوكية؟ وما مظاهره؟
 - ١٣ - ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية المعاصرة لها؟ وهل كان هناك اتصال أو تعاون فيما بينهما؟
 - ١٤ - ما مدى تأثير الفتح العثماني لمصر على المكتبات المملوكية؟
 - ١٥ - وأخيراً، ما مدى تأثير وانعكاس المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية على المكتبات إبان العصر المملوكي؟
- تلك هي التساؤلات التي حاولنا أن نجد إجابات واضحة محددة لها اعتماداً على الوثائق والمصادر التي تحت أيدينا.

وفيما يتعلق بمجال البحث وحدوده، فمن المعروف أن دولة المماليك شملت مصر والشام وبلاد اليمن والحجاز. ونظراً لهذا الاتساع الجغرافي اقتصر البحث على دراسة المكتبات في مصر باعتبارها عاصمة دولتي المماليك الأولى والثانية، في الفترة الواقعة بين عامي ٦٤٨ و٩٢٣ هـ (١٢٥٠-١٥١٧ م)

وعلى الرغم من عدم ظهور دراسة متخصصة متكاملة قائمة بذاتها عن المكتبات في العصر المملوكي، إلا أنه يجب القول إنه نشرت أبحاث تناولت جانباً من جوانب الموضوع أوزواية من زواياه، وأفدنا في دراستنا. ويأتى على رأسها بحث الدكتور عبد اللطيف إبراهيم على، الذى قدم فيه دراسة عن المكتبة فى المدرسة المملوكية^(١)، وخص بالذكر أهمية المكتبة ومكانتها بالنسبة للمدرسة وصفات العاملين فيها. وقد ساعدتنا هذه الدراسة فى التعرف على بعض مصادر الموضوع. غير أن سيادته^(٢) لم يتعرض فى بحثه للأنواع الأخرى من المكتبات المملوكية، ومواردها المادية ونظمها وإجراءاتها الفنية لاسيما ما يتصل منها بالفهرسة والتصنيف والتجليد والجرد والصيانة. كذلك لم يتناول موضوع المستفيدين من المكتبات المملوكية، وساعات العمل بها، وأنماط الاستفادة من الخدمة المكتبية، وإن كان هناك ذكر لبعض جوانب الخدمة. كل هذا تناولنا، تفضيلاً على امتداد صفحات الرسالة. كذلك تناولنا تقييم الدور التربوى للمكتبات المملوكية ومصائرها وما لحق بها من مصائب ورزايا، ومدى تأثير الفتح العثمانى عليها، وعقدنا مقارنة مركزة بينها وبين المكتبات الأوروبية المعاصرة لها مع بيان أوجه الشبه والخلاف بينها.

وظهرت دراسات أخرى تناولت عرضاً للمكتبات المملوكية ضمن دراستها لجانب أو أكثر من جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر المملوكية^(٣). غير أن هذه الدراسات لم تأت

(١) عبد اللطيف إبراهيم على: المكتبة المملوكية، فى كتابه دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٥-٤٠.

(٢) جدير بالذكر أن الدكتور عبد اللطيف قام بدراسة ونشر وتحقيق عدد من الوثائق المملوكية منها ما يتصل بالمكتبات، ومنها ما يتصل بالمؤسسات الأخرى، وكانت خير معين لنا فى هذا البحث. راجع الدراسة التحليلية للمصادر، ص ١٤-١٧ من الكتاب.

(٣) راجع على سبيل المثال:

- عبد الغنى محمود عبد الغنى: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨١م، ص ٢٤٧-٢٦٢.

- على سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨١م، ص ٢٧٦-٢٨٠.

- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨-٩٣٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٨٠م. ص ٢٥٥-٢٥٩.

بجديد، كما أنها جاءت مبتورة إذ اعتمد مؤلفاها على تلخيص بعض جوانب بحث الدكتور عبد اللطيف سالف الذكر، كما أن معالجتها جاءت من زوايا مختلفة وذلك خدمة للسياق المدروس فيه. والخلاصة أن هذه الأبحاث لا تغطي سوى جانب محدود للغاية من الموضوع ولا تفي بالغرض المطلوب، خاصة أن ما ورد فيها عن المكتبات المملوكية لا يتعدى، بضع صفحات لا تشفى من غل. وجاءت بعض المعلومات أحيانا مبعثرة متناثرة هنا وهناك. وهى فوق هذا وذاك، لا تعتمد سوى على عدد محدود جدا من المصادر.

أما من ناحية المنهج الذى اتبعناه فى هذه الدراسة فقد اعتمدنا على منهج البحث التاريخى، الذى يقوم أساسا على جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة بالموضوع من مصادره الأصلية والتى أرخت للعصر المملوكى، وتشمل على كتب التاريخ والتراجم والسير والطبقات وكتب الرحلات والخطط، فضلا عن الوثائق الوقفية، مع التركيز على كل ما له صلة بالمكتبات ومواردها ونظمها وخدماتها. هذا بالإضافة إلى المراجع الحديثة، من عربية وغير عربية التى تعرضت لتاريخ الكتب والمكتبات فى العصر الإسلامى الوسيط.

وقد فرصت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى خمسة فصول لا تتبع نظام التسلسل الزمنى، وإنما يأتى ذلك فى إطار المعالجة الموضوعية بكل جانب من جوانب البحث فى فصل بعينه. وقد مهدنا لذلك بدراسة تحليلية نقدية لأهم وثائق ومصادر البحث ومراجعته، وتمهيد عن أحوال المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك وانعكاس ذلك على الحركة المكتبية وقتها. وفى الفصل الأول وعنوانه «المكتبات فى مصر فى عصر سلاطين المماليك: نشأتها وأنواعها» قدمنا دراسة لنشأة المكتبات فى مصر وتطورها قبيل العصر المملوكى، ثم استعرضنا أنواع المكتبات المملوكية، وهى المكتبات الخاصة، ومكتبات المساجد والجوامع، ومكتبات المدارس، ومكتبات البيمارستانات، ومكتبات الخوانق والرُّبُط والزوايا والخلوى، ومكتبات التُّرب والمدافن والقباب. مع ذكر أمثله لكل نوع من أنواع المكتبات الست والتركيز على اسم المكتبة ومؤسسها وسنة التأسيس ومكانها.

أما الفصل الثانى فقد تناولنا فيه «الموارد المادية والبشرية فى المكتبات المملوكية، وعالجنا فى الفصل الثالث وعنوانه «النظم والإجراءات الفنية، وفى الفصل الرابع درسنا

«الخدمات والأنشطة في المكتبات المملوكية، أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه «مصادر المكتبات المملوكية، فقد تناولنا فيه تدهور أوضاع المكتبات المملوكية، والتفريط في محتوياتها وبحثنا أسباب ومظاهر هذا التدهور وذلك التفريط. كما درسنا مدى تأثير الفتح العثماني لمصر على المكتبات المملوكية وما تعرضت له من نهب وسطو.

وفي الخاتمة عرضنا لأهم القضايا التي عرضت على بساط البحث، وأبرز النتائج والاستنتاجات التي أمكننا التوصل إليها. وذلنا الدراسة بثلاثة ملاحق تتصل بالموضوع اتصالاً وثيقاً، يشتمل الملحق الأول على مجموعة لوحات لنصوص وقفية تحمل نص الوقفية وتبرز التفاوت بين هذه النصوص كما تحمل ختم تمليك المكتبة. والملحق الثاني عبارة عن جدول يوضح المرتبات الشهرية والمستحقات الإضافية التي كان يتقاضاها أمراء المكتبات المملوكية. أما الملحق الثالث فهو نص لا يزال مخطوطاً قديماً بنشرة لأول مرة وهو مأخوذ من مخطوطة «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، وتناول فيه قضية الإعارة في المكتبة المملوكية. وقد مهدنا لهذه الملاحق بمقدمة وذلنا الملحق الثالث بعدد من الهوامش للتعريف ببعض الأعلام والمصطلحات. وفي نهاية الكتاب ثبت بالمصادر والوثائق العربية والمراجع العربية والأجنبية التي رجعنا إليها واستقينا مادتنا العلمية منها.

وبعد فأجد لزاماً وقعاً على أن أسجل شكرى وحبى وتقديرى الكبير لاستاذى الفاضل الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف الذى كان لعونه الكبير وتوجيهاته القيمة أكبر الأثر فى إنهاء هذا البحث، إذ أعطانى من وقته الثمين جزءاً كبيراً ولم يبخل على بأى توجيه أو نصيحة وكان له بعد توفيق الله تعالى الفضل فى ظهور هذا العمل بهذه الصورة المشرفة فكان نعم الاستاذ المشرف العالم المدقق، فجزاه الله على كل خير وأمد فى عمره وأبقاه زخراً لكل باحث وطالب علم.

كما أسجل شكرى الخالص إلى الوالد العزيز الاستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطلى وإلى الاخت العزيزة الدكتورة سيدة ماجد ربيع الذين تفضلاً وقبلوا مناقشتى وتوجيهى ولما

أبدوه من ملاحظات، فقد حرصت على الإفادة من آرائهم القيمة عندما شرعت في تقديم الكتاب إلى المطبعة

لهم جميعاً ولزوجتي السيدة/ جيهان محمود السيد- التي كانت دوماً عوناً لي- اهدى محبتي وتقديرى، ولو أنى اهديت هذا البحث إلى كل واحد منهم فلن أوفيه حقه ولكن أدعو الله عز وجل أن يجزيهم على خيراً.

والله تعالى من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

السيد النشار

دراسة تحليلية نقدية لأهم وثائق ومصادر البحث ومراجعته

- الوثائق : أهميتها - أماكن تواجدها - أنواعها .

- المصادر العربية :

بدر الدين بن جماعة - الإدقوى - ابن الأكفاني السنجاري -
تاج الدين السبكي - القلقشندي - المقرئزي - ابن حجر العسقلاني
- شمس الدين السخاوي - جلال الدين السيوطي - ابن إياس
الحنفي .

- المراجع العربية .

- المراجع الأجنبية .

ينبغي الإشارة بادية ذي بدء، وقبل الخوض في عرض وتحليل أهم الوثائق والمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، إلى أنه لم يصلنا عن المكتبات في العصر الإسلامي الوسيط بما في ذلك عصر سلاطين المماليك، مصنف خاص بتاريخ المكتبات ومواردها ونظمها وخدماتها ومصائرها، يمكن أن نعتد عليه في إعادة كتابتنا لهذا التاريخ. وربما يرجع ذلك إلى أن فن الكتابة في تاريخ المؤسسات إنما هو اتجاه جديد،^(١) لم يعرف في العالم الإسلامي إلا متأخرا^(٢). وفي غياب مثل هذا التاريخ لتلك المؤسسات الحضارية، وفي مقدمتها المكتبات، كان لزاما علينا أن ننقب في بطون الوثائق والمصادر والمراجع المختلفة، سواء تلك التي تعالج تاريخ مصر العام أو تلك التي تتعلق بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية للفترة الزمنية موضوع الدراسة.

ومن ثم رجعنا إلى مجموعة متنوعة ومتعددة من الوثائق والحجج والأصول، والمصادر العربية الخطية والمطبوعة، فضلا عن المراجع الحديثة المتخصصة العربية منها والأجنبية التي تعالج من قريب أو من بعيد المكتبات في مصر في عصر سلاطين المماليك.

وثائق الوثائق المملوكية في المقام الأول من الأهمية، ومرجع ذلك إلى أنها أمدتنا

(١) يونان لبیب رزق : مقدمة كتاب : عبد النعم السوقي الجمعی : مجمع اللغة العربية ، دراسة تاريخية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ م ص ٥ .

(٢) يرجع أن إحصاءات هذا الفن من التاريخ - تاريخ المؤسسات - يمكن أن نؤرخ له في العالم الإسلامي بكتاب «الدعوى الدمشقي» ، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) : الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، دمشق ، للمجمع العلمي العربي ، ١٩٤٨ . وقد تناول الدعوى في هذا الكتاب ذكر المدارس التي ظهرت في الشام في العصر الإسلامي بصفة عامة ، والمماليكي بصفة خاصة . ونعتقد أن هذا الفن نشأ لدينا في أحشاء المورعات العربية التي ظهرت بكثرة في العصر المماليكي ، مثال ذلك ما ذكره القلقشندي في «صبح الأعشى» عن نشأة وتطور وظائف ديوان الإنشاء كمؤسسة رسمية ، وكذلك ما ذكره المقرئ في «الخطط» عن المساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية والصوفية والتربوية .

بمادة وفيرة من الطراز الأول عن النظم والموارد والإجراءات والخدمات فى المكتبات المملوكية . وهو ما أغفلته معظم المصادر العربية إلا فيما ندر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الوثائق مصادر نزيهة لا شك فى صحتها ، يستقى منها الوثائق والمؤرخ معلوماته وهو مطمئن إلى صحة ما جاء بها لأنها لم تكتب أصلاً بغرض التأليف التاريخي ، لهذا انتقت عنها الأهواء الذاتية^(١) . كما أن كتابها من موثقين وكتاب اتبعوا فى أغلب الأحوال فى إخراجها قواعد وأساليب جرت التقاليد المرعية فى تلك الدواوين على اتباعها بدقة . لهذا اعتمدنا بصفة أساسية على الوثائق التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، والتى يحتفظ بها فى أرشيف وزارة الأوقاف ، ودار الوثائق القومية (مجموعة المحكمة الشرعية) ، ودار الكتب المصرية (قسم المخطوطات) بالقاهرة والتى تزيد فى مجموعها عن ثمانمائة وثيقة^(٢) ، منها حوالى ستين وثيقة وقف خاصة بالمؤسسات التعليمية والتربوية والصوفية التى وجدت فى العصر المملوكى سواء التى أنشئت إبانه أو قبله . وتضم هذه الوثائق وصفاً كاملاً لهذه المؤسسات بما فيها مكاتباتها والحياة التعليمية

(١) سلوى على ميلاد : وثائق أهل الذمة فى العصر العثمانى وأهميتها التاريخية ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ م - ص ٣ .

(٢) جدير بالذكر أن هذه المجموعة الوثائقية تعد مصدر أصيل وخصب لدراسة تاريخ مصر فى عصر سلاطين المماليك ، ولايسمى فى الدواخى الاقتصادية والاجتماعية والآثارية فهى تقدم للباحث من المعلومات مالا يتوافر عادة فى المصادر التاريخية المعروفة ، ولعل من أبرز المجالات التى تسهم هذه الوثائق فى دراستها : دراسة تراجم مشاهير الرجال ومعرفة أنساب المماليك وأمرائهم وسلاطينهم وألقابهم الفخرية والرسمية والوظائف المختلفة ، والشروط التى يجب أن تتوافر فىمن يقوم بها ، وطريقة تعيين الموظفين ومرتباتهم وإجازاتهم وأحوالهم المعيشية ، طوائف المماليك وطبقاتهم ، تنظيم الجيش ، خطط القاهرة وظاهرها ، الألفاظ الاصطلاحية الخاصة بصناعة البناء ومواده ، أسماء وألقاب المهندسين ، وصف تفصيلي للعناصر الدينية والمدنية فى العصور الوسطى ، بل ويمكن الاعتماد عليها فى ترميم الآثار الإسلامية وإعادةتها إلى الصورة التى كانت عليها فى الماضى ، وكذلك الحياة الاجتماعية والنقود التى يتعاملون بها وقيمتها وأسعار الأراضى والعقارات ونظام إيجار الأراضى الزراعية ، وأنواع مختلف الصناعات وغيرها من المجالات التى تتصل بأحوال المجتمع المصرى إبان العصر المملوكى . (راجع : محمد محمد أمين ، فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر السلاطين المماليك مع نشر وتحقيق تسعة نماذج ، القاهرة ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨٠ ، ص ١٣ عبد اللطيف ابراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، كتاب المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ، ١٩٥٧ م) .

والتربوية فيها وأرباب الوظائف المختلفة بها والنواحى المعمارية لها، وتحديد الأوقاف التى عينت للصرف من ريعها عليها.

وفيما يتعلق بموضوع البحث فقد أمدتنا الوثائق المملوكية بتفصيلات عن إنشاء المكتبات والهدف من تأسيسها، وعن موقع المكتبة بالنسبة للمؤسسة الأم، ومواصفات المقر ومساحته، والتجهيزات الخاصة بالمكتبة، من أثاث وأدوات لحفظ المجموعات وصيانتها كصناديق الكتب ورفوفها. كما أسهبت فى ذكر موارد المكتبة المالية ووجوه إنفاقها، وفئات العاملين بها، وتحديد واجباتهم ومؤهلاتهم ومرتباتهم. فقلما نجد وثيقة من وثائق العصر المملوكى الخاصة بالمؤسسات التعليمية والصوفية إلا وتحدثت عن هذه الأمور بالتفصيل. كما أمدتنا الوثائق بمعلومات كافية عن نظام التزويد وسياسة ومصادره. أما فيما يتعلق بموجودات المكتبة من الكتب وأعدادها وموضوعاتها وإعداداتها ببيولوجرافيا وفنيا، فقد أغفلت معظم الوثائق ذكر أية معلومات تتعلق بهذا الخصوص، وذلك فيما عدا وثيقتين هما وثيقة الإيشادى^(١) ووثيقة الزرواى^(٢) التى استطعنا من خلال استنطاق نصوصهما الخروج بمؤشرات عامة من ذلك.

وأمدتنا كذلك بعض الوثائق بمعلومات أصلية عن بعض الإجراءات الفنية الأخرى مثل التسليم والتسلم، والتسجيل والجرد والصيانة والترميم. من ذلك وثيقة وقف أزيك من ططخ^(٣) ووثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق^(٤)، ووثيقة وقف السلطان حسام الدين لاجين^(٥)، ووثيقة السلطان حسن بن قلاوون^(٦)، ووثيقة الشيخ على بن سليمان

(١) انظر ص ٣٢، حاشية رقم ١ من هذا الفصل.

(٢) انظر ص ٣٤، حاشية رقم ١ من هذا الفصل.

(٣) وثيقة الآتابكى أزيك من ططخ، محكمة رقم ١٩٨، محفظة ٣١ (دار الوثائق).

(٤) وثيقة السلطان فرج بن برقوق، محكمة رقم ٦٦، محفظة ١١ (دار الوثائق). وجدير بالذكر أن صالح لمعى

مصطفى قام بنشر جزء من هذه الوثيقة فى كتابه: الوثائق والعمارة، بيروت، دار النهضة العربية، (بدون

تاريخ)، ص ٢٥-٢٩.

(٥) وثيقة السلطان حسام الدين لاجين، محكمة رقم ١٧ ١٨، محفظة ٣، (دار الوثائق)

(٦) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون رقم ٨٨١ أوقاف، وصورها رقم ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٤، محفظة ٦ (دار الوثائق).

وجدير بالذكر أن الدكتور محمد أمين قد قام بنشر هذه الوثيقة مقارنة بصورها فى ملحق الجزء الثالث

من كتاب: أبى حبيب، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) : تذكرة النبى فى أيام المنصور وبه، تحقيق

محمد محمد أمين، مج ٣، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م.

الإبشادي^(١) وريعة بكتمر الساقى^(٢) وغيرها من الوثائق. كما زودتنا الوثائق الخاصة بالسلطان الغورى^(٣). والصفوى جواهر اللالا^(٤)، والسلطان برقوق^(٥) وجمال الدين يوسف الاستادار^(٦) وفرج ابن برقوق، والقاضى يحيى زين الدين^(٧)، بمعلومات عن مواعيد فتح المكتبات للمستفيدين. واستطعنا من استلطاق بعض النصوص الوثائقية، التعرف على فئات المستفيدين من الكتاب وأعدادهم. مثال ذلك وثيقة وقف السلطان حسن بن قلاوون ووثيقة محمد بن البدر العباسى^(٨)، ووثيقة الأمير صرغتمش^(٩)، ووثيقة السلطان برسبای^(١٠)، ووثيقة المؤيد شيخ الحمودى^(١١)، ووثيقة الأمير سودون من

(١) وثيقة الشيخ على بن سليمان الابشارى رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣ (دار الوثائق)، قد قام بدراستها وتحقيقتها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على فى : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ، البحث الثالث، القاهرة، ١٩٦٢م.

(٢) ربيعة بكتمر الساقى، رقم ٧٢ مصاحف، دار الكتب المصرية، وراجع الملحق الأول، لوحة ١ بآخر الكتاب.

(٣) وثيقة وقف السلطان قانصوه الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف. وقد قام بدراستها وتحقيقتها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على فى : دراسات تاريخية أثرية فى دقات من عصر السلطان الغورى، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٦م.

(٤) وثيقة الصفوى جواهر اللالا رقم ١٠٢١ أوقاف.

(٥) وثيقة السلطان برقوق، رقم ١٥ محفظة ٩ (دار الوثائق).

(٦) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧ (دار الوثائق) وقد قام بدراسة هذه الوثيقة ونشرها الدكتور/ محمد عبد الستار عثمان فى : وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار/ دراسة تاريخية أثرية وثائقية، الاسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٣م.

(٧) وثيقة القاضى يحيى زين الدين، رقم محفظة ١٧ (دار الوثائق).

(٨) وثيقة محمد البدر العباسى، رقم ٤٣، محفظة ٧ (دار الوثائق).

(٩) وثيقة الأمير صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف. وجدير بالذكر أن الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على قام بنشر جزء من هذه الوثيقة فى : نسان جديان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الأدب - جامعة القاهرة، مج ٢٧، ج ١- ٢ (مايو- ديسمبر ١٩٦٥م)، مج ٢٨ (١٩٦٦).

(١٠) وثيقة السلطان برسبای رقم ٨٨٠ أوقاف. وقد قام بنشر هذه الوثيقة كملحق لرسالته الماجستير: محمد عبد الستار عثمان: الأعمال المعمارية للسلطان الأشرف برسبای بالقاهرة، رسالة ماجستير لم تنشر بعد. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

(١١) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف. وقد قام بنشر جزء منها عبد الغنى محمود عبد العاطى فى التعليم فى مصر فى زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة دار المعارف، ١٩٨٤م، ص ٣٣١- ٣٤٨، كما قام فهمى عبد العليم بنشر نفس الجزء من الوثيقة فى : جامع المؤيد شيخ: دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير لم تنشر بعد كلية الآثار- جامعة القاهرة، ١٩٧٨).

زادة^(١)، وغير ذلك من الوثائق التي ترجع إلى العصر المملوكي.

وأما عن سبل الإفادة من المكتبات، فقد أوردت الوثائق تفاصيل تقديم هذه الخدمات. وعلى الرغم من أن هذه الوثائق قد أجمعت على أن خدمتى الاطلاع الداخلى والنسخ كانتا متوفرة إلى حد كبير فى جميع المكتبات المملوكية، حيث كان الهدف المستهدف من إنشائها، إلا أنها أغفلت ما يفيد أنه كانت هناك إجراءات فنية تنظم هذه الخدمة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أوردت بعض الوثائق مثل وثيقة فرج بن برقوق ووثيقة جمال الدين الاستادار، ووثيقة على سليمان الابشادى، ووثيقة الجمالى يوسف^(٢) ووثيقة المؤيد شيخ المحمودى، ووثيقة الغورى. أوردت تفصيلات عن موقف المكتبات المملوكية من قضية الإعارة الخارجية تفيد أنه كان موقفا متباينا يختلف باختلاف المكتبة ولائحتها وشروط منشئها والتي كانت عادة ما ترد فى وثيقة الوقف^(٣).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت وثيقتا الابشادى والزواوى من أكثر الوثائق أهمية للبحث، ومرجع ذلك أنهما وثائق وقف خاصة بمكتبات بذاتها، وليست - كغيرها من الوثائق - خاصة بمؤسسات أم، كانت المكتبات جزء منها. وقد أمدتنا هاتان الوثيقتان ببعض التفصيلات عن موضوع البحث. فوثيقة وقف على بن سليمان الابشادى^(٤) أمدتنا بحصر شامل لمحتويات مكتبة الابشادى الخاصة التى وقفها على طلاب العلم بالجامع الأزهر، وما رتبته لها من أوقاف ليصرف من ريعها على هذه المكتبة وتعيين أمين المكتبة وصفاته وراتبه، كما زودتنا بمعلومات عن نظام التزويد والتسجيل فى المكتبة المملوكية، والتجهيزات الخاصة بالمكتبة من خزانات خشبية لحفظ الكتب وأدوات استخدامها^(٥).

(١) وثيقة الأمير سردون من زاده رقم ٥٨، محفظة ١٠، دار الوثائق القومية وقد قام بشرها حسنى نوبصر فى :

مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، (دون تاريخ).

(٢) وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة رقم ١٠٥، محفظة ١٦، دار الوثائق.

(٣) راجع، ص ٢٠٥ من الفصل الرابع من الكتاب.

(٤) وثيقة الابشادى، رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، (دار الوثائق) راجع ص ٥، حاشية ٥ من الكتاب.

(٥) جدير بالذكر أن هذه الوثيقة تفيدنا فى دراسة فن التجليد فى ذلك العصر، اذ تذكر لنا أنواعا مختلفة من الجلود الخاصة بالكتب والمصاحف منها مصحف بجلد أحمر شغل ظهره، وآخر بجلد أحمر ترخيم، والجلد المذهب، والجلد الأحمر العتيق، والجلد الأسود. راجع الوثيقة.

وأما وثيقة الزواوي^(١) فهي وثيقة إدارية، عبارة عن كشف بالكتب المقدمة من قبل الشيخ شرف الدين عيسى الزاوي المالكي والتي وقفها على طلاب العلم برواق المغاربة بالجامع الأزهر، والتي تسلمها خازن الكتب^(٢) بمكتبه الرواق. وهذه الوثيقة تعتبر نموذجا طيبا لما كان عليه العمل في إدارة مكتبة مصرية في العصر المملوكي، إذ تؤكد على وجود إجراءات التسليم والتسلم، كما أن التصنيف الذي اتبعته في ترتيب الكتب إنما هو تصنيف موضوعي يعكس فلسفة التصنيف التي كانت تستخدم في المكتبات المملوكية.

وبالإضافة إلى هذه الوثائق، هناك العديد من الوثائق المملوكية الأخرى التي أطلعنا عليها وأفدنا منها في عقد بعض المقارنات والموازنات بين النصوص الوقفية أو لتوضيح بعض زوايا البحث وغوامضه. وتأتي المصادر العربية، من خطية ومطبوعة، معاصرة ومتأخرة، في المرتبة الثانية بعد الوثائق، لأنها ضنت علينا بالكثير من المعلومات المتعلقة بموضوع البحث والتي سجلتها الوثائق من ناحية، ولأنها لا تأخذ صفة الوثائق الرسمية من ناحية أخرى ولذا كان اعتمادنا بصفة أساسية على الوثائق. أما المصادر العربية، فكانت لسد الفجوات، واستكمال الصورة، وتدعيم بعض الآراء والنظريات، وقبل أن نستعرض أهم المصادر العربية بالنسبة لهذا البحث، تجدر الإشارة إلى أن هناك ملاحظات على هذه المصادر. منها أنها تكاد تكون مطابقة لبعضها وذلك جريا على عادة المؤرخين القدامى في النقل عن بعضهم مع الإشارة أحيانا إلى المصادر التي نقلوا عنها، أو إغفال ذلك. كما أن المعلومات ذات الصلة بالموضوع التي أوردتها هذه المصادر تتصف بعموميتها ولا تجنح إلى التفصيل، فضلا عن أنها مبعثرة ومتناثرة بين طيات صفحات

(١) وثيقة الشيخ عبد الرحمن الزاوي المغربي، رقم ١٨٦، محفظة ٢٨، دار الوثائق وقد قام الدكتور عبد اللطيف إبراهيم بنشر هذه الوثيقة في كتابه دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، عام ١٩٦٢ م. راجع ترجمة الزاوي في: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٥٩.

(٢) هو الشيخ سمش الدين محمد بن جمال الدين عبد الله بن عبد العزيز المغربي المراكشي. راجع نص الوثيقة رقم ١٨٦ محفظة ٢٨، دار الوثائق، سطر ٢ - ٣.

تلك المصادر، بل وترد في كثير من الأحيان بشكل عرضي في سياق الحديث عن الحوادث والأخبار والموضوعات الأخرى وفقا لطريقة السرد الحولى التى درج عليها المؤرخون المسلمون فى العصر الإسلامى الوسيط. وقد ضاعف من حدة المشكلة أن عددا غير قليل من هذه المصادر لم يذيل بالكشافات والفهارس التى تعيننا فى الوصول للمعلومات بسرعة ودقة. ومن ثم كان لزاما علينا قراءة هذه المصادر كلمة كلمة لعلانا نخرج بإشارات نستطيع من استنطاقها رسم صورة لحركة المكتبات فى مصر إبان العصر المملوكى.

وقد رتبنا هذه المصادر حسب أهميتها بالنسبة لموضوع البحث، مع مراعاة التسلسل الزمنى لها فى نفس الوقت، ويأتى فى مقدمتها، كتاب «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم»^(١) لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)^(٢).

والكتاب يعد من المصادر الأساسية التى تناولت مناهج البحث العلمى عند المسلمين فى العصر الإسلامى الوسيط. وقد أفرد مؤلفه، كما يتضح من عنوانه، لدراسة الآداب والتقاليد التى ينبغى على طالب العلم ومعلمه اتباعها فى بحثه وقراءاته، وعلاقته بأساتذته وأقرانه من الطلاب داخل المؤسسات التعليمية وخارجها. وفيما يتعلق بالمادة التى أمدنا بها والتى تهمنى، فقد أشار فى الباب الرابع إلى الآداب التى ينبغى مراعاتها مع الكتب التى هى آلة العلم، وما يتعلق بتصحيحها وحملها وصفها وشرائها وعارياتها ونسخها وغير ذلك، كما أمدنا بمادة طيبة عن آداب الإعارة الخارجية وتقاليدها^(٣).

وأما كتاب «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعید»^(٤) لأبى الفضل كمال الدين

(١) ابن جماعة، بدر الدين إبراهيم : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، بيروت، ١٩٦٧م.

(٢) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ولد سنة ٦٣٩هـ / ١٢٣٧م بحماه، وتوفى بالقاهرة فى ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م وكان عالما فاضلا محدثا تولى وظائف دينية عديدة أهمها مشيخة كل من المدرسة الصالحة والمدرسة الناصرية وجامع ابن طولون، وتولى القضاء بالديار المصرية. عن ترجمته. راجع: ابن حجر العسقلانى : الدور الكامنة ج ٢، ص ٢٨١-٢٨٣.

(٣) راجع ص ٢٠٣ من الكتاب.

(٤) نشر فى القاهرة عام ١٩١٤م فى طبعة غير محققة بعنوان «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواه بأعلى الصعید»، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث. كما نشر عام ١٩٦٦م بالقاهرة أيضا تحقيق سعد محمد حسن بعنوان «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعید».

الإدقوى^(١) فى أنه يعتبر المصدر الوحيد الذى أمدنا بمعلومات عن المكتبات التى وجدت فى مدن صعيد مصر ومؤسسيها ومجموعاتها والعاملين بها، لا سيما المكتبات المدرسية منها والخاصة.

ويعد كتاب «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»^(٢) لابن الأكفانى السنجارى^(٣) (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) من أبرز المؤلفات العربية التى تناولت تصنيف المعرفة البشرية وقد اتخذ من الأساس الأكسيولوجى^(٤) أساساً لتصنيف العلوم فى كتابه. وقسم خطة تصنيفه إلى قسمين رئيسيين، يتفرع كل منهما إلى فروع. ثم بدأ فى بسط الفروع، وذلك بذكر العلم وتعريفه وموضوعه ومنفعته، مع ذكر نماذج مختارة من الكتب المؤلفة. وتبدو أهمية هذا الكتاب فى أنه يعكس نظرة العلماء العرب للعلوم وتصنيفها وتنظيمهم لها، لا سيما الذين عاشوا فى ظل دولة المماليك. ومن المرجح أن بعض المكتبات المملوكية قد استفادت من تصنيف الأكفانى فى تنظيم مجموعاتها. كما أن هذا التصنيف كان أساساً لنظم تصنيفية أخرى ظهرت بعد ذلك كتصنيف طاش كبرى زادة^(٥).

(١) هو جعفر بن ثعلب بن على الدين أبو الفضل الإدقوى ولد سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م توفى سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م. وكان عالماً باللغة وأديباً وشاعراً، تولى التدبير فى مدارس ومساجد إدقو بصعيد مصر. وله العديد من المؤلفات منها «صنف الامتناع فى أحكام السماع»، و«البدر السافر فى تحفة المسافر فى التاريخ راجع ترجمته فى مقدمة الكتاب فى مقدمة الكتاب، ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) نشر وتحقيق د. عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة، مكتب الانجلو المصرية ١٩٧٨م.

(٣) هو الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن ساعد الأنصارى ويعرف بابن الأكفانى السنجارى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨) وكان طبيباً باحثاً عالماً بالحكمة والرياضيات والفلك والأدوية وله العديد من المؤلفات مثل الدرر النظيم فى أحوال العلوم والتعليم، وغنية الطبيب فى غيبة الطبيب، ونهاية القصد فى صناعة الفصد، وغيرها كثير. وراجع ترجمته فى ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٧٩ - ٢٨٠، الشوكانى: البدر الطالع ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) أى القيمى الأخلاقى وهو أحد الأسس الفلسفية لتصنيف العلم عند العرب راجع أحمد عبد الحليم عطية، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، بالقاهرة دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩١م ص ١٠٣، ١٢١، ١٣٠.

(٥) راجع ص ١٨٤ من الكتاب.

ويتناول تاج الدين السبكي^(١) (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم»^(٢)، وهو أحد كتب الحسبة^(٣)، جميع المهن والوظائف في عصره، وآداب كل مهنة وصفات القائم بها، وتفصيل ذلك دون الاقتصار على الأخلاق العادية، كالأمانة والإخلاص والصدق. ويعد هذا الكتاب بمثابة علامة بارزة في تاريخ الإصلاح الاجتماعي، وهو مرجع قيم في تقويم الشعوب وتثقيف أعوجاجهم. وقد اعتمدنا عليه بصفة خاصة في الفصل الثاني، وذلك فيما يختص بالموارد البشرية في المكتبة المملوكية، من حيث التعرف على صفات وواجبات ومؤهلات العاملين من خازنى الكتب والنساخ والوراقين. والمجلدين والمذهبيين ودلالى الكتب. وذلك فضلا عن تحقيق بعض المصطلحات المكتبية ووظائف الأمراء التى وردت فى سياق النصوص الوثائقية.

وأما القلقشندي^(٤) (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) فيعتبر كتابه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»^(٥) من المصادر العربية الهامة لدراسة تاريخ مصر إبان العصر المماليكى فقد

(١) هو عبد الوهاب بن على بن الكافى الملقب بتاج الدين السبكي ولد سنة ٧٣٨هـ / ١٣٢٨م وتوفى سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م. ينتمى إلى بيت عريق فى العلم والتقوى، فكان أبوه تقى الدين السبكي قاضى القضاء، تقلد تاج الدين مناصب عديدة فى التدريس والقضاء، وله مؤلفات عديدة منها «طبقات الشافعية الكبرى»، وقد طبع فى ستة مجلدات. راجع ترجمته فى ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٢٦٤، السبكي: معيد النعم، ص ٥ - م.

(٢) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على البجار، وأبو زيد شلبى، ومحمد أبو العيون، القاهرة، ١٩٤٨م.

(٣) الحسبة فى الأصل تعنى الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والذى عن المنكر إذا ظهر فعله، وقد تعدت هذه الوظيفة هذا المعنى الدينى إلى أمور تنفق ومصالح المجتمع من حيث المحافظة على النظافة فى الطرق، ومراقبة الأسواق والكشف عن صحة الموازين، ومنع الغش، وتوصيف المهن والوظائف، إلى غير ذلك من الأمور. للمزيد راجع: إبراهيم نسوقى الشهاوى: الحسبة فى الإسلام، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٩، سهام مصطفى أبوزيد: الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٤١ - ٥١.

(٤) هو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبى النعمان القزازى القلقشندي ولد عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م فى قرية قلقشنده إحدى قرى القليوبية واشتغل بالفقه وبرعه فى العربية والأدب وكتب الإنشاء بداية من عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م، وناب فى الحكم. ومن أشهر كتبه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، وأنساب العرب، و«ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر»، وغير ذلك، توفى عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م. راجع: القلقشندي: صبح الاعشى ج ١١، ص ٨ - ٢٠، السخاوى: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٨.

(٥) نشر فى القاهرة بدون تحقيق فى أربعة عشر مجلدا فيما بين عامى ١٩١٣ - ١٩١٥.

عاصر جانباً كبيراً من عصر دولة المماليك كما أنه عمل في شطر كبير من حياته بديوان الإنشاء. الأمر الذي الذي مكنه من جمع العديد من الوثائق ما بين مكاتبات ومعاهدات ومراسلات أثبتتها في موسوعته التي تبلغ أربعة عشر مجلداً. وقد كان على علم بمجريات الأمور والأحوال في البلاد لتوفر تلك الوثائق تحت يديه. كما فرضت عليه طبيعة عمله أن يعرف مواقع المدن والبلدان التي يكتب عنها، وما يتعلق بذلك من أحوال اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية وفكرية. وقد خص المؤسسات التعليمية والتربوية والصوفية ومكتباتها بنصيب وافر من المعلومات. كما أفادنا في التعرف والتحقق من معاني بعض المصطلحات الفنية التي وردت في سباق الوثائق المملوكية^(١).

ومن المصادر التي أثرت البحث في العديد من نقاطه كتاب «مواظف الاعتبار بذكر الخطط والآثار» لـتقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)^(٢)، الذي يعد سجلاً شاملاً بجغرافية مصر وأحوالها الزراعية والصناعية والمالية والإدارية والعلمية والفكرية. وقد اعتمدنا عليه في العديد من النقاط لاسيما حصر المكتبات المملوكية، حيث قدم المقرئ حصرًا بالمؤسسات التعليمية والتربوية والصوفية من مدارس ومساجد وخوانق وريط وبيمارستانات، والتي وجدت في عصره، مع بيان منشئ كل مؤسسة وظروف الإنشاء وموقعها، وما إذا كانت بها مكتبة أم لا، ومصيرها إن هي قد تلاشت. كما انفرد المقرئ بذكر الإشكال الذي وقع بين أسرة جمال الدين يوسف الاستادار والسلطان فرج بن برقوق بعد موت الأول، نتيجة لاستيلاء فرج بن برقوق على المدرسة الجمالية ومكتبتها وأوقافها،

(١) نظراً لأهمية هذه الموسوعة وما تعج به من معلومات، قام محمد قنديل النقلي بإعداد كشافات تحليلية للألفاظ والمصطلحات الفنية والوثائق والبلدان وغيرها من البيانات والمعلومات. وتعتبر هذه الكشافات بمثابة مفتاح البحث في هذه الموسوعة، وبدونها يصعب على الباحث الحصول على ما يريد من معلومات بدقة وسرعة. راجع: محمد قنديل النقلي: «فهارس صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي»، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٢م.

(٢) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ ولد بالقاهرة عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م، وتوفي عام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م. وقد عمل موقفاً بديوان الإنشاء بالقلعة ثم تقلد عدة مناصب متعلقة بالقضاء وتولى الحسبة أكثر من مرة، وصنف عدداً من المؤلفات مثل «الخطط» و«السلوك» و«اتعاظ الحنفاء» و«إغاثة الأمة بكشف الغمة» راجع ترجمة في ابن تعزى بردي: «النجوم الزاهرة ج ١٠»، ص ٤٩٠ - ٤٩١، السخاوي: «التبر المسبوك»، ص ٢١ - ٢٢، الضوء اللامع: ج ٢، ص ٢١ - ٢٥.

وما آلت إليه الأمور بعد ذلك على نحو ما سنرى فى صفحات الرسالة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أمدنا المقرئى بجانب من أسباب تدهور بعض المكتبات فى عصره .

وهناك كتاب آخر للمقرئى يلى كتاب «الخطط» فى الأهمية بالنسبة لهذا البحث هو الموسوم «بالسلوك لمعرفة دول الملوك»^(١) . وقد انتهج المقرئى فى تأليفها المنهج الحولى أو الكتابه حسب السنين . والكتاب يعد تاريخاً لفترة حكم مصر والشام إبان الأيوبيين والمماليك ، حيث ضمته كافة الوقائع والأحداث التى مرت بها البلاد وأثرت تأثيراً عميقاً فى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى وما يلاحظ أنه لم تفته حادثة هامة إلا وذكرها ، إذ كتب عن جميع المنازعات بين الأمراء وفتن الأعراب ، والزلازل الذى تعرضت له البلاد ، وغير ذلك ، ولا شك أن كل هذا كان له أثره على حركة الكتب والمكتبات كما سيتضح من البحث . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أفادنا «السلوك» فى معرفة مواضع بعض المكتبات وتاريخ إنشائها ، وأسماء العاملين فى بعضهما .

وتناول ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)^(٢) فى كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»^(٣) بالتعريف للمشاهير من علماء ورجال القرن الثامن وترجماتهم ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر العربية التى اعتمدنا وأفدنا منها فى العديد من قضايا

(١) نشر الكتاب فى أربعة أجزاء كل جزء يتكون من ثلاثة أقسام ، قام بتحقيق الجزئين الأول والثانى فى سنة أقسام المرحوم الدكتور / محمد مصطفى زيادة فى الأعوام من ١٩٣٩م إلى ١٩٥٨م ، بينما قام الدكتور سعيد عاشور بتحقيق الجزئين الثالث والرابع فى سنة أقسام أخرى ، وصدرت عن الهيئة المصرية للكتاب فى الأعوام من ١٩٧٠م - ١٩٧٣م . وجدير بالذكر أن السخاوى أعد تعديلاً لهذا الكتاب سماه «التبصرة المسبوك فى ذيل السلوك» عالج فيه الفترة التالية لوفاة المقرئى وقد أطلعنا عليه ولكن لم نقد منه إلا نادراً . هذا وقد نشر الكتاب فى القاهرة عام ١٨٩٦م عن مطبعة بولاق .

(٢) هو قاضى القضاء شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ، الملقب بابن حجر ، ولد عام ٧٧٣هـ / ١٣٧٢م وتوفى عام ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م . وقد تولى إلى جانب القضاء بمصر عدة مناصب مثل مشيخة البيروسية والافتاء بدار العدل ، والخطابة بالجامع الأزهر ، وخزن الكتب بخزانة المدرسة المحمودية . وكان محدثاً مؤرخاً أديباً لغزياً . وقد ذكر السخاوى عدد ترجمته ما يقرب من مائة وخمسين مصنفاً . راجع :

- السخاوى : الجواهر الدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، مخطوط رقم ١١٤٧٠ ، دار الكتب المصرية .

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ٥ أجزاء ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

البحث. ومرجع ذلك أنه أمدنا بالكثير من المعلومات عن صفات العاملين بالمكتبات من خلال الترجمة لعدد غير قليل ممن عملوا في وظائف مكتبية كخازنى الكتب وغيرهم من العاملين. كما أفادنا فى التحقيق من وجود بعض المكتبات لاسيما الخاصة منها. وترك ابن حجر العسقلانى كتابين آخرين أطلعنا عليهما وأفدنا منهما فى مواضع قليلة ومتفرقة من البحث. ويعتبران من المصادر المساعدة على فهم بعض الأحداث والقضايا المتعلقة بالموضوع، وهما: «رفع الإصر عن قضاه مصر»^(١) ترجم فيه لبعض قضاه مصر، و«أنباء الغمر بأنباء العمر»^(٢) وهو كتاب اتبع فيه المنهج الحولى حيث جمع فيه الحوادث التى أدركها منذ ولد سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م حتى عام ٨٥٠هـ/١٤٤٧م، وأورد فى كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان ورواة الحديث.

وجاء بعد ابن حجر العسقلانى تلميذه شمس الدين السخاوى (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٨م)^(٣) الذى استدرك فى كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»^(٤) ما فات شيخه ابن حجر فى الدرر الكامنة. وجمع فيه تراجم مشاهير القرن التاسع الهجرى (الخامس الميلادى) من العلماء والقضاة والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء، ورتب التراجم على حروف المعجم، ويشترك كتاب «الضوء اللامع» مع الدرر الكامنة، فى أهميتهما بالنسبة لموضوع البحث، حيث أمدنا فيها بفيض من المعلومات عن العلماء والقضاة والأدباء

(١) قام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور حامد عبد المجيد ومحمد أبوسنة، ونشر فى القاهرة فى جزئين عامى ١٩٥٨، ١٩٦٦م.

(٢) قام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور حسن حبشى، ونشر فى القاهرة، فى ثلاثة أجزاء فى أعوام ١٩٦٩، ١٩٧٠، ١٩٧٢م.

(٣) هو الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عثمان بن محمد السخاوى ولد فى عام ٨٣١هـ/١١٢٧م وتوفى عام ٩٠٢هـ/١٤٩٨م. وقد برع فى الفقه وأصوله والحديث والقراءات والعربية والتاريخ، وأخذ على الكثير من علماء عصره وأشهرهم ابن حجر العسقلانى واشتغل بالتأليف وصنف عددا من الكتب أشهرها «الضوء اللامع» و«التبر المسبوك فى ذيل السلوك» و«الإعلام بالتوبيخ لمن نوى التاريخ». راجع السخاوى: «الضوء اللامع» ج ١ ص ٢ - ٣.

(٤) السخاوى، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ١٢ جزءا، القاهرة، ١٩٧٠م.

والتجار وغيرهم ممن ملكوا مكتبات خاصة في منازلهم. كما أمدنا بمعلومات غزيرة عن خازنى الكتب والنساخ والمذهبيين والمجلدين وغيرهم ممن كانوا يشغلون بمهنة ذات صلة بالمكتبات المملوكية. كما استطعنا من خلال استقراء بعض النصوص الواردة فى «الضوء اللامع»، تكوين فكرة عامة عن حركة نسخ الكتب وأسواق الوراقين وكيفية التعامل فيها، وآداب وأخلاق هذه الطبقة من المجتمع. وأمدنا أيضا بمعلومات عن خدمات الإعارة فى المكتبة المملوكية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يعتبر كتاب «الضوء اللامع»، مصدرا خصيبا لمعرفة أحوال بعض القضاة والعلماء والمشرفين على المكتبات الذين استغلوا مناصبهم فى السطو على ما تحت أيديهم من الكتب، وساهموا بذلك فى تقويض بنية المكتبة المملوكية.

وأما جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) ^(١) فهو يعد من أغزر العلماء العرب تأليفا وأكثرهم إنتاجا فكريا. فقد تعددت مؤلفاته الكبرى والصغرى التى ناهزت الستمائة كتاب ^(٢). وقد أفدنا فى هذه الدراسة من كتاب ورسالة له. والكتاب هو «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» ^(٣) الذى جمع فيه تاريخ مصر منذ بداية الخليقة حتى قرب نهاية عصر سلاطين المماليك. وأمدنا هذا الكتاب بتراجم الكثير ممن عملوا أو استخدموا المكتبات المملوكية من العلماء والفقهاء والأدباء. وأما الرسالة الموسومة «بذل المجهود فى خزانة محمود» ^(٤)، والتى أفتى فيها بجواز إعارة الكتب إعارة خارجية من المكتبات

(١) ولد جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبوبكر السيوطى فى عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م وتوفى عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م. وكان عالما فاضلا موسوعيا محدثا ومفسرا. تولى التدريس فى العديد من المؤسسات التعليمية فى عصره. راجع ترجمته فى السخارى: الضوء اللامع ج ٤، ص ٦٥ - ٧٠، السيوطى: فن المحاضرة - ج ١، ص ١٠ - ١٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٨، ص ٥٠ - ٥٤، الشوكانى: البدر الطالع، ج ١، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) راجع: السيوطى: فهرست مؤلفات السيوطى، مخطوط رقم ١٤٤٢٠ ج بمكتبة بلدية الاسكندرية.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة، ٢ جزء، القاهرة ١٣٢١هـ.

(٤) السيوطى: بذل المجهود فى خزانة محمود، تحقيق فزاد سيد، مجلة معهد المخطوطات، مج ٤، ج ١ (١٩٥٨م) ص ٣٦ - ٣٨.

الوقفية لمن هم جديرون بحفظها وصيانتها^(١). وتبدو أهمية هذه الرسالة بالنسبة للبحث - إضافة إلى ما سبق - في أمرين أولهما أنها أمدتنا بمادة خصبة عن جانب من جوانب العمل المكتبي في العصر المملوكي وهو الإعارة الخارجية وشروطها وموقف العلماء منها، والأمر الثاني أنها تعد الرسالة الفريدة أو المؤلف الوحيد الذي وصلنا من العصر المملوكي ويتعلق بالمكتبات المملوكية رغم أن عدد صفحاتها لا تزيد عن ثلاثة صفحات.

ومن المصادر التي اعتمدنا عليها أيضا كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور»^(٢). لمؤلفه ابن إياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣هـ / ١٥٢٣م)^(٣) الذي سار فيه على سنة من قبله من كتاب الحوليات، حيث سجل فيه تاريخ مصر منذ بدء الخليقة حتى السنوات الأولى من العصر العثماني. وقد اعتمدنا عليه في دراسة أحوال المكتبات المملوكية في نهاية عصر المماليك الجراكسة والسنوات الأولى للفتح العثماني. وذلك باعتبار أن المؤلف كان معاصرا لهذه الفترة الزمنية وشاهد عيان الكثير من أحداثها. وقد زدنا بمعلومات وفيرة عن هذه الفترة انفراد بها دون غيره من المؤرخين، وتتعلق بموقف العثمانيين والعوام من المكتبات المملوكية عقيب هزيمة طومان باي آخر سلاطين المماليك الجراكسة.

وبالإضافة إلى ما سبق، رجعنا إلى العديد من المصادر العربية الأخرى من خطية

(١) راجع ص ٢٠٦ الكتاب.

(٢) ابن إياس الحنفى، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ جزء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

(٣) هو أبو البركات محمد بن إياس الجركسى الحنفى، ولد بالقاهرة عام ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م، وتوفي عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م. ويعرف أنه لم يعمل بوظائف الدولة، وتقوم شهرته على مؤلفه التاريخي موضوع هذا الحديث، والذي أرخ فيه لفترة هامة من فترات التاريخ المصري الوسيط ونعنى به تلك الفترة التي كان معاصرا لأحداثها وهي أواخر العصر المملوكي وإلى أن تحولت مصر إلى ولاية عثمانية. وقد مكنته صلاته الطيبة ببعض رجال الدولة آن ذاك معرفة الأخبار أول بأول فجاءت كتابته دقيقة، علاوة على تمتعه بحاسة النقد لمجريات الأحداث، فكان يقف بين الحادثة والأخرى شارحا ومفسرا، راجع: محمد مصطفى زيادة: المؤرخون في مصر، ص ٤٦ - ٥٥١، أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: إياس، دراسات وبحوث، القاهرة ١٩٧٧، ص ١٢، ١٤، ٢٨، ٢٩، وغيرها.

ومنشورة، المتقدمة على الفترة الزمنية موضوع البحث، وكذلك المعاصرة لها والمتأخرة عنها، بهدف استكمال الصورة العامة للموضوع، ومن بينها مؤلفات الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٠٦هـ / ١٢٣٣م)، ودروستين في أخبار الدولتين، لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢١٧م)، ودعيون الأنبياء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م)، وفيات الأعيان، لابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٣م) وتعريفات العلوم وموضوعاتها، لناصر الدين البيضاوي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) ونهاية الأرب، لشهاب الدين النويري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، وكنز الدرر وجامع الفرر، لابن أبيك أبو بكر (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م). وتذكرة الحفاظ، الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، والسوافي بالوفيات، لابن أبيك الصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) وفوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)، وتذكرة النبوة في أيام المنصور وبينه، لابن حبيب (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) وتحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، للزركشي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩٠م)، والعبر، والمقدمة، لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، والانتصار لواسطة عقد الأمصار، لابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) وعقد الجمان، والسيف المهند، لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والمنهل الصافي المستوفي وبعد الوافي، لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) وأنباء الهصر بأبناء العصر، ونزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان، لابن الصيوفي (ت حوالي ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م)، والطبقات الكبرى، للشعراني (ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م) والكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، (ت ١٠٦١هـ / ١٦٥١م)، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)^(١). وهي جميعا - وغيرها ممن أثبتناها في قائمة المصادر بنهاية الرسالة - لا غنى عنها في دراستنا من أجل سد الفجوات الناقصة في البحث، والخروج بأفضل النتائج بغية الوصول للحقيقة البحتة المجردة عن أي هوى أو افتعال.

(١) للوقوف على البيانات الجغرافية الكاملة عن هذه المصادر. راجع: قائمة المصادر والمراجع المثبتة في نهاية الرسالة.

هذه دراسة تحليلية نقدية لأهم منابع البحث وأصوله . وبالإضافة إلى ذلك فقد رجعنا إلى العديد من المراجع الثانوية المتخصصة العربية والأجنبية التي أفدنا منها في القراءات التمهيديّة لتحديد عناصر الموضوع، وللتعرف على بعض مصادره وأصوله . كما أفادتنا في تفسير بعض قضايا البحث حيث زدتنا بمعلومات وآراء ذات قيمة، وقد غطت المراجع العربية موضوعات عدة، وأهمها أربعة تخصصات هي : المكتبات وتاريخها، تاريخ مصر في العصر الإسلامي الوسيط، العمارة والآثار الإسلامية، والتربية الإسلامية وتاريخها. ومن حسن الحظ أنه توجد في مصر مدارس علمية متخصصة في هذه العلوم خلفت لنا مؤلفات عديدة وقيمة أنارت لنا الطريق.

ومن بين المؤلفات العربية في مجال المكتبات وتاريخها التي اعتمدنا عليها مؤلفات محمد ماهر حمادة، وعبد الستار الحلوجي، وفيليب دي طرازي، ويحيى محمود ساعاتي، وشعبان عبد العزيز خليفة. أما المؤلفات العربية في تاريخ مصر في العصر الإسلامي الوسيط فمنها مؤلفات جوزيف نسيم يوسف، وأحمد مختار العبادي وسعيد عبد الفتاح عاشور، ومحمد محمد أمين، وإبراهيم طرخان ومحمد جمال الدين سرور، ومحمود رزق سليم، وعبد الوهاب عزام، ومن المؤلفات التي أفدنا منها في قطاع الآثار والعمارة الإسلامية مؤلفات أحمد فكرى، وحسن عبد الوهاب، وذكى محمد حسن، وحسن الباشا، وسعاد ماهر، وحسنى نوبصر. وأما عن التأليف في مجال تخصص التربية الإسلامية وتاريخها فمنها كتابات أحمد فؤاد الأهواني وأحمد شلبي، ومحمد عطية الإبراشي، ومحمد عبد الرحيم غنيم، وعلى سالم النباهين، وعبد الغنى عبد العاطى.

وأما عن المراجع الأجنبية فمن المؤلفات التي اعتمدنا عليها مؤلفات كريزويل Crswell^(١)، وجونسون Johnson، وأحمد خان كبير Ahmed Khan Kabir، وماكينزن Mackcensen، وبينتو Pinto وأمام الدين Imamudin^(٢)،

(١) بعد كتاب كريزويل "The muslim Architecture of Egypt" من أهم المؤلفات الأجنبية التي تناولت تاريخ العمارة الإسلامية في مصر لاسيما في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(٢) بعد كتاب إمام الدين الذي صدر في لندن عام ١٩٨٥ بعنوان "Arabic Writing & Arab libraries" من العلامات البارزة في تاريخ الانتاج الفكرى لعلوم المكتبات كما أنه يمثل ذلك التيار المتدفق لكتابات مسلمي الباكستان والهند في هذا المجال.

وتومسون Thomeson^(١) ويوسف العشي^(٢) Youssef EL Eche ، ومكي سباعي Makky Sibai^(٣). وتبدو أهمية هذه المؤلفات أنها تعكس وجهة النظر الأجنبية الأوروبية عن المكتبات الإسلامية، ولا سيما وأن المستشرقين هم أول من لفت النظر إلى ذلك. ومع ذلك، تجدر الإشارة أن المراجع العربية والأجنبية التي أسلفنا إليها، لم تتعرض لموضوع البحث تعرضاً مباشراً ولم تتناول مفرداته من قريب أو بعيد، وإنما أعانقنا - في المقام الأول - على تحديد الإطار العام لهذا، الدراسة، والاسترشاد بما ورد فيها من معلومات، بهدف طرح عدد من القضايا والنقاط التي عرضنا على بساط البحث محاولين الإجابة عنها بما تيسر لنا من وثائق وأصول ترجع إلى العصر المملوكي. ومن هنا تعتبر هذه الدراسة هي أول دراسة متكاملة قائمة بذاتها في هذا الموضوع الهام الحيوي الهادف، تظهر في الشرق أو الغرب على السواء، وتلم بكل زواياه وجوانبه وتعتمد على كل وثيقة ومنابعه.

-
- (١) تناول تومسون في أحد فصول كتابه "The Medieval Library" تاريخ المكتبات الإسلامية. وهذا الكتاب لم يخل من الافتراءات والتجاوزات، كما يعيبه الاستشهاد بمصادر أجنبية حديثة في حالات غير قليلة، وفي موضوعات كتب عنها المصادر العربية التي أرخت للمكتبات الإسلامية.
- (٢) يعد كتاب يوسف العشي من الكتب الأساسية والهامة في مجال المكتبات وقد أعده في الأصل كرسالة علمية تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى جامعات فرنسا. ونشره المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٦٧ بعد وفاته. وتناول المؤلف فيه دراسة تاريخ المكتبات العربية العامة وشبه العامة في بلاده الرافدين وسوريا ومصر في العصور الوسطى. ولا شك أن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية سيضيف الكثير من المعلومات ذات القيمة في هذا المجال، لا سيما وأنه أشار في المقدمة إلى كم هائل من المصادر التي أرخت للموضوع.
- (٣) يعد كتاب مكي سباعي عن مكتبات المساجد من أحدث الكتب التي صدرت في هذا الميدان، وقد تناول فيه تاريخ هذا النوع من المكتبات. ولكن يؤخذ عليه الاستشهاد بمراجع حديثة ودراسات أجنبية في مواضع اسهبت في تناولها المصادر والوثائق العربية.

تقديم

أحوال المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (نبذة مركزة)

- المماليك ، نشأتهم والظروف التى مهدت لقيام دولتهم.
- الأحوال السياسية.
- الأحوال الاقتصادية.
- الأحوال الاجتماعية.
- الأحوال العلمية والثقافية.
- مدى انعكاس ذلك على موضوع البحث.

تتطلب دراسة المكتبات بوصفها مؤسسات اجتماعية تعليمية تربية في مجتمع ما، الوقوف على مظاهر الحياة فيه من سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وغيرها، عسى أن يساعد ذلك على فهم الجو العام الذي أتفق وجود المكتبات فيه، والتعرف على نوع التفاعل الذي قام بينهما. وقبل أن نتعرف على أحوال المجتمع المصري إبان عصر سلاطين المماليك البحرية والجراسية، وهو العصر الذي ندرس المكتبات فيه، يجب أن نمهد لذلك بكلمة سريعة مركزة عن المماليك ونشأتهم وقيام دولتهم.

يرجع تاريخ المماليك إلى أواخر العهد الأيوبي عندما أكثروا من شرائهم^(١). وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب حفيد صلاح الدين زاد من استخدامهم في جيشه^(٢) حتى ضاقت بهم القاهرة^(٣) ولما توفي الصالح أيوب تولى شئون الدولة من بعده بصفة مؤقتة نؤقتة زوجه شجر الدر أم ابنه خليل، وهي أصلها من مماليكه. ثم جاء توران شاه ابن الملك الصالح وصاحب الحق الشرعي في حكم البلاد واختلف مع زوجته أبيه فحرصت زعماء المماليك على التخلص منه بقتله في فارسكور سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، وبذلك انتهت الدولة الأيوبية وبدأ عصر جديد من تاريخ مصر. إذ أقام المماليك شجر الدر سلطنة على البلاد وعينوا أحدهم وهو عز الدين أيبك التركمانى إلى جانبها. غير أن الخليفة العباسى المعتصم بالله لم يرض بتعيين امرأة سلطنة على البلاد، وعاب على أهل مصر ذلك وأرسل إليهم يقول «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير لكم رجلا»^(٤). ولكى تذلل شجر الدر هذه العقبة، وحتى لا يفلت الطائفة من أيدي المماليك، تزوجت من عز الدين أيبك، وتنازلت له عن العرش بعد أن قصت في منصب السلطة ثمانين يوما برهنت فيها على «حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها»^(٥).

(١) أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٨م ص ٨١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٨٣.

(٤) المقرئى: المسلك، ج ١، ص ٢٧٠.

(٥) ابن تغرى يردى : النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٣.

وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم عهد المماليك إلى دولتين هما : دولة المماليك الأولى أو دولة المماليك البحرية^(١) (٦٤٨ - ٧٨٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) ، ودولة المماليك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة^(٢) (٧٨٤ هـ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) . ويحتل السلطان الظاهر بيبرس - خليفة قطز - مكانه بارزة في تاريخ سلاطين المماليك لما قام به من أعمال داخلية وخارجية عظيمة، جعلت منه المؤسس الحقيقي لتلك الدولة فقد عمل على تنظيم الجيش المملوكي، وتعبئة فرقاً حربية مساعدة من الأعراب، وتجديد بناء الأسطول المصري، وإصلاح حصون الإسكندرية، والعناية بحراسة مداخل النيل عند دمياط ورشيد^(٣) كما عمل على القضاء على الثورات الداخلية، والتخلص من العناصر الأيوبية المناوئة، وتحصين أطراف الدولة وثغورها، والعناية بالبريد والمدارس والمساجد^(٤) على أن أهم أعمال بيبرس - إضافة إلى ما سبق - هو إحياء الخلافة العباسية في القاهرة كرمز للمسلمين يجتمعون عليه . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى أن يجعل حكمه شرعياً فتحقق له ما أراد بتفويض رسمي من الخليفة العباسي المستنصر بالله^(٥) سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م، وصار سلاطين المماليك من أيام بيبرس حتى نهاية دولتهم يتمتعون بمقام رفيع في العالم الإسلامي، باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتهما . وهكذا استطاع بأعماله الإصلاحية الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك الناشئة إلى دولة

(١) تداول على عرش مصر منهم أربعة وعشرون سلطاناً ومعظمهم من حرس السلطان نجم الدين أيوب: للمزيد راجع : علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٦٧ م؛ أحمد مختار العبادي : المرجع السابق، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق.

(٢) تربع على عرش مصر منهم ثلاثة وعشرون سلطاناً ويقال لهم المماليك الجراكسة أو، المماليك البرجية وهم من حرس السلطان قلاوون، وقد وصفوا بالبرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها. للمزيد راجع: إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦١ م؛ حكم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، تقديم محمد مصطفى زيادة، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٤) أحمد مختار العبادي - المرجع السابق ص ١٧٧ - ٢٣٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، ص ١٢٨ - ١٥٧.

(٥) محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٠ ص ٥١ - ٥٥.

الأركان وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتمموا رسالته ويحققوا الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين^(١).

وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية، فإن سلاطين المماليك ساروا على وتيرة أسلافهم وسادتهم الأيوبيين في نظام الحكم والإدارة^(٢). فالسلطان المملوكى هو رأس الإدارة المصرية والموجه لشئون البلاد، وهو أمير من الأمراء وزعيم مكنته قوته وشخصيته وكثرة ممالكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى منصب السلطنة ومن ثم أصبح صاحب الحق في الهيمنة على بقية الأمراء ومماليكهم^(٣). وكان بمصر ثلاثة نيابات، يحكم كل منها نائب عن السلطان وهي نيابات الإسكندرية التي استحدثت سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م على عهد السلطان شعبان بن حسين، ونيابة الوجه القبلى ومقرها أسيوط، ونيابة الوجه البحرى ومقرها دمنهور. كما انقسم الوجهان القبلى والبحرى إلى عدد من الولايات يحكم كل منها وال من كبار الأمراء^(٤). وتعددت الدواوين الحكومية، وكان أهمها ديوان الإنشاء الذى اختص بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة، وديوان الجيش، وديوان الأحباس الذى اختص بالأوقاف، وديوان النظر ويشبه وزارة المالية فى العصر الحديث ويقوم على أمر كل ديوان شخص يدعى الناظر أو صاحب ويليه نائب يسمى مستوفى الصحبة، لملازمته الناظر فى أعماله، ثم يليه موظفون آخرون^(٥). وقد عاشت مصر حياة سياسية شبة مستقرة وإن لم تخل عهود بعض المماليك من بعض الثورات الداخلية التى كان مصدرها العربان والمماليك أنفسهم. ولكن معظم هذه الثورات كانت تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر^(٦).

(١) أحمد مختار العبادى: المرجع السابق ص ٢٣٩.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٧، ص ١١٩.

(٣) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: صبح الأعشى - مصدر لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧ - ٣٨.

(٥) راجع على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٠٨ - ٣٣٧، وما بها من مصادر.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكى فى مصر والشام، والقاهرة دار النهضة العربية، ١٩٦٩م،

وأما عن السياسة، فإن عصر سلاطين المماليك في مصر كان من أنشط عصور التاريخ المصري الوسيط في السياسة الخارجية، لأن مصر في ذلك العصر كانت تمثل قاعدة الخلافة العباسية والقوة الضاربة التي تذود عن الإسلام والمسلمين، والقلب النابض للعالم العربي الإسلامي بالحركة والحياة ومركز إمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح ومنها كانت تخرج دائما صيحة الجهاد ضد الغزاة. فلا أقل إذا من أن يتجه إليها ملوك العرب وحكامهم يخطبون ودها وينشدون تأييدها، ويطلبون مساعدة حكامها ضد خصومهم وأعدائهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بدت مصر في ذلك العصر في نظر القوة غير الإسلامية في صورة مركز المقاومة ضد أعداء العروبة والإسلام، والقوى المتحكمة في أفضل طرق التجارة بين الشرق والغرب. فإن لم يكن الاتصال بها ضروريا في شئون السياسة والحرب فلا غنى عن الاتصال بها في عالم التجارة والعمال^(١). وقد أورد القلقشندي كثيرا من المراسلات التي جرت بين سلاطين المماليك والدول المجاورة تشير كلها إلى حسن العلاقات التي تربطهم بتلك الدول في الشرق والغرب على السواء^(٢).

وهكذا نعمت مصر المملوكية بحياة سياسية مستقرة إلى حد كبير، وكان هذا الاستقرار أحد عوامل الأزدهار الاقتصادي الذي تمتعت به إبان تلك الفترة من الزمن. فقد شجع على هجرة التجار إلى مصر، ومن ثم انتعاش حركة التجارة وما يرتبط بذلك من زراعة وصناعة. كما أن موقع مصر الجغرافي والاستراتيجي الممتاز كان أحد عوامل الازدهار الاقتصادي والتجاري اللذين نعمت بهما. فقد كانت مصر هي المصدر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب، وكانت همزة الوصل بين شقي العالم. كما كان لمرور التجارة الهندية إذ ذاك عن طريقها أثر كبير في رواج تجارتها وزيادة ثروتها^(٣). وليس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: صبح الأعشى مصدر لدراسة مصر، ص ٦٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٧، ص ٢٣٦، ٣٥٣-٣٥٧، ٣٦٠، ٣٧٠، ٤٠٧-٤١١، ج ٨،

ص ٣٣-٣٦، ٤٦-٤٨، ٧٩-٨٤، راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف: علاقات مصر بالمماليك التجارية

الاطيالية في ضوء وثائق صبح الأعشى، في كتاب: أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، القاهرة

١٩٧٣، ص ١٤٧-١٩٨، على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٤٠-١٨٢ وما بهام من مصادر.

(٣) على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٤١٦.

يمكن تعريف المكتبة^(١) بتركيز شديد، وبما يخدم أهداف هذه الدراسة، بأنها «مجموعة من الأوعية الفكرية نُظمت بطريقة تيسر الاستفادة منها».

وينطوي هذا التعريف على عدد من العناصر الأساسية التي تركز عليها أية مكتبة في أي زمان أو مكان. فالعنصر الأول هو «مجموعة من الأوعية الفكرية، سواء كانت في شكلها التقليدي بدأبالألواح الطينية وقطع الحجارة وأخشاب الأشجار وحتى أوعية المعلومات المطبوعة سواء كانت كتباً أو دوريات ومطبوعات حكومية وتقارير وبحوث مؤتمرات ومرورا بالرقوق والجلود وأوراق البردي والمخطوطات، أو كانت في شكلها غير التقليدي من مصغرات فيلمية ومواد سمعية وبصرية أو مختزنات الكترونية». والعنصر الثاني في هذا التعريف. هو «التنظيم»، ويقصد به الإعداد الفنى بمعناه الواسع من فهرسة وتصنيف وإعداد أدوات الاسترجاع. وبدون هذا التنظيم تصبح المكتبة مجرد مخزن لا يسهل الوصول إلى ما يحتويه من أوعية معلومات والاستفادة منها، وتفشل بالتالى فى تأدية رسالتها. والعنصر الثالث هو «الخدمة المكتبية»، مثل الإعارة والخدمات الببليوجرافية وخدمات المراجع؛ وهذه الخدمة هى الهدف المستهدف من إنشاء أى مكتب، وهى واجهة المكتبة ومرآتها. وبالإضافة إلى هذه العناصر الثلاثة ينبغى بطبيعة الحال توافر الموقع والأثاث المناسبين لحفظ وتداول الأوعية الفكرية، وتوفير العاملين المدربين تدريباً يؤهلهم لإدارة العمل بالمكتبة، فضلاً عن الموارد المالية التى تضمن للمكتبة استمرارية عملها.

(١) ثمة تعريفات عديدة لمفهوم المكتبة وماهيتها، وللإطلاع على هذه التعريفات انظر على سبيل المثال:

- أحمد أنور عمر: المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٣، ص ٣.

- أحمد محمد الشامى وسيد حسب الله: المعجم الموسوعى لمطلحات المكتبات والمعلومات، الرياض، دار

المريخ، ١٩٨٨، ص ٦٥٢.

The ALA Glossary of Library and Informatin science Chicago, ALA, 1983. I3o.

الصناعة لكثرة الثروة، وخاصة صناعة المنسوجات والمعادن والزجاج والخزف، فضلا عن الصناعات الحربية والورق والأثاث^(١) وغير ذلك من الصناعات المتعلقة بالكتب والمكتبات.

ورغم حالة الاستقرار التي عاشتها مصر خلال هذه المرحلة، إلا أنه كانت تتخللها بين الحين والآخر نوبات من الكساد والغلاء والقحط بل والمجاعة أحيانا، ولكن سرعان ما كانت تستعيد مصر حياتها العادية، وتستأنف رفاهيتها، ويعود إليها الرخاء، الشامل^(٢) وكثيرا ما كانت تتأثر خزينة الدولة نتيجة التبذير والإسراف الذي عاش فيه المالكي وأمرأؤهم^(٣). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان من نتيجة هذا الانتعاش أن رصد السلاطين وأمرأؤهم وأعيان دولتهم الأموال الوفيرة لإنشاء المؤسسات الخيرية والصوفية والتعليمية وتزويدها بالكتب والمكتبات^(٤) وما نتج عنه من نهضة مكتبية كانت من مفاخر ذلك العصر.

وأما عن الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك فلم تكن حياة هادئة خامدة، وإنما كانت صاخبة نشطة مليئة بالحركة نابضة بالحياة. ففي الخارج حروب وتوسع وانتصارات نتج عنها تأمين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وفي الداخل حياة حافلة بالتيارات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية نتج عنها انطلاق الفكر وتحريره. كما عاش المجتمع المصري في ظل طبقي غريب، فقد ظل المالكي طبقة منفصلة عن سائر السكان، ولم يختلطوا بهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر، وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم، وعاشوا في ترف ورفاهية وبذخ كبير^(٥). وقامت إلى جانب هذه الطبقة العسكرية الحاكمة طبقة الشعب أو الرعية التي انصرفت إلى العمل في مجال الزراعة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٢-٤٧٣؛ المقرئزي: المملوك، ج ١، ص ١٠٢.

(٢) راجع: المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٣٢-٤١، ٧٦-٨٠.

(٣) راجع: المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ١٧٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٩.

(٤) راجع الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٥) راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المالكي، ص ١٠-٢٨ وما بها من

والصناعة والتجارة ، فضلا عن الوظائف الديوانية والعلمية والقضاء التي كانت تتولاها فئة المعممين . وكان لهذه الفئة نفوذ لدى الدولة واحترام السلاطين لها، وعاش أفرادها في سعة وبسطة من العيش^(١) . وبالإضافة إلى ذلك، اشتملت طبقة الشعب على فئات أخرى كان لها دورها في البناء الاجتماعي للدولة منها فئة التجار وقد تمتعوا باحترام كبير ومكانة بارزة لدى السلاطين لما يتميزون به من ثروة جعلتهم يعيشون في يسر ورخاء، وفئة الفلاحين، وفئة العوام، والأعراب، وأهل الذمة، وبعض الجاليات الأجنبية^(٢) .

ولم يكن الدين بمعزل عن الحياة الاجتماعية، فالشعب المصري على مر السنين كان متدينا بطبيعته وفطرته . لذلك شهدت مصر نشاطا دينيا ملحوظا، وبخاصة بعد أن أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ومقصد المسلمين جميعا من المشرق والمغرب . وخير ما يدل على اتساع دائرة النشاط الديني في ذلك العصر كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت فيه والتي ساهم في إنشائها السلاطين والأمراء والأثرياء من أبناء الشعب، حتى لقد قدر المؤرخ الجغرافي خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر في ذلك العصر بحوالى ألف مسجد^(٣) . على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية هي انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وقد على أرض مصر في ذلك العصر من مشائخ الصوفية المغاربة والأندلسيين أمثال السيد البدوي، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وغيرهم . وقد صادف أسلوبهم قبولا كبيرا لدى المصريين^(٤) . وربما كان سبب هذه الظاهرة - في رأينا - هو محاولة تنبيه الناس وتحذيرهم من عواقب الترف المادي وما صحبه من تدهور أخلاقي . ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها، فازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا اللون من الدين، واستتبع ذلك أن

(١) راجع المراجع السابق ص ٢٨ - ٢٩

(٢) عن هذه الفئات ودورها في المجتمع المصري في العصر المملوكي . راجع: المرجع السابق، ص ٣٤ - ٥٦ وما بها من مصادر .

(٣) خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمساكن، ص ٣١ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

كثرت بيوت الصوفية من خانقاوات وريط وزوايا، وقد عدد المقرئى منها فى القاهرة فقط ثمان وخمسين^(١).

وكان لهذه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أثرها المباشر والإيجابى على الحياة العلمية والفكرية. ذلك أن ما أصاب العالم الإسلامى فى العراق على أيدي المغول، وفى الأندلس على أيدي الأسبان، وفى بلاد الشام على أيدي المغول والصليبيين جعل مصر هى البلد الوحيد الذى تطيب فيه الحياة للعلماء الوافدين من المشرق والمغرب على السواء^(٢). وقد عبر السيوطى عن ذلك بقوله «وسارت محل سكن ومحط رجال الفضلاء»^(٣). وإذا كان استقرار الأحوال السياسية يعتبر سببا رئيسيا فى تجميع صفوة العلماء فى مصر، فقد كان ازدهار الأوضاع الاقتصادية أيضا عامل جذب آخر. فقد ساعد على الإنفاق بسخاء على المؤسسات التعليمية وعلى العلماء وطلبة العلم. ومن ناحية ثالثة كان توفر المناخ الفكرى وحرية العلماء فى البحث والدرس من الأمور التى ترتب عليها تقدم الحركة العلمية فى البلاد. كما أن الثراء الذى أصاب التجار فى ذلك العصر جعلهم يقبلون على الاشتغال بالعلم وتشجيعه وبناء المدارس والمعاهد فى مختلف أنحاء البلاد من الإسكندرية حتى أسوان^(٤)، وحفزهم بالتالى على اقتناء الكتب وتزويد مؤسساتهم بها.

ولم يكن تشجيع سلاطين المماليك والأمراء والتجار وغيرهم للنهضة العلمية والإنفاق عليها بسخاء هو كل ما فى الأمر، بل كان لبعضهم باع واسع فى المشاركة الفعلية فى الحركة العلمية. فقد وصف ابن تغرى بردى السلطان بيبرس بأنه «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول سماع التاريخ أعظم التجارب»^(٥). وكان السلطان المؤيد شيخ المحمودى يحمل إجازة براوية صحيح البخارى من حافظ زمانه سراج الدين البلقينى لم تفارقه حتى فى سفره وكانت موضع فخره^(٦). كذلك حرص السلطان الغورى على عقد

(١) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٤١٤-٤٣٦.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص ١٤١، محمد رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مج ٣، ص ١٣، ١٧.

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٨٦.

(٤) راجع ص ٧٩-٩٤. من الكتاب ب.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.

(٦) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى، مج ٥، ص ١٨٣.

إله : أس العلمية والدينية بالقلعة^(١) ، كما اشتغل بعض الأمراء وأبنائهم بالعلم ، بل تصدى بعضهم للتدريس^(٢) ، تذكر منهم على سبيل المثال المؤرخين ابن تغرى بردى وبيبرس الداودار هما من أصل مملوكى . فكان أن ازدهرت الحياة العلمية فى مصر ازدهارا عظيما . وليس أدل على ذلك من الثروة العلمية التى وصلتنا من ذلك العصر وتعد مكتبات العالم بمئات المخطوطات التى ترجع إلى عصر المماليك والتى تناولت معظم ألوان المعرفة البشرية السائدة وقتها من أدب وتاريخ وجغرافيا وعلوم شرعية وطب ورياضيات وفلك وتصوف وغير ذلك من العلوم . كذلك زاد الاهتمام باللغة العربية وعلومها وبرز عدد من علماء اللغة ، منهم ابن منظور المصرى (ت ٨٧١١هـ / ١٣١١م) صاحب «لسان العرب» المعجم اللغوى الشهير ، وعالم النحو ابن هشام (ت ٨٧٦١هـ / ١٣٦٠م)^(٣) .

على أن أبرز العلوم تقدما فى ذلك العصر كان بحق «علم التاريخ» ، إذ ظهرت فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثا تاريخيا ضخما ، نذكر منهم على سبيل المثال : ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) صاحب سير السلطان بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون^(٤) ، والقسطلانى (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) صاحب «النور الساطع فى مختصر الضوء اللامع»^(٥) . كما ظهرت فئة من المؤرخين وجهت اهتمامها نحو تأليف كتب السير والتراجم والطبقات منهم ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان» ، والإدقوى صاحب ، الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد ، وأبن حجر العسقلانى صاحب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامن» ، والسخاوى صاحب ، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . وهناك من تخصص فى كتابه تاريخ بلد معين أو عصر بذاته مثل جمال الدين بن واصل

(١) عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان النورى ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ ، ص ٤٩ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٢١ ، ٤١٥ ؛ وراجع أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٣) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

(٤) الكتابان هما : «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» ، والألطف الخفية فى السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية .

(٥) ذكر اسماعيل البغدادى أن له ثلاثة وعشرين وتسمائة من التصانيف . راجع اسماعيل البغدادى : هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٢م ، ج ٥ ، ص ١٣٩ .

(ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) صاحب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، و«التاريخ الصالحى»، وابن دقماق المصرى صاحب «الانتصار لواسطه عقد الأمصار»، والمقرئى صاحب «الخطط، والسلوك»، وابن تغرى بردى صاحب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»^(١)، و«المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، وابن أبيك (ت ٧٣٢هـ / ٣٣١م) صاحب «درر التيجان ودرر تواريخ الأزمان»، و«كنز الدرر وجامع الغرر»، وغيرهم كثيرون. أليست مؤلفاتهم تلك هى التى توجت مكتبات مصر فى ذلك العصر؟ .

وأما علوم الجغرافيا والسياسة والإدارة فقد وضع شرف الدين بن الجيعان (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) كتاب «التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية» وهو معجم جغرافى يشتمل على معلومات جغرافية عن المدن والقرى المصرية وإحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر. وهناك أيضا كتاب «بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاه الأمور وسائر الرعية» للنجم الدين بن الرمغة محتسب القاهرة (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م)^(٢).

وكان للعلوم الشرعية نصيبها الوافى فى تلك الحركة العلمية الواسعة. من ذلك علماء الفقه والتفسير والحديث أمثال الفقيه خليل بن إسحق المالكى (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م) وتقى الدين السبكى الشافعى، وابن حجر العسقلانى، وابن كثير المفسر والمؤرخ (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) وغيرهم ممن تزدان بمؤلفاتهم المكتبات فى جميع أنحاء العالم التى وضعت فى العصر المملوكى. ولم تكن العلوم البحتة والتطبيقية أقل شأنًا من غيرها فقد وجد من العلماء من كتب فى الهندسة والفلك والنجوم مثل شهاب الدين بن المجدى (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م)، وابن النفيس فى الطب، وكمال الدين الدميرى (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) فى علم الحيوان. فقد ألف الأخير كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، ودرس فيه كل حيوان وخصائصه^(٣).

(١) راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، راجع أيضا : الدراسة التحليلية للمصادر، ٢٣ - ٢٩ من الكتاب .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥، ص ١٧٧، راجع أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧، راجع أيضا : سعيد عاشور : المرجع السابق، ص ٣٦٢.

رثمة ظاهرة جديدة بالتسجيل امتازات بها الحياة الفكرية فى ذلك العصر، هى الإقبال الشديد على تأليف الموسوعات التى تحوى الواحد منها كثيراً من المعلومات المتنوعة والمتباينة، حتى لقد أُطلق على العصر المملوكى «عصر الموسوعات» نسبة إلى كثرة هذا النوع من الكتب والمؤلفات، وربما كان إقبال علماء تلك الفترة على ذلك من قبيل رد الفعل للكارثة العلمية التى حلت بالتراث العربى فى بغداد على يدى المغول لتعويض المسلمين ما فقد من تراثهم من جهة، وللحفاظ على ما تبقى منه من جهة أخرى. وكان من أشهر هذه الموسوعات «نهاية الأرب فى فنون الأدب» لشهاب الدين النويرى (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) وهو كتاب موسوعى يقع فى نيف وثلاثين مجلداً، و«صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» للقلقشندي، و«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل العمرى (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ويقع فى ثلاثة وعشرين مجلداً. تناول فيها فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والطبيعيات وغير ذلك من العلوم، و«كتاب الإمام» للنويرى السكندرى (ت ٧٧٦هـ/بعد ١٣٧٦م).

وهكذا فإن خير ما يعبر عن ازدهار الحياة العلمية فى عصر سلاطين المماليك هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية والتربوية من مدارس ومكاتب ومساجد وبيمارستانات فضلاً عن مؤسسات الصوفية، على نحو ما أسلفنا، وتخصيص المكتبات الكبيرة والغنية بالمؤلفات لها، والمدرسين للتعليم بها^(١)، والمعيدين للدرس والتحصيل، والموظفين لإدارتها، ووقف الأوقاف الكثيرة عليها لتضمن للطلاب والمدرسين قدراً من الحياة الهادئة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين^(٢).

هذه بعض مظاهر الحياة فى مصر إبان عصر سلاطين المماليك عساها أن تساعد على فهم حركة المكتبات التى اتفق وجودها مع هذه المظاهر، والتى أسهمت بدورها فى إنعاشها، وكان بينهما نوع من التفاعل والتأثير والتأثير المتبادل، سنعرض له ؟ فى مواضعه

(١) راجع : الفصل الأول من الكتاب.

(٢) سعد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيين والمماليك، ص ٣٦٢-٣٦٣.

مدرسة البندقاتين بالقاهرة وجعل بها خزانة كتب^(١) وألحق الأمير عبد الغنى الفخرى بمدرسته التى أنشأها بخط بين السوريين سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م خزانة كتب حيث تذكر وثيقة وقفه ما نصه «ويصدره - أى الدهليز - يدخل إلى خزانة برسم خزانة الكتب والإيوان الغربى يشتمل على خزانتين برسم الكتب وغيرها^(٢) . وجعل الأمير تغرى بردى البكلمش (ت ٨٤٦هـ / ١٤٤٣م) بمدرسته التى بخط الصليبية الطولونية بالقاهرة خزانة كتب بالإيوان الكبير على يسره المصلى كما تذكر وثيقة وقفه^(٣) . وألحق الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير بمدرسته خزانة كتب أودع بها الكثير من كتبه التى وصل إلينا بعضها^(٤) .

وفى عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م بنى الأمير أزيك من ططخ أتابك العساكر مدرسته بمنطقة الأزيكية - ضمن عمارة الكثيرة هناك - وجعل بها خزانة لكتب العلم المختلفة^(٥) . كما عمر الأمير قجماس الإسحاقى مدرسة بالقرب من خوذة أيد مش بالدرب الأحمر فيما بين عامى ٨٨٤ و ٨٨٧هـ (١٤٧٩ - ١٤٨٢م) ، وكان بها خزانة كتب^(٦) . وفى عصر الغورى أنشأ السيفى قانى باى قرار الرماح أمير أخور كبير، وهو أحد أمراء الغورى، مدرسة تجاه

(١) وثيقة مقبل الرومى رقم ٦ محفظة ١٠، رقم ٧٥، محفظة ١٢، السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٦٨ .
(٢) وثيقة عبد الغنى الفخرى رقم ٧٢، محفظة ١٢، المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٢٨، السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠، انظر أيضا : محمود الكحلوى مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى، رسالة ماجستير لم تنشر بعد - جامعة القاهرة، ١٩٨١م .

(٣) وثيقة الأمير تغرى بردى، رقم ٩٨ محفظة ١٦، دار الوثائق .
(٤) يذكر السخاوى أن الأمير يشبك كان له رغبة عظيمة فى اقتناء الكتب . انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ . وتحفظ دار الكتب المصرية باحد موجودات هذه المكتبة هى كتاب «شجرة النسب النبوى وأخبار الملوك المصرية، بخط خطاب من عمر الدجاوى سنة ٨٨٣هـ تحت رقم ١٦٣٧ تاريخ - أنظر الملحق الأول . اللوحة رقم ١٠، وتحفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة من نفس الكتاب تحت رقم ٣٧٥٤ ج وقد كتب على صفحة عنوانها عبارة «برسم خزانة الاشرف السيفى يشبك بن مهدى، ويستفاد من ذلك أنها كانت ضمن موجودات خزانته .

(٥) وثيقة وقف أزيك من ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق، السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٧٢، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٣ ص ١١٣ .

(٦) وثيقة الأمير قجماس الاسحاقى، رقم ٧٦٠ أوقاف، السخاوى : الضوء اللامع، ج ٦ ص ٢١٣، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٨، ٤٠٧ .

الفصل الأول

المكتبات فى مصر فى عصر سلاطين المماليك نشأتها وأنواعها

- ١ - نشأة المكتبات فى مصر وتطورها قبيل العصر المملوكى .
- ٢ - أنواع المكتبات المملوكية :
 - المكتبات الخاصة .
 - مكتبات المساجد الجوامع .
 - مكتبات المدارس .
 - مكتبات البيمارستانات .
 - مكتبات الخوانق والربط والزوايا والخلوى .
 - مكتبات التُرب والمدافن والقباب .

يمكن تعريف المكتبة^(١) بتركيز شديد، وبما يخدم أهداف هذه الدراسة، بأنها «مجموعة من الأوعية الفكرية نُظمت بطريقة تيسر الاستفادة منها».

وينطوي هذا التعريف على عدد من العناصر الأساسية التي تركز عليها أية مكتبة في أي زمان أو مكان. فالعنصر الأول هو «مجموعة من الأوعية الفكرية، سواء كانت في شكلها التقليدي بدأبالألواح الطينية وقطع الحجارة وأخشاب الأشجار وحتى أوعية المعلومات المطبوعة سواء كانت كتباً أو دوريات ومطبوعات حكومية وتقارير وبحوث مؤتمرات ومرورا بالرقوق والجلود وأوراق البردي والمخطوطات، أو كانت في شكلها غير التقليدي من مصغرات فيلمية ومواد سمعية وبصرية أو مختزنات الكترونية». والعنصر الثاني في هذا التعريف. هو «التنظيم»، ويقصد به الإعداد الفنى بمعناه الواسع من فهرسة وتصنيف وإعداد أدوات الاسترجاع. وبدون هذا التنظيم تصبح المكتبة مجرد مخزن لا يسهل الوصول إلى ما يحتويه من أوعية معلومات والاستفادة منها، وتفشل بالتالى فى تأدية رسالتها. والعنصر الثالث هو «الخدمة المكتبية»، مثل الإعارة والخدمات الببليوجرافية وخدمات المراجع؛ وهذه الخدمة هى الهدف المستهدف من إنشاء أى مكتب، وهى واجهة المكتبة ومرآتها. وبالإضافة إلى هذه العناصر الثلاثة ينبغى بطبيعة الحال توافر الموقع والأثاث المناسبين لحفظ وتداول الأوعية الفكرية، وتوفير العاملين المدربين تدريباً يؤهلهم لإدارة العمل بالمكتبة، فضلاً عن الموارد المالية التى تضمن للمكتبة استمرارية عملها.

(١) ثمة تعريفات عديدة لمفهوم المكتبة وماهيتها، وللإطلاع على هذه التعريفات انظر على سبيل المثال:

- أحمد أنور عمر: المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٣، ص ٣.

- أحمد محمد الشامى وسيد حسب الله: المعجم الموسوعى لمطلحات المكتبات والمعلومات، الرياض، دار

المريخ، ١٩٨٨، ص ٦٥٢.

The ALA Glossary of Library and Informatin science Chicago, ALA, 1983. I3o.

١ - نشأة المكتبات في مصر وتطورها قبيل العصر المملوكي :

والمكتبة بهذا المعنى عرفها الإنسان في مصر القديمة وإن اتخذت مسميات مختلفة مثل «بيت الكتابات»، و«دار علاج الروح»، «وقد تناولت شتى أفرع المعرفة الإنسانية ويتولى الإشراف عليها أمناء مكتبات»^(١). ولا خلاف أن أهم حدث في تاريخ المكتبات في مصر كان إنشاء مكتبة الإسكندرية التي تنسب إلى بطليموس الأول «سوتير»، (٣٢٣ - ٢٨٤ ق.م)، والتي كانت نواتها مجموعة كتب المدرسة الأرسطية التي نقلها ديمتريوس الفاليري Demetrios of phalern (٣٥٠ - ٢٨٠ ق.م) من أثينا إلى الإسكندرية، ومجموعة كتب المعابد المصرية القديمة^(٢). وكانت لها نظمها واجراءاتها التي تتفق ومجموعاتها البردية.

وعلى مدى حوالى ثلاثة قرون ونصف هي عمر مصر تحت الحكم البيزنطى (٢٨٤ - ٦٤٢ م) كانت المكتبات المصرية عبارة عن مجموعات من الكتب فى الأديرة والكنائس

(١) لمزيد من التفاصيل عن المكتبات فى مصر القديمة أنظر على سبيل المثال:

- أحمد أمين سليم : المكتبات فى مصر فيما قبل مكتبة الإسكندرية، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، مج

٣٩، (١٩٩٠)، ص ٧٩-١١٩

- محمد ماهر حمادة : المكتبات فى العالم : تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين، الرياض، دار العلم،

١٩٨١، ص ٤٣-٥٢.

- Johnson, E.D. and Harris, M.H. ,History of Libraries in Western world, 1976, PP 36 - 39.

(٢) - The Oxford Classical Dictionary, Oxford, L950.p.503

محمد حسين : مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم، القاهرة، مطبعة الاعتماد ١٩٤٧، ص ١٦٦. ولمزيد من المعلومات عن مكتبة الإسكندرية القديمة ومحتوياتها وتنظيمها ومديرها ودورها كمركز إشعاع ثقافى ونهايتها، أنظر أيضا:

- عبد الستار الحلوجى : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، القاهرة، دار الثقافة للنشر، ١٩٨٣، ص ١٥ - ٢٢.

- مصطفى العبادى : مكتبة الإسكندرية القديمة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ م.

- Persons, Edward, Alexander ,The Alexandrian Library, london, 1952.

التي كثرت انتشارها في تلك الفترة^(١)، وكانت مصادر هذه المكتبات الكنسية والديرية تأتي بالدرجة الأولى من النسخ ثم من الهدايا والشراء، وقد زودت أغلب الأديرة بأماكن للنسخ تسمى «المنسخ»، وكان هناك النساجون الذين يأتسون في أنفسهم الرغبة في الكتابة والتأليف وكلهم من الرهبان والراهبات^(٢). ولم تكن فهارس هذه المكتبات أكثر من قوائم جرد أشبه بقوائم الرفوف الحالية لتعطي حصرا يسهل الاحتفاظ بالكتب وتحديد أماكنها في المكتبة^(٣)، وأما الكتب نفسها فكانت توضع في خزائن لا على الرفوف^(٤).

وفي منتصف القرن السابع الميلادي ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام. ولم تمض بضعة عقود حتى كان الدين الجديد قد انتشر في مشارق الأرض ومغاربها داعيا إلى وحدانية الله وإلى التألف والمحبة^(٥).

كان الإسلام فتحا جديدا ورائعا في تاريخ المعرفة الإنسانية، فهو قد كرم العلم والعلماء

(١) ذكر عمر طوسون أنه كان يوجد بمصر زمن الأنبا بطرس الرابع (٥٦٧-٥٦٩م) ستمائة ديرا وكان في كل دير مكتبة عظيمة تحوى جميع المعارف الإنسانية السائدة في ذلك العصر ولعل أقدمها وأشهرها مكتبة دير السريان في وادي النطرون ومكتبة دير المحرق في صعيد مصر ومكتبة دير سانت كاترين في سيناء ومكتبة الكنيسة القبطية بالإسكندرية. للمزيد أنظر:

- عمر طوسون: وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطارقة، الإسكندرية، ١٩٣٥، ص ١٦١.
- فيليب دي طرازي: خزائن العربية في الخافقين، بيروت، ١٩٥١، ص ٥٢٨-٥٢٩ وحول دير سانت كاترين ومكتبته أنظر:

- جوزيف نسيم يوسف: دراسات في المخطوطات العربية بدير سانت القديسة كاترينة في سيناء في كتابه: دراسات في تاريخ العصور الوسطى، الإسكندرية ودار المعرفة الجامعة، ١٩٨٨م، ص ١٥٥-٢٠٤.

(٢) محمد ماهر حمادة: المكتبات في العالم، ص ١٣٥.

(٣) شعبان عبد العزيز خليفة ومحمد عوض العايدى، الفهرسة الوصفية للمكتبات، المطبوعات والمخطوطات، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٩م، ص ١٧.

(٤) محمد ماهر حمادة: المكتبات في العالم، ص ١٣٧.

(٥) جوزيف نسيم يوسف: مجتمع الإسكندرية في العصر المسيحي. في كتابه: دراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ١١٢-١١٣.

ودعا إلى القراءة والتعلم، فأظلت سماء العالم الإسلامى حركة فكرية علمية وثقافية قوامها التأليف والترجمة. وكنتيجة لذلك انتشرت المكتبات فى جميع أنحاء العالم الإسلامى من الهند إلى الأندلس. ولم تقتصر تلك المكتبات على العواصم فقط بل تعديها إلى المدن. ولم تخل المساجد أو قصور الحكام والأمراء والأغنياء وبيوت العلماء من وجود مكتبات بها غنية بمحتواياتها. غير أن المرء إذا أراد تكوين صورة واضحة عن حركة الكتب والمكتبات فى مصر إبان عصر الولاة حتى نهاية الدولة الإخشيدية يقابله صمت شديد للمصادر التى تحدثت عن تلك الفترة من التاريخ. وفى محاولة لاستنطاق النصوص المتاحة يستطيع المرء أن يحزم بأن المكتبات فى مصر الإسلامىة قبل العصر الفاطمى كانت مكتبات خاصة. إذ عاش فى مصر علماء خلفوا لنا مئات من الكتب. ولا شك أنها كانت ضمن مكتباتهم الخاصة التى كانوا يرجعون إليها لأغراض المراجعة والقراءة والتأليف^(١).

ومع منتصف القرن الرابع الهجرى (أواسط القرن العاشر الميلادى) شهدت مصر نهضة مكتبية رائعة. فقد استولى الفاطميون على مصر فى عام (٩٦٢م/٣٥٧هـ) وكان اهتمامهم بالكتب والمكتبات شديدا باعتبارها أداة لنشر دعوتهم الشيعية ونفوذهم السياسى فى الشرق الإسلامى^(٢). ومن أجل هذا انتشرت المكتبات فى القصور والمساجد ولدى

(١) منهم على سبيل المثال أبو عبد الرحمن بن عبد الله لهيعة المصرى المتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م. وقد ترك لنا مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة أوراق البردى بمدينة هيلبرج، سيدة اسماعيل الكاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ١٨٣، وانظر ترجمته فى: شمس الدين الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢١٥. ٢١٦، منهم أيضا الإمام الشافعى محمد بن إدريس المتوفى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م والذى صنف بمصر ما يربو على مائة كتاب، راجع ترجمته فى ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق احسان عباس، ج ٤، ص ١٦٣-١٦٩، ترجمة ٥٥٨، راجع أيضا: ديوان الإمام الشافعى، تحقيق عبد المنعم خفاجى القاهرة (مكتبة الكليات الأزهرية) ١٩٨٤م ص ٣-٢٦.

(٢) يدلنا على ذلك ما ذكره المقرئى فى خطه عن المعز لدين الله الفاطمى (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) وهو فى المغرب حينما استدعى بعض أعوانه ولما دخلوا عليه وجدوا حوله أبوابا مفتحة تفضى إلى خزائن كتب.... وقال لهم هذا السبيل لى يقرب الله علينا أمر الشرق. قاصدا مصر. كما قرب علينا أمر الغرب. راجع المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٥٢.

وينكر خطاب عطية أن معظم الخلفاء والوزراء الفاطميين كانوا يهتمون بالعلوم لاسيما العلوم الدينية، ذلك أنهم دعاة مذهب جديد والوسيلة إلى نشره هى المناقشة والمناظرة والإقناع بأحقية الفاطميين فى الخلافة. فقد كانت الكتب هى الوسيلة الفعالة لنشر علوم مذهبهم ودراسته بين الناس بعامة وطلاب العلم بصفة خاصة. راجع: خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، القاهرة، ١٩٤٧م ص ١٨٨.

الأفراد. كما ظهرت المكتبات العامة وقامت بدور تربيوى تعليمى وسياسى، ولإلقاء الضوء على خلفيات المكتبات المملوكية موضوع هذه الدراسة يحسن بنا أن نقف هنيهة عند النهضة المكتبية الفاطمية لاستجلاء أبرز ملامحها وسماتها.

بدأت المكتبات الفاطمية فى النمو منذ وصول المعز لدين الله إلى مصر فى عام (٣٤٤هـ/٩٥٣) حيث أقام أول مكتبة فاطمية شهدتها مصر، وألحقها بالقصر الذى كان قد بناه له قائد جيوشه جوهر الصقلى (ت ٣٨١هـ/٩٩١م) لإقامته. وكانت نواة هذه المكتبة مجموعة عظيمة من الكتب تتناول المذهب الشيعى كان قد حملها المعز معه من القيروان، وقد بلغت هذه المكتبة فى عهد العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥ - ٩٩٦م) أربعين خزانة من خزائن القصر^(١)، حوت كتب السنة والفقه واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات، فضلا عن كتب الكيمياء والسحر والطلسمات وغيرها من العلوم السائدة فى ذلك العصر.

وقد نهج الوزراء والعلماء والأطباء والأغنياء نهج خلفائهم. فحرص كل منهم على أن تكون له مكتبة خاصة ينهل منها ويستعين بها فى الرد على خصومه. ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة الوزير يعقوب بن كلس^(٢)، ومكتبة المبشر بن فاتك^(٣) ومكتبة إفرائيم بن^(٤)

(١) المقرئى : الخطط، ج ١، ص ٤٠٩. ويذكر المقرئى روايات مختلفة عن حجم مكتبة القصر الفاطمى، فمنهم من قال إنها تقيم ثمانية عشر ألفا من الكتب ومنهم من قال أنها كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد، وفريق ثالث يرجح أنها كانت أكثر من مائتى ألف مجلد. المقرئى : الخطط، ج ١، ص ٤٠٩. أما أبوشامة فيقول إنها كانت تحتوى على مليونى كتاب. أبوشامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة، ١٢٨٧هـ، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) يعقوب بن كلس أول من تولى الوزارة فى الدولة الفاطمية، وكان من العلماء المشهورين فى عصره، وكان مغرما بجمع الكتب وكانت مكتبته ملتقى العلماء والأدباء.

للمزيد أنظر : المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٤١، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٨.

(٣) أبو الوفا المبشر بن فاتك من أدباء وعلماء مصر فى العصر الفاطمى، وكان مشهورا بنبوغه وتفوقه فى علوم الهيئة والعلوم الرياضية الحكيمة والطبية. راجع ترجمته فى : ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٩٩، ياقوت الحموى : معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٧٧.

(٤) إفرائيم بن إسحق بن إبراهيم ابن يعقوب بن الزقان من أشهر أطباء مصر فى العصر الفاطمى، وقد تكونت مكتبته بفضل همته العالية فى تحصيل الكتب واستدساخها. راجع ترجمته فى : ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٠٥-١٠٦.

الزفان، ومكتبة الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي^(١)، ومكتبة الأستاذ برجوان^(٢).

وفضلا عن المكتبات الملحقة بالقصور والمكتبات الخاصة، عرف الفاطميون المكتبات الملحقة بالمساجد . فقد كان المسجد في العصر الفاطمي من أهم المراكز التعليمية إذ كانت تعقد فيه مجالس العلم ويتحلق فيه العلماء والفقهاء والدارسون . وكان لكل مسجد مكتبه تشتمل على الكثير من الكتب في مختلف العلوم والفنون^(٣) . ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة الجامع الأزهر^(٤)، ومكتبات جامع المقس، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون^(٥).

غير أن أهم حدث في تاريخ المكتبات الفاطمية هو إنشاء دار العلم التي تعزى إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) . وترجع هذه الدار إلى ارتباطها بفلسفة التربية والتعليم في الدولة، حيث كان من جملة أهدافها الأساسية نشر المذهب الإسماعيلي . وفضلا عن ضخامة دار العلم التي لم تعرف مصر مكتبة عامة في مثل حجمها بعد مكتبة الاسكندرية القديمة، تميزت عن المكتبات الفاطمية الأخرى بأن الفرصة كانت متاحة فيها للجميع للاستفادة من مراجعها وأساتذتها، هذا، بينما لم تكن مكتبات القصور - بصفة مستمرة - مفتوحة للجميع . كما تميزت عن مكتبات المساجد في أن الأخيرة لم تكن لها ما لدار العلم من ذلك العدد الضخم من الكتب في سائر الفنون الدينية والعقلية^(٦).

(١) الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي وقد تقلد الوزارة في مصر الفاطمية فيما بين عامي ٤٨٧ هـ و ٥١٥ هـ . وكان الأفضل رجلا يحب العلم ويقدر العلماء ويغدق عليهم وكانت له مكتبة كبيرة حوت خمسمائة ألف مجلد من الكتب العلمية . راجع المقرئزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ٣، ص ٧٠ .

(٢) الأستاذ برجوان من علماء عصره الذين اشتهروا بالتدريس للأمراء والخلفاء، وكان يمتلك مكتبة كبيرة وبعد وفاته سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م وجد من بين ثروته من الكتب ما لا يحصى كثرة، ابن منجب الصيرفي : حادي الأرواح، حيدرآباد، ١٣١٢، ص ١٣ .

(٣) خطاب عطية : المرجع السابق، ص ١٣٢ .

(٤) المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٢٧٣ - ٢٧٦، وانظر أيضا : محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٤٢ م، ص ٤١ .

(٥) المقرئزي : الخطط، ج ٢، ص ٢٦٧، ٢٧٤ .

(٦) للمزيد عن دار العلم ودور التربوي والتعليمي، انظر : خطاب عطية على : التعليم في مصر في العصر الفاطمي، ص ١٥٩، متولى محمد متولى : المكتبة ودورها التربوي في مصر الفاطمية، رسالة ماجستير لم تشر بعد - جامعة المنوفية، ١٩٨٣ م، ص ١٠٨ .

وهكذا عرفت مصر الفاطمية أنواعا متعددة من المكتبات، وهذا يدل على مدى إدراك الفاطميين لدور المكتبات فى رقى الأمم. ومن أجل هذا نالت قسما كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم، فتضخمت مجموعاتها وميزانياتها، وارتفع مستوى أمثاتها، وتعددت مصادر تزويدها ما بين شراء وإهداء ووقف ونسخ. ولم تكن لهذه المكتبات أن تؤدي رسالتها ما لم تكن على درجة عالية من التنظيم والإعداد الفنى، ولهذا وجدت لها فهارس اتخذت شكل قوائم تلصق على كل خزانة بمحتوياتها^(١).

وعند ما آلت الأمور إلى صلاح الدين الأيوبي فى مصر أبطل المذهب الشيعى وقضى على خزانهم ومكتباتهم لما كان يتضمنه بعضها من أفكار تتعلق بمذهب الفواطم، وتشتت ما تبقى من كتبها بيعا على تجار الكتب وعطاء لبعض العلماء والقضاة فضلا عما أهداه صلاح الدين للمقربين إليه^(٢).

لقد أصبح ما تبقى من مجموعات المكتبات الفاطمية نواة للمكتبات التى ظهرت فى العصر الأيوبي. وعلى الرغم من أن دولة الأيوبيين قامت على أساس الجهاد ضد الصليبيين فى الأراضى المقدسة^(٣)، ألا أن هذه الناحية العسكرية لم تشغلها عن النشاط

(١) المقرئى : الخطط ج١، ص٤٠٩؛ انظر ايضا محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام، ص١٠٦، عبد الستار الحلوى : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، ص٤٧.

(٢) ذكرت المصادر العربية أنه حدد لبيع الكتب يومين كل أسبوع واستمر عشر سنوات وتولى الدالون هذه المهمة تحت إشراف قراقوش الذى كان قد ولاه صلاح الدين أمر القصر الفاطمى وخزائنه. ومن أكثر الذين استحوذوا على مجموعات كبيرة من مكتبات الفاطميين القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهاني، وقد بلغت جملة ما ناله الأول مائة ألف مجلد؛ بينما نال الثانى نصيبا كبيرا من الكتب بلغ ثمانية أحمال. عن ذلك أنظر : أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص٢٠٨ ٢٦٨؛ البندارى : سنا البرق الشامى، تحقيق رمضان ششن، بيروت دار الكتاب الجديد، ١٩٧١م، ج١، ص٢٣٤، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، ١٩٦٧م، مج ٤، ج١، ص١٦٧؛ المقرئى : الخطط، ج١، ص٤٠٨؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٢٦ السيروطى : حسن المحاضرة ج٢، ص٣٤؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٣٦، وتنظر ايضا :

- Encyclopdia of Islam, Vol .3,part I,p353.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩ ص٥١

الحضارى، إذ اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم ومجالسة العلماء^(١). هذا وتعتبر ظاهرة انتشار المدارس من أبرز سمات الحياة العلمية فى ذلك العصر: تضرب مثالا لذلك بالمدرسة الناصرية التى أنشأها صلاح الدين (سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) للشافعية، والمدرسة الصلاحية (سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) للشافعية أيضا، والمدرسة القمحية^(٢).

وقد سار أبناء البيت الأيوبي على منوال صلاح الدين حتى بلغ عدد المدارس التى أنشئت فى مصر آنذاك ستا وعشرين مدرسة كلها فى القاهرة ماعدا اثنتين فى الفيوم^(٣) هذا فضلا عما أنشئ فى الإسكندرية وغيرها من مدن مصر من مدارس، مثل المدرسة التى أنشأها صلاح الدين على ضريح المعظم توران شاه بالإسكندرية^(٤).

وكانت المدارس فى ذلك العصر - والعصر الذى تلاه - أشبه بمعاهد التعليم العالى، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه وإن كان بعضها يشتمل على أربع كليات للمذاهب الأربعة^(٥). وإذا كان من المفروض فى المدرسة أن تكون معهداً لتعليم العلوم الشرعية من

(١) يذكر السبكي أن صلاح الدين كان يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم فى بحثهم. كما يذكر المقرئى أن السلطان الكامل كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم عنده وكان يناظر العلماء. راجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة، ١٩٠٦، ج ١، ص ٣٣٩؛ بالمقرئى: السلوك، ج ١ ص ٢٥٨.

(٢) للمزيد عن هذه المدارس راجع: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٣ - ٣٦٤، ٤٠٠؛ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، ص ٩٣؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٦.

(٣) للمزيد عن هذه المدارس راجع: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٣ - ٣٧٥، وانظر أيضا: أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩، ج ٢، ص ٤٩ - ٥٥؛ أحمد بدوى الحياة العقلية فى عصر، الحروب الصليبية بعصر الشام، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د.ت، ص ٤٤ - ٦٠ وما بهما من مصادر.

(٤) المقرئى: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٦. وتوران شاه: هو الملك المعظم شمس الدين شاه بن أيوب الملقب بفخر الدين شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي. راجع ترجمته فى: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١، ص ٣٠٦ - ٣٠٩؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٥٢.

(٥) جدير بالذكر أن المدرسة الصالحية النجمية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م كانت أول مدرسة تجمع بين المذاهب الأربعة: راجع المقرئى: الخطط ج ٢، ص ٣٧٤؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣٣٣، ٣٤١؛ المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٣٩٤؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٨١.

فقه وتفسير وحديث، فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس لتدريس العلوم الدنيوية من نحو ولغة وفلسفة وفلك ورياضيات فضلا عن العلوم الشرعية^(١) وقد ساعد هذا - بطبيعة الحال - على زيادة الاستنارة واتساع الآفاق. وكان لهذه المدارس مكاتب يرجع إليها المدرسون والطلاب ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة من العلم. مثال ذلك المدرسة الفاضلة التي أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني^(٢) (٥٢٩ - ٥٩٦هـ/ ١١٣٨ - ١٢٠٥م) بجوار داره بدرب ملوخية بالقاهرة سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٩م وما حوته من كتب في شتى أفرع المعرفة البشرية^(٣). هذا، بالإضافة إلى مكتبته الخاصة التي كانت يحتفظ بها في داره والتي آلت إلى ابنه الأشرف أحمد بعد وفاته^(٤).

وثمة مكتبة الحقت بالمدرسة الكاملية التي أنشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م،^(٥) ومكتبة ثالثة الحقها ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بمدرسته التي أنشأها عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م^(٦). ولم يقتصر وجود المكتبات في العصر الأيوبي على المدارس وحدها لا اعتبارا جزاء ضروريا في تكوينها، بل وجدت المكتبات الملحقة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق والصفحة.

(٢) انظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٥٨ - ١٦٣، ترجمة ٣٧٤.

(٣) يذكر المقرئى وابن العماد أن محتويات هذه المكتبة كانت تبلغ مائة ألف مجلد كان قد اشترى القاضي الفاضل بعضها من كتب الفاطميين وأهدى إليه البعض الآخر من قبل صلاح الدين وكان الرجل كثير العناية بمكتبة مدرسته فهو يقتنى الكتب من كل فن، ويقتلبها من كل جهة، وله نساخ لا يفترقون ومجلدون لا يبطلون، وكان له غرام خاص في تحصيل الكتب حتى بلغت عدد وفاته ألفا وأربعة وعشرين ألف مجلدا. ولعل من أجل ما كان فيها مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفي كان قد اشتراه القاضي الفاضل بديف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه. راجع: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٦ - ٣٦٧؛ السلوك، ج ١، ص ٨٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤، ص ٣٢٦؛ انظر أيضا: أحمد بدوى: المرجع السابق، ص ٤٨؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٧٩.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، ص ١٤٩؛ عبد الرحمن زكى: قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار، ص ٤٤.

(٥) للمزيد عن المدرسة الكاملة ومكتبتها انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٣٧٥؛ راجع أيضا فيليب دى صراي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، ص ١٨٤.

(٦) انظر حاشية ٥ من ص ٦٨ من الكتاب. هذا، وتحفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة تحت رقم ١٧٢٧ ب من كتاب «المعنى في الأدوية المفردة»، تأليف ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ) كانت ضمن موجودات مكتبة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب كما يفهم من نص الوثيقة المثبتة على صفحة العنوان.

بالمساجد والجوامع فضلا عن المكتبات الخاصة (١). وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها، فضلا عن خدمة المتمردين عليها من طلاب العلم، وأهم هؤلاء الموظفين الخازن والنساخ والمجلدون والمناولون (٢).

هكذا شهدت مصر إبان العصر الأيوبي حركة علمية ثقافية ومكتبية، كانت مرحلة التمهيد للحياة الثقافية والنهضة العلمية والمكتبية في العصر المماليكي. فمن المعروف أن دولة المماليك ورثت عن الدولة الأيوبية كل نظمها ومؤسساتها كما ورثت عنها تشجيعها للعلم والعلماء وحبها وإقبالها الشديد على بناء المؤسسات التعليمية والتربوية وإحاطة المكتبات بها.

لعلنا نخلص مما سبق أن مصر بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي وتراثها الحضاري الممتد عبر القرون، كانت مركز إشعاع فكري وثقافي ومنازة للعلم والمعرفة منذ أقدم عصورها. فلا عجب أن تزدهر فيها الحركة المكتبية على امتداد تاريخها الطويل ولا عجب أن يهتم أولو الأمر والمسئولون فيها بإنشاء المكتبات التي تضمن الآلاف المؤلفة من الكتب في مختلف العلوم والفنون لينهل منها العالم المتخصص والقارئ العادي. ولا عجب أيضا أن تستمر وأن تتواصل هذه الإشرافة العلمية حتى عصر المماليك ليكون امتدادا طبيعيا لما سبق يقيمون فوقه صرحهم العلمي الضخم.

٢ - أنواع المكتبات المملوكية :

لقد شهد عصر المماليك في مصر أنواعا عديدة من المكتبات، ولو تصورنا هذه الأنواع في شكل مثلث أو هرم لوجدنا المكتبات الخاصة تحتل قاعدته، لأنها كانت

(١) من هذه المكتبات مكتبة أمين الدولة الحسن بن غزال وزير الملك الصالح، فقد ترك عند وفاته مكتبة تحوى عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة. انظر: العيني، بدار الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك حوادث وتراجم سنوات ٦٤٨ - ٦٦٤ هـ، تحقيق محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ م ص ٤٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ أهل الزمان، حيد، رباباد ١٩٥٢، ج-٨، ص ٧٨٤-٧٨٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ١٥٣.

أسبقها ظهوراً وأكثرها انتشاراً. فمن المعروف أن حب التملك غريزة فطرية لدى الإنسان، وحيثما توجد كتب تجد تلك الغريزة مجالا للانطلاق. ومن أجل هذا انتشرت المكتبات الخاصة انتشاراً ملحوظاً. فحيثما قرأنا في كتب التراجم والسير والطبقات^(١) وجدنا عبارات لها دلالتها، مثل «وكان يقتنى الكتب النفيسة، ودخل كتباً كثيرة، أو «وكان جماعاً للكتب، أو «واقتنى من سائر الكتب شيئاً كثيراً».

والحقيقة أن سلاطين المماليك أنفسهم - وإن كانوا امتداداً للأيوبيين في الجهاد ضد الصليبيين والمغول - إلا أنهم كانوا في نفس الوقت أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل - مقر السلطان المملوكي - بخزانة كتب جليلة القدر حوت مجموعة كبيرة من الكتب في العلوم والمعارف المختلفة^(٢) وكانت في الأصل تتألف من مكتبة القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني التي آلت إلى ابنه الأشرف أحمد حتى أمر السلطان الأيوبي الكامل محمد بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة في عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، وكانت تتألف من ثمانية وستين ألف مجلد^(٣). وبعد أيام حملت الخزائن الخشبية في تسع وأربعين حملاً، وكان من جملة الكتب المستولى عليها كتاب «الأتابك والعصور» لأبي العلاء المعري في ستين مجلد^(٤). وفي عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م وقع حريق عظيم بقلعة الجبل فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيئاً كثيراً كان من ذخائر المملوك،

(١) انظر على سبيل المثال: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ ج، القاهرة، ١٣٥٣هـ؛ الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥١؛ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة ١٣٢٦هـ؛ الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بيروت، (د. ت)؛ العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ ج، حيدر أباد، ١٣٤٨هـ، الغزالي نجم الدين بن محمد: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، ٣ ج، بيروت، ١٩٤٥ - ١٩٥٩م.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٤، عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين، ص ٤٤.

(٤) عبد الرحمن زكي: المرجع السابق والصفحة.

فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقا ممزقة ظفر الناس منها بنفائس... وأخذوها بأبخس الأثمان،^(١).

وإذا كان هذا الحريق قد قضى على هذه المكتبة السلطانية، فإن عصر سلاطين المماليك شهد العديد من المكتبات السلطانية الخاصة^(٢)، حيث حرص كل سلطات - تقريبا - يجلس على عرش البلاد أن يكون قصره ملتقى للعلم والعلماء. إذ يذكر أن الناصر حسن ابن قلاوون (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥٢ م) اشتغل بالعلم كثيرا، ونسخ العديد من الكتب بخطه منها «دلائل النبوة» للبيهقي^(٣). وكان السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ م) يعقد المجالس العلمية كل يوم أحد وأربعاء حيث يجتمع عنده العلماء فيتباحثون ويتناقشون في مختلف العلوم وهو فيما بينهم كأحدهم^(٤). وقد أصبح إقامة مثل هذه المجالس العلمية تقليدا يحرص عليه سلاطين المماليك حتى آخر أيام دولتهم. إذ عرف السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م) حبه للعلم واجتماعه بالعلماء وكان ذا حظ من العلوم الدينية ومولعا بقراءة كتب التاريخ والسير، كما كانت تعقد بحضرته وتحت إشرافه مجالس علمية تتراوح من مرة إلى ثلاث مرات أسبوعيا تتناول موضوعات شتى^(٥).

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢١٢؛ وأنظر أيضا : العيلى : عقد الجمان ، ج٣، ص ١١٠؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج٣، ص ٣٢٦؛ المقرئى : السلوك ج١، ص ٧٧٧؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص ١٣٥؛ وكذلك الفصل الخامس من الكتاب.

(٢) منهم السلطان أبو سعيد جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) الذى كان يفتنى الكتب النفسية ويعطى فيها الأثمان الزائدة. انظر ابن تغرى بردى : الملل الصافي، ج١، ورقة ٤٨٤ ب.

وهناك أيضا السلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م) حيث تجمعت لديه خزانة كتب معتبرة كان معظمها بخط يده، وتحفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة من كتاب المقصد الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى للشيخ عبد العزيز الديرنى (ت ٦٩٤ هـ) تحت رقم ١٢٣٦ ب، كانت ضمن موجودات خزانة خشقدم ويخط يده. أنظر الكتاب، صفحة العنوان، والصفحة الأخيرة.

(٣) العسقلانى : الدرر الكاملة ج٢، ص ٤٠؛ المقرئى : السلوك، ج٣، ق ١، ص ٥٢.

(٤) العيلى : السيف المهد فى سيرة الملك المؤيد، ص ٢٧٤ - ٢٧٥؛ السخاوى الضوء اللامع، ج٣، ص ٣٠٩؛ أنظر أيضا : عبد الغنى محمد عبد العاطى : التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٦.

(٥) راجع : عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى، ص ٤٩؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ١٢.

ولم يكن لمثل هذه الحلقات الدراسية أن تؤدي وظيفتها بغير كتب ومكتبات، ويكفى أن نذكر هنا أن المكتبة السلطانية الغورية^(١) كانت غنية بالكتب في مختلف أنواع المعارف والعلوم. وكانت ضمن موجوداتها كتاب تاريخ التتار الذي أهدها الشاه إسماعيل الصفوي للغوري^(٢).

ولم يكن أمراء المماليك يقلون عن سلاطينهم تقديرا لأهمية الكتب وحرصا على اقتنائها وتكوين مكتبات خاصة بهم. فقد احتفظ العديد من الأمراء بخزانات كتب في قصورهم. نذكر منهم على سبيل المثال تغرى برمش سيف الدين الجلالى الناصرى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٣٣م)،^(٣) والأمير يشبك الداودار (ت ٨٨٥هـ / ١٤٩٠م)^(٤) وأمير أخور الجمال (ت ٨٨٧هـ / ١٤٩٢م)^(٥)، وأحمد بن أيثال العللى داودار برسبای^(٦).

(١) انظر: الملحق الأول، لوحة رقم ١٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) كان نائب القلعة بالقاهرة ويعرف بالفقيه، ويذكر السخاوى أنه كان مستكثرا من الكتب أنظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣ ص ٣٣ - ٣٤.

(٤) هو الأمير يشبك بن مهدى الظاهرى جقمق أحد أمراء المماليك. وقد تحصل من الكتب النفسية شراء واستكثابا. السخاوى: الضوء اللامع ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤؛ انظر: الملحق الأول، لوحة ١٠؛ وكتاب الوافى بالوفيات، للصفدى ج ١ ص ب.

(٥) هو الأمير جقمق قرا العللى الظاهرى جقمق ويعرف بأمرير أخور الجمال ولى نيابة الاسكندرية بعد أنيال الأشراف قايتباى. وكان ذامعة عالية ورغبة فى لقاء العلماء وكان يجمع الكتب العلمية ويقتنيها. السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣ ص ٧٥. وأمير أخور اسم يطلق على القائم على أمر الدواب من خيل وبغال وأبل وغيرها فى الاصطبلات السلطانية. انظر: القلقشندى: صبح الأعش، ج ٥، ص ٤٦؛ السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٣٧؛ أنظر أيضا: حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٦) كان عالما فاضلا وتمتع بالإقبال على التحصيل من نفائس الكتب، فحصل منها الكثير ولد فى عام (٨٣٧هـ / ١٤٢م) ولم يعرف تاريخ وفاته. السخاوى: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٦٩٥.

والداودار هو من يحمل دواة السلطان ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه ووتقديم القصص والعرائض إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف، ولأخذ خط السلطان على عامة المناشير والتوقعات. وكان يسمى قديما بالحاجب. أنظر: القلقشندى: صبح الأعش، ج ٤، ص ١٩؛ السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص ٢٥، المقرئى: السلوك، ج ١ ص ١٤٤١، هامش ١؛ راجع أيضا: حسن الباشا: الفنون الإسلامية ج ٢، ص ٥١٩.

وكذلك كان لدى العلماء والفقهاء والقضاة بل وعامة الشعب أحيانا مكتباتهم الخاصة التي يرجعون إليها للقراءة والاطلاع والتأليف. من ذلك^(١) الشيخ الصالح المحدث أبو الفتح محمد بن أبي بكر الكوفي (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٧م)، فقد كانت له خزانة كتب خاصة وقفها على طلبة العلم^(٢)، والشيخ جلال الدين القونوي (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٢م) حيث ذكر العيني أنه كان يجلس في بيته وحوله الطلبة والكتب. وقد احترقت خزانة كتبه إثر حريق أصاب البيت في نفس العام الذي توفي فيه^(٣). وكان للشيخ الفاضل الفقيه اللحوي يحيى بن عبد الوهاب الدمنهوري الشافعي (ت ٧٢١هـ - ١٣٢١م) خزانة كتب خاصة وقفها على خزانة جامع الظاهر^(٤). وهناك أيضا القاضي برهان الدين بن جماعة (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٧م) الذي «اقتنى من الكتب النفسية بخطوط مصنفاتها وغيرهم ما لم يتهيا لغيره، كما يقول ابن حجر العسقلاني^(٥). وتعد هذه المكتبة الخاصة هي نواة مكتبة المدرسة المحمودية. فقد اشترأها الأمير محمود الاستادار^(٦) (ت ٧٧٩هـ - ١٣٩٦م) من تركته بعد موته ووقفها، وشرط ألا يخرج منها شيء من مدرسته^(٧). وممن كانوا يمتلكون

(١) اكتفينا هنا بذكر نماذج محددة من المكتبات الخاصة على سبيل المثال لا الحصر.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٥٥، وأنظر ترجمته في الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) العيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ١٢٩.

(٤) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٨؛ أبناء الغمر، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٦) هو الأمير محمود بن علي، تنقل في وظائف عدة إلى أن عين زمن الظاهر برقوق في وظيفة الاستدارية سنة ٧٩٠هـ، واستقر بعد ذلك مشيرا للدولة. وحدثت له بعد وفاة برقوق أحداث كثيرة ما بين قبض وسجن ومصادرة لاملاكه. راجع ترجمته في: العسقلاني الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٩؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥ - ٣٩٧.

والاستدارية هي وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان من المطابخ والشراب خانه والحاشية والغلمان، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى، وما يجرى مجرى ذلك من الممالك وغيرهم. أنظر: ابن فضل العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠؛ السبكي: معيد النعم، ص ٢٦؛ راجع أيضا: حسن الباشا: الفنون الإسلامية ج ١، ص ٤١.

(٧) فؤاد سيد: نصان قديمان في إعارة الكتب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١، (١٩٥٨)، ص ١٢٧ - ١٢٨.

مكتبات خاصة محمد بن محمد المراغى (ت ٨١١هـ / ١٤٠٨م) الذى خلف كتباً كثيرة جداً تلف أكثرها بالأرضنة وغيرها^(١). وكان لأحمد بن سليمان (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) مكتبة خاصة فى بيته وقف عدة كتب منها وجعل مقرها برباط الخورى فى مكة المكرمة^(٢). ومن هؤلاء أيضاً، أحمد الشهاب الحجرانى اللؤلؤى (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م) فقد ذكر السخاوى فى ترجمته أنه حصل كتباً كثيرة^(٣). كذلك كان للإمام ابن حجر العسقلانى مكتبة خاصة، وقد أوصى بها قبل وفاته فى ذى الحجة ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م للمكتبة المحمودية^(٤). ومنهم كذلك محمد بن محمد عبد الله الخضيرى^(٥) (ت ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) الذى اقتنى الكثير من الكتب النفسية، وبعد وفاته وضع ولده أحمد يده عليها فباعها^(٦). وكان الشيخ أحمد بن شهاب الدين الكنانى (ت ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م) مستكثراً من تحصيل الكتب كما يقول السخاوى^(٧).

ومن كان لديه مكتبة خاصة أيضاً القاضى أحمد بن محمد بن بركوت الصلاح ابن جمال الشهابى (ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م)، فقد ولع بالنظر فى دواوين الشعر واقتنى الكتب النفسية^(٨)، وأحمد بن عبد الرحيم بن حسن بن الحسين (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م) الذى باع كتبه فى آخر أيامه بسبب الحاجة^(٩)، وأحمد بن هارون الشهابى (ت فى القرن ٩هـ / ١٥م) الذى وقف كتبه على الجامع الأزهر^(١٠)، ومحمد الغزى الشافعى (ت ق

(١) السخاوى : الضوء اللامع، ج٩، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٨.

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج٢، ص ٢٥٦.

(٤) السخاوى : الجواهر والدرر، ورقة ٢٨٠ ظهر. وعن ترجمته انظر السخاوى : الضوء اللامع، ج٢، ص ٣٦.

٤٠ : التبر المسبوك : رفيات ٨٥٢هـ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦.

(٥) أنظر ترجمته فى : السخاوى : الضوء اللامع، ج٥، ص ٢٣٠.

(٦) المصدر السابق ج٢، ص ١٨٤.

(٧) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٤.

(٨) المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٠.

(٩) المصدر السابق، ج١، ص ٣٣٦.

(١٠) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٠.

٩٥٠ هـ) الذي ملك خزانة كتب كان من كتبها نسخة من كتاب الوافي بالوفيات للصفدي، وقد انتقلت إلى هذه الخزانه من خزانة كتب الأمير يشبك الداودار^(١) وهناك أيضا أحمد بن أسد بن عبد الواحد الأسيوطي (ت ٩٥٠ هـ / ١٥٠٠ م). فقد كان عالما فاضلا برع في فنون كثيرة منها علم الشروط^(٢)، مع صرف الهمة والمداومة على المطالعة والمقابلة. وقد اعتنى بكثير من كتبه فحشاها وقيد شكلها أي جعل لها حواشي وتعليقات وفوائد، وكان مكثرا من تحصيل نفائس الكتب^(٣)، وكذلك القاضي الشيخ زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م) الذي جمع من الأموال والكتب النفيسة ما لم يتفق لمثله^(٤).

والحقيقة أن هذه المكتبات بلغت من الضخامة وكثرة محتوياتها أن مكتبه أحدهم وهو الشيخ الإمام الأديب ناصر الدين شافع الكناني العسقلاني (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) كانت تحتوى على ثمانى عشرة خزانة، كما يقول ابن تغرى بردى^(٥). وأيضا مكتبة يحيى بن محمد بن عمر بن حجي السعدى (ت ٧٨٨ هـ / ١٤٨٣ م) الذي يصفه السخاوى بأنه كان عالما فاضلا وقد اجتمع له من الكتب الكثير ميراثا وشراء واستكتابا لشدة شغفه بها لاسيما ما يجد لفضلاء وقته من التصانيف^(٦). ويحدد ابن إياس عدد هذه الكتب بثلاثة آلاف مجلداً من الكتب عند وفاته^(٧). وكذا بلغ مجموع كتب مكتبة عبيد الله بن يعقوب (ت ق ١٠ هـ / ١٦٠٠ م) حوالى عشرة آلاف مجلداً. وكان يجمع الكتب الكبيرة والصغيرة، القديمة منها والجديدة، وجعل لها فهرسا مجلدا مستقلا يذكر فيه الكتاب ومؤلفه^(٨).

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١، ص ب.

(٢) هو العلم الذى يبحث فى كيفية تدوين الأحكام الشرعية على وجه يصح الاحتجاج به. أنظر: طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٧٢، حاجى خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ١٠٤٠.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٤) الغزى: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٩٦.

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٨٩.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، ترجمة ١٠٣٠، الصفدي: فوات الوفيات، ج ١، ص ب.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٠١ حواش ٨٨٨ هـ.

(٨) الغزى: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٨٨.

وقد أسرف البعض فى اقتناء الكتب وتجليدها وصيانتها وزخرفتها لدرجة ضياع الثروة والاستدانة من أجلها. فيذكر السخاوى عن أحمد بن على بن قرطاي بن يكتمر الساقى الحنفى (ت ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) أنه نشأ فى ترف زائد ونعمة سابغة وثروة ظاهرة وأوقاف كثيرة حتى أن غلته تزيد عن عشرة دنانير كل يوم، ومع ذلك فلا يزال فى دين كثير لكونه يقتنى الكتب النفسية بالخطوط المنسوية والجلود المثقنة^(١).

ولقد اشتهر هؤلاء وأولئك بحبهم للكتب، وكانوا يتبارون فى جمعها وبذل الأموال من أجلها، وعنوا بها عناية كبيرة جعلتهم ينشئون الخزانات لها. وهذه المكتبات وإن كنا نسميها خاصة لأنها تخص أفراد معينين أنشأوها لفائدتهم ومصلحتهم ومن أموالهم الخاصة فى أغلب الأحوال، إلا أن بعضهم كان يبيعها للناس جميعا، وخصوصا للعلماء وطلاب العلم ومن يوثق بهم كما فعل العلامة المحدث ابن حجر العسقلانى فقد كان يبيع لطلابه وللعلماء الانتفاع بها^(٢)، وأيضا الشيخ على بن سليمان الإشارى^(٣) الذى حوت كتبه جميع المعارف الإنسانية السائدة فى عصره، وكان يسمح بإعارتها، وذلك قبل أن يوقفها على الجامع الأزهر، والقاضى إسماعيل بن أحمد النابلسى الذى جمع كتبا كثيرة وكان يكثر من إعارتها^(٤). وكان حسن بن على بن سالم ابن إسماعيل البدر الغوى يسمح باعارة كتبه لخلائه، فقد كان ابن العزم وغيره يستعير منه الكثير من الكتب^(٥).

وعلى الجانب الآخر نجد منهم من كان يجمع الكتب لمجرد أن يقال إن فلانا عنده خزانه وليس لأغراض العلم والمعرفة، كما فعل إبراهيم بن أحمد بن أحمد بن الفرس (ت ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) حيث يذكر السخاوى أنه كان «عنده من الكتب وتصانيف شيخه ما لم ينتفع به وعطل على غيره الانتفاع بها لعدم سماحه بعاريتها حسبما استفيض عنه،

(١) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٢ ص ٣٠، ترجمة ٨٤.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦ - ٤٠، التبر المسبوك، ص ٢٣٠ - ٢٣٦.

(٣) وثيقة الإشارى - محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣.

(٤) الفزى : الكواكب السائرة ج ٣، ص ١٣٠.

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣، ص ١٥٠.

حتى نقل عنه أنه كان يقول : «إذا عانيت الموت ألقيتها في البحر، وبعد موته تفرق الناس كتبه بأبخس ثمن»^(١). ويستفاد مما تقدم بصرف النظر عن هذا المثل الذي يشذ عن القاعدة العامة، أن المكتبات الخاصة قد انتشرت انتشارا واسعا في طول البلاد وعرضها، وحرص على اقتنائها الناس من مختلف الفئات والطوائف والطبقات وأنها لم تعد مظهرا من مظاهر العلم فحسب وإنما أصبحت مظهرا من مظاهر الثراء يحرص عليه الأغنياء حرصا لا يقل عن حرص العلماء والفقهاء والقضاة^(٢).

مكتبات المساجد والجوامع :

لم تكن هذه المكتبات الخاصة، رغم كثرتها كما وكيفا، هي النوع الوحيد الذي عرفته مصر إبان عصر المماليك. فقد وجد إلى جانبها نوع آخر هو مكتبات المساجد. فمذ فجر الإسلام اتخذ المسلمون المسجد مركزا للتعليم، إذ كانت تعقد فيه مجالس العلم والحلقات الدراسية. ويتحلق فيه العلماء والفقهاء والدارسون. ولأن الكتب تعتبر ركنا أساسيا من العملية التعليمية لا تقوم إلا به، لذا انتشرت مكتبات المساجد في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه انتشارا واسعا.

وثمة دافع آخر لإلحاق المكتبات بالمساجد، هو أن المساجد لها من القدسية ما يجعلها بمنأى عن أن يصيبها التخريب أو يلحقها النهب والسلب وخاصة في أوقات الفتن والحروب والثورات. ومن ثم كانت من أنسب الأماكن لإنشاء المكتبات بها^(٣).

(١) السخاوي : الضوء اللامع، ج ١، ص ١٢ - ١٣.

(٢) يذكرنا هذا الموقف بما صارت إليه أحوال الرومان في القرنين الأول والثاني الميلاديين حينما أصبح اقتناء الكتب عندهم مظهرا من مظاهر الثراء، وغدت المكتبة قطعة من أثاث البيت، حتى كان من بينهم من ثار على هذا الجمود الفكري ونعى عليهم هذا المظهر الكاذب من مظاهر الثقافة أمثال سينكا Seneca ولوسيان Lucian. راجع. عبد الستار الحلوجي : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، ص ٢٦ - ٢٧،

- Irwin, Raymond, The Origins of English Library, London, 1958, P.P.43 - 50.

(٣) عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق ص ٧٨.

وبالإضافة إلى ذلك، دعا الإسلام المسلمين إلى إنشاء المساجد وتعميرها وجعلها من صالح الأعمال. فيقول الله سبحانه وتعالى «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»^(١)، ويقول النبي ﷺ «الله عليه وسلم ومن بنى لله مسجداً..... بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢). لذلك اهتم ملوك المسلمين وخلفاؤهم وأمرأؤهم وأغنياؤهم حتى متوسطى الحال منهم بتشيد المساجد والجوامع وتوفير الخدمات المناسبة لها ووقف الأوقاف عليها ابتغاء الأجر والثواب. ومن جملة ذلك وقف الكتب والمصاحف كي تستخدم من قبل المتردين عليها باعتبار أن قراءة القرآن الكريم عبادة وأن العلم عبادة، ولأن الكتب هي أدوات العلم فمن الطبيعي أن تستقر المكتبات في دور العبادة والمساجد.

ومن أقدم الإشارات الخاصة بوقف الكتب والمصاحف بالمساجد ما أورده المقرئ من أمر وقف مصحف أسماء بنت أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان على جامع عمرو بن العاصي في عام ١١٨ هـ / ٧٣٤ م^(٣). وتزخر المصادر العربية بذكر العديد من نماذج المكتبات المسجدية التي انتشرت في العصر الإسلامي^(٤) من الهند إلى الأندلس لاسيما ما أنشئ منها بعد القرن الثالث الهجري (بعد القرن التاسع الميلادي)، حيث ازدهار حركة التأليف والترجمة وكثرة المؤلفات وتنوعها.

وفي إطار النشاط الديني المنقطع النظير الذي شهدته مصر إبان العصر المماليكي^(٥)، نجد المساجد قد انتشرت انتشاراً كبيراً، فكانت أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى

(١) القرآن الكريم : سورة التوبة، آية ١٨.

(٢) صحيح مسلم، ج٢، ص٦٨، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١ ص٢٤١.

(٣) المقرئ : الخطط، ج٢، ص٢٤٥ - ٢٥٥.

(٤) للوقوف على نماذج من هذه المكتبات. راجع : يحيى ساعاتي : الوقف وبنية المكتبة العربية، الرياض، ١٩٨٨، ص٦٤-٧٦.

- Mohamed Makki Sibai, Mosque Libraries, London, 1987, pp.5 4 -83.

(٥) انظر ص ٥٣ من الكتاب.

بكل خط منها مسجداً، أو مساجد، لكل إمام راتب ومصلون، كما يقول القلقشندي (١). وقد بلغ من كثرة المساجد وقتها أن اختلف في عددها. فخليل بن شاهين الظاهري قدر عدد المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة بأكثر من ألف مسجد (٢). ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه، إذ يذكر المقرئزي أن عدد المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة مائة وثلاثين مسجد في القاهرة (٣). ومهما يكن من أمر، فإن ذلك يعكس حقيقة هامة هي كثرة المساجد وانتشارها في مصر آنذاك.

وقد زودت هذه المساجد بخزائن الكتب والريعات والمصاحف وكتب الحديث والتفسير والفقه وغير ذلك من العلوم لاستخدامها من قبل المترددين على المساجد باعتبارها آداة العلم والتعليم. وهذه المكتبات منها، ما كان يلتمى إلى عصور سابقة على العصر المماليكي وظل يؤدي وظيفته إلى ما بعد ذلك، ومنها ما أنشئ خلال العصر موضوع الدراسة. ونستطيع أن نأخذ من مكتبات جامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم أمثلة لمكتبات المساجد التي أنشئت قبل العصر المملوكي واستمرت في تأدية وظيفتها إبانه.

فجامع ابن طولون هو أحد المساجد الجامعة القديمة، أنشأه أحمد بن طولون في عام ٢٦٣هـ / ٨٧٧م، وأوقف عليه الأوقاف، وكانت له خزانة كتب. وظل محل اهتمام من أتى بعد ابن طولون لاسيما في العصر الفاطمي حيث كانت عادة الخلفاء والوزراء والعلماء الفاطميين أن يوقفوا بعض نسخ القرآن الكريم على المساجد مع الكتب الأخرى (٤). من ذلك ما وقفه الحاكم بأمر الله حيث ذكر المقرئزي أنه أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشرة مصحفاً (٥). ولم تشمل خزانة كتب الجامع الطولوني على المصاحف والكتب الشرعية فقط، بل ضمت كتب الفلسفة والحكمة والنجوم والطب

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) خليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٣١.

(٣) المقرئزي: الخطط ج ٢ ص ٢٤٥.

(٤) متولى محمد متولى: المكتبة وديرها التروى في مصر الفاطمية، ص ٩٣.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٧.

والفلك والتاريخ^(١). غير أن هذا المسجد بما فى ذلك المكتبة قد تعرض للإهمال فى أواخر العصر الفاطمى، وانعدمت العناية به وخرب أكثره على حد قول المقرئى^(٢). وفى العصر الأيوبى لم يحظ باهتمام مذكور، وظل خراباً حتى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م عندما تسلطن المنصور حسام لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) الذى جدد ورتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودروساً فى التفسير والحديث والطب، وعين لهذه المدرسة مدرسين ومعيدين وطلبة ورتب لهم الأرزاق والمرتبات الوفيرة^(٣). وأنشأ كذلك خزانة كتب كانت عامرة المصنفات وتذكر وثيقته أن هذه المكتبة كانت فى عصر المماليك تحتوى على أمهات كتب الطب.

وأما مكتبة الجامع الأزهر فقد أنشئت بعد عشرين عاماً من إنشاء الجامع (٣٨١هـ/٩٩١م)، وذلك بعد أن أصبح فى عهد العزيز بالله الفاطمى مؤسسة تعليمية للعلماء والفقهاء والطلاب، ونقل إليها الكثير من المصاحف والكتب، وأضاف إليها بعد ذلك الحاكم بأمر الله الكثير من المجلدات التى كانت بدار العلم كما جاء فى الوقفية التى أوقفها لدار العلم والجامع الأزهر وجامع راشدة وجامع المقس^(٤).

ولأهمية هذه المكتبة، فقد عهد الفاطميون بالإشراف عليها إلى داعى الدعاة وهو من أكبر المناصب الدينية فى ذلك العصر. ومن أشهر هؤلاء الدعاة أبو الفخر صالح الذى عين داعياً للدعاة فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م «وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب»^(٥).

وقد استمر هذا المسجد ومكتبته فى تادية وظيفته التعليمية والتربوية زهاء قرنين من

(١) متولى محمد متولى : المرجع السابق والصفحة.

(٢) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٦٧.

(٣) وثيقة حسام لاجين، محكمة ١٨، محفوظة ٣، المقرئى : المصدر السابق - والصفحة، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٦، ابن القرات تاريخ ابن القرات، ج ٨ ص ٢٢٨.

(٤) انظر نص الوقفية فى : المقرئى : المخطوط، ج ٢، ص ٢٧٤.

(٥) ابن ميسر : أخبار مصر، صححه هنرى ماسيه، القاهرة، المعهد العلمى الفرنسى، ١٩١٩م، ج ٢، ص ٦٤.

الزمان . فلما انهارت الدولة الفاطمية وملك الأيوبيون البلاد، أوقفوا صلاة الجمعة فيه، ولكنه ظل محتفظا بصفته كمعهد للدراسة والقراءة إلى أن أعيدت إليه مكانته السابقة في عهد الظاهر بيبرس، فقد أمر في عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٥م بتجديده وإحياء مآثره، فأعيدت إليه صلاة الجمعة ورتبت فيه الدروس^(١).

ولقد أولى المماليك وأمرأؤهم والعلماء والفقهاء الجامع الأزهر ومكتبته عناية خاصة فأوقفوا الأوقاف عليه لضمان استمرارية العملية التعليمية به^(٢). من ذلك ما تذكره وثيقة الشيخ سليمان الإيشادي من أنه وقف كتبه «على الفقراء والمساكين القاطنين بالجامع الأزهر الذين لا يملكون من الكتب إلا اليسير جدا»^(٣). ويبدو أن كل رواق بالأزهر كان توجد به مكتبة خاصة بالمجاورين المقيمين به . من ذلك ما أوقفه الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المغربي عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م من الكتب «على أبناء جلدته من طلبة العلم والفقراء في الجامع الأزهر برواق المغاربة بالذات دون غيره من الأورقة»^(٤).

(١) على سالم النباهين : القرية الإسلامية في عصر السلاطين المماليك، ص ٣٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٤٨، أنظر أيضا سعيد عاشور : المجتمع المصري، ص ١٠١، عبد المنعم خفاجي : الأزهر في مائة عام، ص ٦٥ - ٦٦، عبد الرحمن زكي : الأزهر وما حوله من آثار، ص ٢٦ - ٢٧، جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس، ص ١٥٥ - ١٥٦، عبد الغنى عبد العاطي : التعليم زمن الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٢) انظر وثائق وقف الأمير يشبك بن مهدي الداودار - محكمة ١٨٨، محفظة ٢٨، السلطان فرج من برقوق محكمة ٦٦، محفظة ١١، وثيقة السلطان حسن بن قلاوون، ٨٨١ أوقاف، وثيقة الأمير قرقماس، ٩٠١ أوقاف، وثيقة سليمان الإيشادي محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة عيسى الزواوي محكمة ١٨٦، محفظة ٣١، نشر عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة صلاح الدين بلجك، ٦٢٣ أوقاف، وثيقة فاطمة بنت عبد الله الجركسية، ١٨٢ أوقاف . وثيقة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف، وثيقة ريتب بنت العلاني، ١٥٩٥ أوقاف، وثيقة جوهر اللالا، محكمة ٨٦، محفظة ١٢.

(٣) وثيقة سليمان الإيشادي، محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم مكتبه في وثيقة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٣ - ١٤.

(٤) وثيقة عيسى الزواوي، محكمة ١٨٦، محفظة ٣١، نشر عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة استلام كتب، القاهرة : ١٩٦٢م، ص ١٣.

وأما مكتبة الجامع الحاكمي، فمن المعروف أن هذا المسجد كان ثاني مسجد ينشأ في مصر في عهد الفاطميين. وقد أسسه العزيز بالله ثم أكمله الحاكم بأمر الله، ولذلك نسب إليه ويقال له الجامع الأنور^(١). وقد أصبح مركزاً علمياً مشهوراً زمن الفاطميين وأخذ ينافس الجامع الأزهر نفسه^(٢). والحق الحاكم بهذا المسجد خزانة كتب اشتملت على مختلف المعارف والفنون فضلاً عن المصاحف وعلوم الدين الإسلامي^(٣).

واستمرت عناية الفاطميين بالجامع الحاكمي ومكتبته حتى قرب نهاية دولتهم. ويبدو أن النشاط به قد اقتصر طول العصر الأيوبي وفترة من العصر المملوكي على إقامة الصلوات ولم يكن به أي نشاط ملحوظ إلى أن حدث بمصر زلزال عام ٧٥٢هـ / ١٣٠٢ م. وكان من العنف أن تهدمت كثير من منائر المساجد والمدارس، وتصدعت كثير من المباني والجوامع، ومنها جامع الحاكم. فاهتم الأمراء بتجديد ما تهدم منها وانتدب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لعمارة الجامع الحاكمي^(٤). فأصلح ما قد فسد، وبنى ما تهدم، وجدد المآذن، وبلط الأرضيات وبيضه ووقف عليه الأوقاف للصرف عليه ورتب فيه دروساً للغة والحديث والقراءات^(٥)، وعمل فيه خزانة كتب^(٦) وقف بها نحو من خمسمائة مجلداً في المعارف والعلوم المختلفة منها ربعة شريفة مكتوبة بماء الذهب على ورق بغدادى^(٧).

وأما مكتبات المساجد التي أنشئت في العصر المماليكي فهي كثيرة نذكر منها على

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق والصفحة : راجع أيضاً أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ١٩٨.

(٣) Lane - Poole, Stanley, A history of Egypt in the Middle Ages, p. 129.

(٤) النويرى : نهاية الأرب، ج٣١، ق ١، سنة ٧٠٢، المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٧٨، السيوطى : حسن

المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤. راجع أيضاً عبد الغنى عبد العاطى : المرجع السابق، ص ٢٣١ - ٢٣٢، أيضاً - Lane - Pool, The Story of Cairo, P.62.

(٥) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٧٨.

(٦) المصدر السابق والصفحة : النويرى، نهاية الأرب ج٣، ص ٧٠٤، ق ١.

(٧) وثيقة بيبرس الجاشنكير، محكمة ١٣، محفظة ٤ : النويرى : نهاية الأرب، نفس الجزء والصفحة : الكتبى : فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٩٠.

سبيل المثال : مكتبة الجامع الظاهر وهو معروف العافية الذى أنشأه الظاهر بيبرس البندقدارى فيما بين عامى ٦٦٥ - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٠ م - ١٢٦٧ م^(١). وكانت به خزانة كتب وقد وقف الشيخ الفقيه اللحوى يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمنهورى الشافعى كتبه على خزانة هذا الجامع^(٢)، ومكتبة جامع الخضيرى الذى أنشأه الأمير عز الدين أيدمر الخضيرى بناحية بولاق سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م وجعل فيه خزانة كتب نفسه ووقف عليها أوقافا كثيرة^(٣). وتذكر وثيقة الشيخ شمس الدين الواسطى أنه لما عمر مسجده بخط موردة البورى ببولاق، رتب فيه مكتبة عامرة لها خازن للكتب^(٤). ومن ذلك أيضا مكتبة الجامع الأبيض الذى أنشأه السلطان فرج بن برقوق فى عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م، الحوش السلطانى بقلعة الجبل، إذ تذكر وثيقة وقفه ما نصه: «... ومن ذلك جميع المكان المبارك المعمور بذكر الله تعالى الكاين بقلعة الجبل المحروسة بالحوش السلطانى بالجانب الشرقى منه الذى أحيا معمارته سنة الخير... وبالجانب الشرقى باب يدخل منه إلى بيت بمنافع وحقوق وهو معد لوضع المصاحف والربعات الشريفة وكتب العلم...»^(٥).

ومن أشهر مكتبات المساجد فى العصر المملوكى مكتبة الجامع المؤيدى الذى أنشأه السلطان المؤيد شيخ الحمودى فى عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م بجوار باب زويلة وزوده بخزانة كتب عظيمة تحوى كتباً فى مختلف العلوم والفنون، حيث يذكر المقرئى ما نصه: «... ثم نزل السلطان فى عشرة المحرم إلى هذه العمارة ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك

(١) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٦١ - ١٩٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) يوجد بدار الكتب المصرية مصحف رقم ٤ مصاحف كان قد وقفه السلطان محمد بن قلاوون على خزانة هذا المسجد، وكان من بين مجموعة الكتب بهذه المكتبة كتاب جامع التواريخ المصرية للحسن الباقى. انظر:

صلاح الدين المنجد: الكتاب العربى المخطوط، ج ١، لوحة رقم ١٦٨ انظر أيضا ملحق ١، لوحة ٤ بآخر الكتاب.

(٤) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣١٢، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨، ص ١١٨ - ١١٩ - ٢١٨، ٢٢٣،

٣١٢، اسفاوى : الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣٨٠.

(٥) وثيقة وقف فرج بن برقوق، محكمة ٦٦، محفظة ١١١ وانظر أيضا صالح لمعى مصطفى : الوثائق والعمارة،

ص ٢١، ٢٥. وجدير بالذكر أن دار الكتب المصرية تحتفظ بمصحف للسلطان فرج تحت رقم ١٦ مصاحف.

وقد حمل إليها كتباً كثيرة في أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل، وقدم له ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر^(١) خمسمائة مجلداً قيمتها ألف دينار، فأقر ذلك بالخزانة، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيباً للكتب هو ومن بعده من ذريته^(٢). ويؤكد كلام المقرئ ما ورد في وثيقة المؤيد شيخ ما نصه: «..... وظيفه الخطابة وخزن الكتب لسيدنا المقرئ العالى... أبى عبد الله البارزى الجهينى الشافعى كاتب الأسرار الشريفة الملكى المؤيدى ثم لمن بعده من أولاده وذريته...»^(٣).

ومن مكاتب المساجد أيضاً مكتبة مسجد الأمير تمرارز الأحمدي الذى أنشأه الأمير تمرارز أحد الأمراء الأخورية فى عهد السلطان الأشرف قايتباى فى عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١م^(٤)، وخزانة كتب جامع أزيك من ططخ الأشراف الظاهري جقمق (ت ٩هـ / ١٥م)^(٥)، وخزانة كتب مسجد الأمير خايربك من مال باى أحد أمراء قانصوه الغورى والذى أنشأه بخط التبانة عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م^(٦).

المكاتب المدرسية :

ولم تقتصر أنواع المكاتب التى عرفت فى مصر فى العصر المملوكى على المكاتب الخاصة ومكاتب المساجد والجوامع، وإنما وجدت أيضاً المكاتب المدرسية . إذ واكب إنشاء المدارس الاهتمام بتوفير قدر من الكتب فيها، منها ما تتصل بالمجالات الموضوعية التى

(١) كاتب السر وظيفة من يقوم بالتوقيع عن الملك على أسرارته التى يكتب بها. وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل. وعادة ما يتولى كاتب السر ديوان الانشاء. انظر: السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، ص ٣٠، وكذلك حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج١، ص ٩٢٣.

(٢) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٢٩؛ وقارن السيوطى : حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٩٤؛ ابن آياس : بدائع الزهر، ج ٢، ص ٦- ٧؛ وانظر كذلك : فهمى عبد العليم رمضان : جامع المؤيد شيخ، ص ١٠٦.

(٣) وثيقة وقف المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف، أنظر أيضاً السخاوى : الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٣٧.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٦، انظر أيضاً: مختار حسين الكسباني جامع الأمير تمرارز الأحمدي، دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير - جامعة القاهرة، ١٩٨٦م.

(٥) السخاوى : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٦) عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية، ص ٣٦.

تخصص فيها المدرسة، ومنها ما يدخل في باب المعارف والمراجع الأساسية التي لا يستغنى عنها أى دارس رغب فى تكوين ثقافة واسعة وراقية^(١).

ويعودة سريعة إلى الوراء نجد أن نظام الملك وزير السلاجقة هو أول من أسس المدارس وجعلها عملاً رسمياً من أعمال الدولة. وذلك بإنشاء المدرسة النظامية فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى)، وقد ألحق بها خزانة كتب ضخمة حتى ليقال أن فهرسها كان يضم بين دفتيه ستة آلاف مجلداً^(٢). ومن بغداد انتقلت فكرة المدرسة وإلحاق المكتبات بها إلى الحواضر الإسلامية ومنها الشام، حيث أنشأ نور الدين محمود العديد من المدارس منها المدرسة النووية فى حلب، ووقف عليها خزانة كتب كبيرة مئونة كما يقول الذهبى^(٣)، وكان من الطبيعى أن يحاكى صلاح الدين الأيوبي، ومن أتى بعد، من سلاطين الأيوبيين ورجال دولتهم، سيده نور الدين محمود فى بناء المدارس فأنشأ وفى مصر العديد من المدارس ذات المكتبات. وقد ذكر المقرئى ستاً وعشرين مدرسة أنشئت فى العصر الأيوبي، وكان معظمها لا يزال قائماً على عهده^(٤) مثل المدارس الكاملية والفاضلية والصالحية^(٥).

وعلى هذا، عندما آل حكم مصر إلى المماليك تبارى سلاطينهم وأمرؤهم فى إنشاء المدارس، واهتموا بذلك اهتماماً عظيماً حتى أصبح من المعتاد طوال عصر المماليك أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر. وينسحب هذا القول على معظم سلاطين المماليك بداية بالمعز عز الدين أيبك التركمانى (٦٤٨-٦٥٤هـ / ١٢٥٠-٣١٥٦) وانتهاء بالسلطان

(١) يحيى ساعاتى : الوقف وبيدة المكتبة العربية، ص ٧٦-٧٧.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، القاهرة، طبعة بولاق، ١٣٩٠هـ، ج ٨، ص ٢٢٩. وللمزيد عن المدرسة النظامية ومكتبتها راجع : ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦؛ ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك، ج ٨، ص ٦٥٦؛ الأشراف الغسانى : المسجد المسبوك والجوهر المحكول، ص ٢٢٥.

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٥٣٢.

(٤) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٦٣ وما بعدها، انظر أيضاً أحمد فكرى : المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٠.

(٥) انظر : ص ٦٧-٦٩ من هذا الكتاب.

قائد وه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م)، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها^(١). وقد عبر القلقشندى عن هذه الحقيقة بقوله «ابتنوا من المدارس ماملأ الأخطاطوشحنها»^(٢). كذلك ذكر ابن بطوطة «وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»^(٣).

وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بالجامعات . فهى معاهد أو كليات للتعليم العالى ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه وإن كان بعضها يشتمل على أربع كليات للمذاهب الأربعة . وإذا كان من المفروض فى المدرسة أن تكون مركزا للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها، فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو واللغة والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلا عن العلوم الدينية^(٤). وقد ألحقت بكل مدرسة مكتبة أو خزانة كتب . على حد مصطلح وثائق الوقف المملوكية^(٥). حوت أنواعا عديدة من المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون، يرجع إليها المدرسون والطلاب فى البحث والاستقصاء كما يقول القلقشندى^(٦). نذكر على سبيل المثال مكتبة المدرسة الفاضلية، ومكتبة المدرسة الكاملية، وكلاهما أنشئ فى العصر الأيوبي واستمرت فى تأدية وظائفهما حتى النصف الأول من عصر دولة المماليك البحرية^(٧).

وأما المكتبات المدرسية التى أنشئت فى العصر المملوكى فهى كثيرة . نذكر منها مكتبة المدرسة الظاهرية التى أسسها الظاهر بيبرس البندقدارى فيما بين عامى ٦٦٠ و٦٦٢ هـ (١٢٦١ - ١٢٦٣ م) بخط بين القصرين بالقاهرة، ووقف عليها خزانة كتب

(١) عبد الغنى عبد العاطى : المرجع السابق، ص ١٥١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٦٤ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة، ج ١، ص ٧٤ .

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، ص ١٥٢، ٢٦٢ .

(٥) راجع - الوثائق المثبت أسماؤها فى نهاية البحث فى قائمة المصادر والمراجع .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٦٧، أنظر أيضا سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٧) راجع ص ٦٨ - ٧٠ .

جليلة حمل إليها أمهات الكتب في سائر العلوم والمذاهب^(١). وهذه المدرسة يسميها السيوطي بالمدرسة الظاهرية القديمة تمييزاً لها عن المدرسة الظاهرية برقوق التي أنشئت بعد ذلك في سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م^(٢). كما أنشأ السلطان المنصور قلاوون في عامي ٦٨٣ - ٦٨٤هـ (١٢٨٤ - ١٢٨٥م) المدرسة المنصورية ضمن مجموعته - البيمارستان والقبّة والمدرسة - بخط بين القصرين بالقاهرة وجعل بها خزانة كتب جليلة في مختلف أنواع العلوم والريعات الشريفة^(٣). ويخط بين القصرين أيضاً توجد المدرسة الناصرية، وهي بجوار القبّة المنصورية، كما قد شرع في بنائها السلطان زين الدين كتبغا المنصوري ثم عزل قبل أن يتمها فاشتراها منه الناصر محمد بن قلاوون، وبنى بجوارها قبّة وكمل عمارتها سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) وجعل بها خزانة كتب^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٥٠٤، والخط، ج ٢، ص ٣٧٩، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٠، ٢١٣؛ اليونبي البطني: قطب الدين أبو الفتح موسى: ذيل مرآة الزمان، حيد رأباد الدكن، ١٩٥٤، ج ١، ص ٥٥١؛ راجع أيضاً محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص ١٢٨. وجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس أسس مدرسة أخرى أطلق عليها أيضاً المدرسة الظاهرية في دمشق فيما بين عامي ٦٧٠ و ٦٧٧هـ (١٢٧١ - ١٢٧٨م) وكان بها أيضاً مكتبة عظيمة حوت الكثير من الكتب والمخطوطات العلمية والدينية. أنظر: النعمي: الدارس فس تاريخ المدارس، ص ٣٤٩، ابن العماد الحلبي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٠ - ٣٥١، راجع أيضاً محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٦، ص ٨٣.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٩ - ١٩٠؛ راجع أيضاً السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨، ص ٢٩٨، ترجمة رقم ٨٤٣، ج ٩، ص ٣٠٥، ترجمة ٧٥٦.

(٣) وثيقة وقف السلطان قلاوون رقم ١٠١٠ أوقاف، محكمة ١٥، محفظة ٢. وقد قام بنشوها د. محمد أمين كملحق أنذكرة النبيه، ج ١، القاهرة، ١٩٧٦؛ انظر أيضاً المقرئزي: الخط، ج ٢، ص ٣٥٠؛ والسلوك، ج ١، ص ٧٢٥، ١٠٠١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٩٠؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٢٥ - ٣٢٧.

(٤) المقرئزي: الخط، ج ٢، ص ٣٨٢، والسلوك، ج ١، ص ١٠٤٦ - ١٠٤٧، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٩٠؛ وثائق محمد بن قلاوون، رقم ٢٥ محفظة ٤ وأرقام ٣٧، ٣٠، ٣١ محفظة ٥.

وتحتفظ دار الكتب المصرية بالعديد من موجودات هذه المكتبة، منها مصحف رقم ٤ مصاحف عليه نص الوقفية على المدرسة المذكورة سنة ٧٣٠هـ. انظر الملحق الأول، لوحة ٤، كما تحتفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة من كتاب «كامل الصناعتين: البيطرة والزريعة المعروف بالناصرى» رقم ٢٠٤٢ تأليف أبى بكر البيطار أحد البياطرة باصطبل محمد بن قلاوون. وكان ضمن موجودات مكتبة المدرسة الناصرية كما هو واضح من نص الوقفية المثبتة على صفحة العنوان.

وفيما بين عامي ٧٥٨ و٧٦٤ هـ (١٣٥٧ - ١٣٦٣ م) أنشأ السلطان حسن بن قلاوون مدرسته بخط سوق الخيل بالقلعة لدراسة المذاهب الأربعة والحديث والقراءات وقد زودها بمكتبة حوت العديد من الكتب والمصاحف، وقفها السلطان على طلبة العلم الشريف^(١). ويبدو أنه كان بها الكثير من كتب الحديث وعلومه، إذ تشترط وثيقة الوقف على مدرس الحديث أن يقوم بالتدريس من كتب الحديث المعتمدة^(٢). كما أسس السلطان شعبان بن حسين بن الناصر محمد المدرسة الأشرفية في سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) وكملت عمارتها في سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م)، والحق بها مكتبة كانت من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف الشريفة^(٣). ولكن هذه المكتبة لم تطل مدة بقائها، فقد هدمها السلطان فرج بن برقوق، ثم أقام مكانها المؤيد شيخ المحمودي البيمارستان^(٤) المؤيد في سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٠ م. كما اشترى الأمير جمال الدين يوسف الاستادار معظم كتبها من المنصور حاجي بن الأشرف شعبان وجعلها نواة مكتبة مدرسته^(٥). كذلك أسس الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية بين القصرين فيما بين عامي ٧٨٦ و٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٦ م)، وكانت أول مدرسة تنشأ في عصر دولة المماليك الجراكسة، وقد ضمت هي الأخرى خزانة كتب وصلنا منها عدة مصاحف وتآليف^(٦) كما أقام السلطان فرج بن

(١) وثيقة السلطان حسن، رقم ٨٨١ أوقاف، ورقم ٤٢، ٤٠ محفظة ٦، المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣١٦، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) وثيقة السلطان حسن محكمة رقم ٤٢ محفظة ٦.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ٢٢. هذا وتحفظ دار الكتب المصرية بمصحف السلطان شعبان على نص وقفه على مدرسته بتاريخ ١٥ شعبان سنة ٧٧٠ هـ. انظر أيضا الملحق الأول، لوحة رقم ٧ بآخر الكتاب.

(٤) وثيقة المؤيد شيخ المحمودي رقم ٩٣٨ أوقاف، المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٠١.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٠١.

(٦) ابن تغري: بردى: النجوم الزاهرة ج ١٢، ص ١١٣. ويوجد بدار الكتب مصاحف برقوق أرقام ١١، ١٢، ٧٥، ٧٦، ١١٣ مصاحف، وتحفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة من كتاب «الإشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات» وهو شرح من تأليف سراج الدين عمر بن علي الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م) على منهاج التبريزي نسخها سليمان بن صالح الحبلي بالمدرسة الظاهرية برقوق سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م) لمكتبتها كما هو واضح من حرد المتن Colophon، وتحمل هذه النسخة رقم ١٢٩٤ ب.

برقوق مدرسته المسماه بالناصرية على أنقاض المدرسة الجمالية بعد أن هدمها أخذاً برأى بعض المقربين منه الذين زينوا له هدمها لأنها أقيمت على الاغتصاب. ففعل ذلك في سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م)، وقد وقف عليها خزانة كتب. كان من كتبها كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي وهو في نيف أربعين مجلداً^(١).

وقد دار صراع طويل حول هذه المدرسة ومكتبتها بين آل جمال الدين الاستادار والسلطان فرج بن برقوق، فتغير اسمها مراراً^(٢).

كذلك أنشأ السلطان أبو النصر برسباي الدقماقي المدرسة الأشرفية برسباي فيما بين عامي ٨٢٦ و ٨٢٩ هـ (١٤٢٣ - ١٤٢٦ م) بالحريرين بالقاهرة^(٣)، وألحق بها مكتبة حوت الكثير من الكتب في مختلف الفنون والعلوم فضلاً عن المصاحف والربعات الشريفة^(٤). وأما السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) فقد أنشأ العديد من المدارس بالقاهرة وظاهرها^(٥)، منها المدرسة العظيمة بالصحراء الشرقية.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج٤، ص ٢٩٦؛ وقارن الخزرجي، على بن الحسن: كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩١١ ج٢، ص ٣١٧؛ وانظر أيضاً يحيى ساعاتي: الوقف ريدة المكتبة العربية، ص ٨٩.

(٢) تحدث المقرئ عن هذا الصراع بالتفصيل. راجع المقرئ: الخطط، ج٢، ص ٤٠١ - ٤٠٢؛ وانظر أيضاً: السلوك، ج٤، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء القمر، ج٢، ص ٤٨١.

(٣) وثيقة برسباي رقم ٨٨٠ أوقاف، وثيقة برسباي رقم ٤٥٥ دار الكتب، نشر أحمد دراج؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء القمر، ج٣، ص ٣٠٥؛ انظر أيضاً عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان برسباي، ج١٠٥، هذا وتحفظ دار الكتب بعده مصاحف كانت ضمن موجودات هذه المكتبة منها المصاحف أرقام ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ٢٩٩، ٩٦٠. أنظر أيضاً الملحق الأول، لوحة رقم ٩ بأخر الكتاب.

(٤) يذكر السخاوي أنه ممن تولى أمانة هذه المكتبة إبراهيم بن علي بن أحمد القلقشندي، وأحمد بن عبد الرحمن يوسف الأنصاري، ومحمد بن عمر الكركي. أنظر السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص ٧٧، ٣٢٩، ٢٧٠ على التوالي.

(٥) كان عصر السلطان قايتباي من أزهى العصور في إقامة المدارس والمنشآت الاجتماعية، حيث أنشأ العديد من المدارس بالقاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد، ودسوق، كما اهتم باصلاح عمائر ما سبق من سلاطين وامراء. فيقول الصيرفي عنه: «عمر آثاراً كثيرة كانت درست وغفت رسومها، ابن الصيرفي: أنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٣٣٩. كما أنه عمر مدارس خارج مصر في الحجاز وفلسطين وأمدتها بمجموعات من الكتب والمصاحف. للوقوف على هذه المنشآت راجع: وثيقة السلطان قايتباي، دراسة وتحليل عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٠ - ٣ وأيضاً حسنى نويصر: منشآت السلطان قايتباي، ص ١١ - ١٣، انظر كذلك

- Lane - Poole, A history of Agypt, P.342; Mayer, The Buildings of Qaytbay, p.6FF

وراجع ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع ج٦، ص ٢١١ وما بعدها.

قرافة أو جبانة المماليك - سنة ٨٧٧هـ / ٩٠٦م وألحق بها خزانة كتب^(١)، ومدرسة بالكبش سنة ٨٨٠هـ / ٩٠٩م ووقف عليها خزانة كتب حوت الكثير من المؤلفات والمصاحف وصل إلينا بعضها وعليه إشهار يوقفها بحيث لا تخرج من المدرسة برهن ولا بغيره^(٢). وفي أواخر عصر سلاطين المماليك - أسس السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م) المدرسة الغورية بخط الجرابشين بالقاهرة فيما بين عامى ٩٠٨ - ٩٠٩هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٤م)، وكان بها خزانة كتب حوت العديد من المؤلفات والمراجع والمصاحف فقد ذكرت وثيقة الغورى ما نصه «... خلوة كبرى معدة لخرن الكتب بها جنبات خشب نقى يعنى ويسره وصدرًا مثبتة معه لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها فى المدرسة المذكورة^(٣)».

وقد حاكى أمراء المماليك سلاطينهم فى إنشاء المكتبات المدرسية ووقف الأوقاف عليها. من ذلك مكتبة المدرسة الصحابية البهائية التى أنشأها صاحب بها الدين ابن محمد بن حنا سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م فى زقاق القناديل بمصر القديمة قرب الجامع العتيق. وكانت خزانة كتبها جليلة على حد قول المقرئى^(٤)، وربما يرجع الفضل فى ذلك إلى قريبها من سوق الكتبيين^(٥) فى نفس المنطقة. وهى غير المدرسة الصحابية التى أنشأها صاحب

(١) وثيقة السلطان قايتباى، رقم ٨٨٦ أوقاف، ص ٢٣ - ٢٤، نشر نويسر، ص ١١٧٥ وقارن وثائق قايتباى رقمى ٨٨٨، ٨٩٠، ابن اياس : بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٢٣، السخارى : الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠٨، ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب، ج ٨، ص ٦ - ٧.

(٢) السخارى : الضوء اللامع ج ٦، ص ٢٠٨، ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٨، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣، ص ١٢٣. ومن هذه الكتب والمصاحف تحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف قايتباى رقم ١٢٦ مصاحف، وكتاب اللوامع فى مشكلات المطالع رقم ١٩٦١، وكتاب فى التصوف رقم ١٦٩٦ تصوف، ومصاحف وربعات أرقام ١٨، ٨٦، ٨٨، ١٤٤. كما تحتفظ المكتبة الأزهرية ببعض الكتب والمصاحف مثل ربعة رقم ١٥٠ ورقم ٥٤٩١، والقصيدة التوحيدية رقم ٣٩٦٤. أنظر الملحق الأول، لوحة رقم ١١ بآخر الكتاب.

(٣) وثيقة الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف، أنظر ابن اياس : بدائع الزهور، ج ٤، ص ٥٢، ٦٨، ٥٣، راجع ايضا محمد فهم : مدرسة السلطان الغورى، ص ٢٠٣. هذا وتحتفظ دار الكتب بالعديد من المؤلفات التى كانت فى هذه المكتبة منها مصحف الغورى رقم ٧٣، والحكايات المستطابة فى ديوان الصبابة، رقم ١١٨٠٧ ز، وقارن جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٣٩، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٤١.

(٤) المقرئى : الخطوط، ج ٢، ص ٣٧٠، ٣٧١، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٤١.

(٥) المقرئى : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٢.

صفى الدين عبد الله بن شكر بسنويقة صاحب فى القاهرة للمالكية وكان بها هي الأخرى خزانة كتب^(١). كما أنشأ سيف الدين منكوتم والحسامى نائب السلطة بالقاهرة^(٢) المدرسة المنكوتمية سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م، وجعل بها خزانة كتب وجعل وقفاً ببلاد الشام^(٣). وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى^(٤) نقيب الجيوش فى عهد السلطان حسام لاجين مدرسة المعروفة بالمدرسة الطيبرسية سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م بجوار الجامع الأزهر، وجعل بها خزانة كتب^(٥). كذلك وجد بالمدرسة الملكية التى أنشأها سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصرى سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م تجاه داره بخط المشهد الحسينى. خزانة كتب معتبره على حد قول المقرئى^(٦) وأما المدرسة الصرغتمشية التى أسسها الأمير صرغتمش الناصرى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م بجوار الجامع الطولونى لدراسة المذهب الحنفى والحديث، فإن كتب الخطط والتراجم والطبقات^(٧) لا تذكر شيئاً عن مكتبتها التى حوت الكثير من كتب الفقه والحديث وغير ذلك من العلوم الشرعية واللغوية والمصاحف والريعات الشريفة. ولكن وثيقة الوقف الخاصة بالأمير صرغتمش تكشف عن وجود مكتبة بالمدرسة الصرغتمشية مثلها فى ذلك مثل غيرها من المدارس المملوكية^(٨). كذلك

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧١.

(٢) انظر ترجمته فى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٧.

(٣) المصدر السابق ج ٢، ص ٣٨٧.

(٤) انظر ترجمته فى: المصدر السابق ج ٢، ص ٣٨٣.

(٥) المصدر السابق والصفحة. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٩، ص ١٩٩، ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤، ص ٩٦.

(٦) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٢، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ١٠، ص ١٧٦.

(٧) انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٣، السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٩٢.

(٨) وثيقة الأمير صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم، أنظر أيضاً: عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ٢٣، يحيى ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية ص ٨٨. وقد وصلنا من هذه المكتبة كتب عديدة منها كتاب: التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، رقم ٣ لغة، دار الكتب، ومصحف صرغتمش رقم ١٥ مطاحف دار الكتب؛ وريعة صرغتمش رقم ١٥٠ بدار الكتب، وريعات صرغتمش أرقام ١٨٢/٨٠٩٩، ١٨٣/٨١٠٠، ١٨٤/٨١٠١، ١٨٥/٨١٠٢ بالمكتبة الأزهرية. أنظر الملحق الأول، لوحين ١، ٢، بآخر الكتاب.

أسس الأمير سيف الدين الجاي اليوسفى زوج خوند بركة مدرسته خارج باب زويلة بسوق العزى^(١) فيما بين عامى ٧٦٨ - ٧٧٤ هـ (١٣٦٨ - ١٣٧٤ م) وزودها بخزانة كتب ومصاحف^(٢). وكان بمدرسة الأمير أنيال اليوسفى^(٣) التى أسسها خلال عامى ٧٩٤ - ٧٩٥ (١٣٩٢ - ١٣٩٣ م) خزانة كتب فيها العديد من المؤلفات والمصاحف^(٤). وأما المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود الاستادار سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م بخط الموازين خارج باب زويلة، فقد عمل بها خزانة كتب^(٥) لا يعرف بديار مصر والشام مثلها على حد قول المقرئى^(٦)، وكان بها حوالى أربعة آلاف مجلداً^(٧).

وألحق بكل من مدرسة أيتمشى البجاس أتابك العساكر فى أيام برقوق (٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م)^(٨)، ومدرسة الأمير سودون من زادة التى أنشأها عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م^(٩)، والمدرسة الاستدارية التى أنشأها جمال الدين يوسف الاستادار بين القصرين بالقاهرة فى عامى ٨١٠ - ٨١١ هـ (١٤٠٧ - ١٤٠٨ م) خزائن كتب، وكانت الأخيرة من أشهر المكتبات المدرسية فى العصر المملوكى^(١٠). كذلك أنشأ مقبل الرومى الزمام (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م)

(١) سوق العزى خارج باب زويلة قريباً من قلعة الجبل، وقد سميت كذلك نسبة إلى الأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش زمن خليل بن قلاوون. راجع المقرئى : الخطط ج ٢، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢، ص ٣٩٩؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨، ص ٢٠٤، ج ٤. وتحتفظ دار الكتب بمصحف الجاي اليوسفى رقم ٦٣، ١٤ مصاحف.

(٣) أنظر ترجمته فى ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٣، ص ١٨٩، ترجمة ٦١٥، السخاوى : الضوء اللامع ج ٣، ص ١٠ - ١٢.

(٤) وثيقة وقف أنيال اليوسفى رقم ٥٥ محفظة ٩، وهذه المدرسة سجلت أثرياً برقم ١١٨ (بشارع الخيامية).

(٥) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٥٩.

(٦) المقرئى : الخطط ج ٢، ص ٣٩٥.

(٧) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤. أنظر الملحق الأول، لوحة رقم ٥، والملحق الثالث بآخر الكتاب.

(٨) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر، ج ٣، ص ١١٨، وفيات ٨٠٢ ورقة ٢٤، السخاوى : الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٩) وثيقة الأمير سودون من زادة، رقم ٢٥٨، محفظة ١٠، نشر حسنى نويصر.

(١٠) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار رقم ١٠٦ محفظة ١٧، نشر عبد الستار عثمان، المقرئى : الخطط ج ٢، ص ٤٠١.

مدرسة البندقاتين بالقاهرة وجعل بها خزانة كتب^(١) وألحق الأمير عبد الغنى الفخرى بمدرسته التى أنشأها بخط بين السوريين سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م خزانة كتب حيث تذكر وثيقة وقفه ما نصه «ويصدره - أى الدهليز - يدخل إلى خزانة برسم خزانة الكتب والإيوان الغربى يشتمل على خزانتين برسم الكتب وغيرها^(٢) . وجعل الأمير تغرى بردى البكلمش (ت ٨٤٦هـ / ١٤٤٣م) بمدرسته التى بخط الصليبية الطولونية بالقاهرة خزانة كتب بالإيوان الكبير على يسره المصلى كما تذكر وثيقة وقفه^(٣) . وألحق الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير بمدرسته خزانة كتب أودع بها الكثير من كتبه التى وصل إلينا بعضها^(٤) .

وفى عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م بنى الأمير أزيك من ططخ أتابك العساكر مدرسته بمنطقة الأزيكية - ضمن عمارة الكثيرة هناك - وجعل بها خزانة لكتب العلم المختلفة^(٥) . كما عمر الأمير قجماس الإسحاقى مدرسة بالقرب من خوذة أيد مش بالدرب الأحمر فيما بين عامى ٨٨٤ و ٨٨٧هـ (١٤٧٩ - ١٤٨٢م) ، وكان بها خزانة كتب^(٦) . وفى عصر الغورى أنشأ السيفى قانى باى قرار الرماح أمير أخور كبير، وهو أحد أمراء الغورى، مدرسة تجاه

(١) وثيقة مقبل الرومى رقم ٦ محفظة ١٠، رقم ٧٥، محفظة ١٢، السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٦٨ .
(٢) وثيقة عبد الغنى الفخرى رقم ٧٢، محفظة ١٢، المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٢٨، السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠، انظر أيضا : محمود الكحلوى مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى، رسالة ماجستير لم تنشر بعد - جامعة القاهرة، ١٩٨١م .

(٣) وثيقة الأمير تغرى بردى، رقم ٩٨ محفظة ١٦، دار الوثائق .
(٤) يذكر السخاوى أن الأمير يشبك كان له رغبة عظيمة فى اقتناء الكتب . انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ . وتحفظ دار الكتب المصرية باحد موجودات هذه المكتبة هى كتاب «شجرة النسب النبوى وأخبار الملوك المصرية، بخط خطاب من عمر الدجاوى سنة ٨٨٣هـ تحت رقم ١٦٣٧ تاريخ - أنظر الملحق الأول . اللوحة رقم ١٠، وتحفظ مكتبة بلدية الاسكندرية بنسخة من نفس الكتاب تحت رقم ٣٧٥٤ ج وقد كتب على صفحة عنوانها عبارة «برسم خزانة الاشرف السيفى يشبك بن مهدي، ويستفاد من ذلك أنها كانت ضمن موجودات خزانته .

(٥) وثيقة وقف أزيك من ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق، السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٧٢، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٣ ص ١١٣ .

(٦) وثيقة الأمير قجماس الاسحاقى، رقم ٧٦٠ أوقاف، السخاوى : الضوء اللامع، ج ٦ ص ٢١٣، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٨، ٤٠٧ .

سوق الخيل بميدان القلعة سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٣م، وكان بها خزانة كتب أيضا. فقد ورد في وثيقة وقفه ما نصه «... وأما الخلوتان اللتان بالإيوان الكبير - وهو المحراب - فجعل أحدهما وهي القبالية معدة لخزن الكتب التي وقفها الواقف المشار إليه وجعل مقرها بالمدرسة المذكورة»^(١). كما أنشأ السيفي بيبرس بن عبد الله بن عبد الكريم بن عمر الأشرف قانصوه الغوري المعروف بالخياط مدرسة بخط الجودرية بالقاهرة، وقد كملت عمارتها في عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م، وكانت بها خزانة كتب حوت الكثير من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون^(٢).

وقد ساهم بعض الطواشية^(٣) في بناء المدارس والحقا المكنبات بها. من هؤلاء الطواشي بشير الجمدار^(٤) الناصري الذي عمر المدرسة البشيرية سنة (٧٦١هـ / ١٣٥٩م) وزودها بخزانة كتب^(٥) وكذلك الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي مقدم الممالك السلطانية الأشرافية^(٦)، فقد بنى المدرسة السابقة بخط بين القصرين سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م وزودها بخزانة كتب أيضا^(٧).

وقامت أميرات العصر المماليكي بنفس الدور. ففي سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م أنشأت خوند تتر الحجازية ابنة السلطان محمد بن قلاوون وزوجة الأمير ملكتمر الحجازي المدرسة

(١) وثيقة قاني باي الرماح، رقم ١٠١٩ أوقاف.

(٢) وثيقة السيفي بيبرس، رقم ٣١٣، محفظة ٤٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٤ ص ٤٧٧.

(٣) الطواشية وأحدثها طواش وهو الخص الذي ذهب أنثياه وذكره بالكلية، وقد استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحريم السلطاني، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، وبعد شيخهم من أعيان الناس. انظر: السبكي: معيد النعم، ص ٣٩؛ راجع أيضا سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٣١.

(٤) الجمدار هو الوصيف أو الموظف الذي يتصدى لالباس السلطان أو الأمير ثيابه. راجع: الفلقشدي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٥٩؛ السبكي: معيد النعم ص ٣٥؛ انظر أيضا حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف. ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٨.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٦) مقدم الممالك هو أجل وأفضل الطواشية وأقربهم إلى السلطان، وهو من يتحدث في شئون الممالك ويحكم فيهم ويحضر تفرقة الجامكية عليهم. راجع: المقرئزي: السلوك ج ١، ص ٧٨٠، مج ٣.

(٧) المقرئزي: الخطط ج ٢ ص ٣٩٣ - ٣٩٤. ويذكر السخاوي أن محمد بن محمد القرشي كان خازنا لمكتبة المدرسة السابقة. انظر ترجمته في السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٧١.

الحجازية بخط رحبة باب العيد بالقاهرة، وجعلت بها خزانة عامرة بالمؤلفات في مختلف العلوم^(١). كما وجد بالمدرسة التي أسستها خوند بركة زوجة الأمير الجاى اليوسفى، أم السلطان شعبان بن حسين بالتبانة سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م مكتبة حوت الكثير من المؤلفات والمصاحف والريعات الشريفة^(٢).

وإذا كان سلاطين المماليك وأمرأؤهم والطواشية والأميرات قد أسهموا بالدور الكبير فى إنشاء المدارس وتزويدها بالمكتبات، فإن بعض العلماء والتجار والقضاء هم أيضا قد شاركوا فى هذا العمل. إذ أنشأ الإمام الشيخ مجد الدين خليل سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م المدرسة المجدية الخيلية^(٣). وشيد شيخ الإسلام سراح الدين عمر البلقينى مدرسة فى سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م^(٤)، وشيد الشيخ ولى الدين البلقينى مدرسته بجوار المدرسة الشريفة^(٥). ومن ذلك أيضا مدرسة العنتانى التى عمرها محمود بن أحمد ابن موسى العنتابى نزيل القاهرة (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بالقرب من الجامع الأزهر^(٦). وأغلب الظن أن الدوافع التى كانت وراء إنشاء العلماء للمدارس وإلحاق المكتبات بها كانت دوافع دينية وعلمية بحتة. أما التجار أصحاب الأموال الطائلة ربما كان الدافع لهم إلى ذلك هو الرغبة فى نيل الثواب بجانب الرغبة فى الظهور بمظهر الصلاح والتقوى خوفا من مصادرة أموالهم على يد المماليك^(٧). ومن أشهر مدارسهم : مدرسة المحلى التى أنشأها رئيس التجار برهان الدين

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) وثيقة خوند بركة رقم ٤٧، محفوظة ٧، دار الوثائق، المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٣٩٩-٤٠٠؛ ابن اياس : بدائع الزهور، ج١ ص ٢٢٧؛ وراجع أيضا ميرفت عيسى : مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان، دراسة معمارية، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م. وتحتفظ دار الكتب بمصحف كان أحد موجودات هذه المكتبة وهوتحت رقم ٦ ويذكر السخاوى أن محمد بن عبد الله السمودى كان خازنا لكتب هذه المدرسة : انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع، ج٨، ص ١١٣.

(٣) المقرئى : الخطط ج٢ ص ٣٩٩؛ ابن دقماق : الانتصار، ج٤، ص ٩٦.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١١ ص ٣٨٩، ص ٢٩، ج ٢، ابن العماد : شذرات الذهب ج٧، ص ٥١ - ٥٢؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ج٢ ص ١٧١.

(٥) السخاوى : التبر المسبوك، ص ٣٨٩؛ ابن الصيرفى : أنباء الهصر، ص ٤٦٣.

(٦) ابن فهد الهاشمى : معجم الشيوخ، ص ٢٩٥.

(٧) عبد الفتى عبد العاطى : المرجع السابق، ص ١٦٦-٦٧.

إبراهيم (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) وأنفق على بنائها خمسين ألف دينار^(١). ويمكن إدراج المدارس التي أنشأها بعض القضاة ضمن مدارس التجار على اعتبار أن بعض أولئك القضاة كانوا يجمعون بين التجارة والعلم. من ذلك مدارس الخروبية. فبالرغم من توليهم لمناصب القضاء، إلا أن شهرتهم كتجار فاقت شهرتهم كقضاة. وقد قامت عائلة الخروبي ببناء ثلاثة مدارس هي المدرسة التاجية الخروبية التي أنشأها القاضي تاج الدين الخروبي (ت ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م)^(٢)، والمدرسة العزية الخروبية التي أنشأها القاضي عز الدين الخروبي (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م)^(٣)، والمدرسة البدرية الخروبية التي شيدها القاضي بدر الدين الخروبي (بعد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م). ومن مدارس القضاء مدرسة ابن قاضي العسكر التي بناها الحسين بن محمد محمد العوكانى (ت ٧٦٢هـ / ١٣٦١م)، حيث يذكر كل من ابن حجر العسقلانى والشوكانى أنه عمر مدرسة بحارة بهاء الدين ووقف عليها وقفا جيدا، ووقف بها كتب كثيرة^(٤) وكان أيضا بالمدرسة العرابية المجاورة للبشتكية خزانة كتب كبيرة^(٥). وقد شارك بعض المسالمة، وهم الفئة الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، فى بناء بعض المدارس لدراسة فقه الدين الإسلامى الذى اعتنقوه. من ذلك المدرسة البقرية التي أنشأها شاكربن غبريان بن عبد الله البقرى (ت ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م) بالقرب من جامع الحاكم^(٦). كما بنى يحيى بن عبد الرازق الذى تولى الاستاذارية للظاهر جقمق أكثر من مدرسة ووقف عليها الكثير من الكتب^(٧).

ولم يقتصر إنشاء المكتبات المدرسية على القاهرة وحدها باعتبارها عاصمة الديار

(١) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٨؛ ابن دقماق : الانتصار، ج ٤، ص ٩٩.

(٣) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر، ج ١، ص ٨٦-٨٧؛ ابن دقماق : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) ابن حجر : المصدر السابق ج ١ ص ٨٧؛ ابن دقماق : المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٨، ٩٩؛ المقرئى : الخطط

ج ٢ ص ٣٦٩.

(٥) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٥٥؛ الشوكانى : البدر الطالع ج ١، ص ٢٢٨.

(٦) ذكر السخاوى أن الشيخ أحمد الحسين القاهرى كان خازنا لمكتبة هذه المدرسة. انظر ترجمته فى : السخاوى :

الضوء اللامع ج ١ ص ٢٧٧.

(٧) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٩٠؛ ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر، ج ١، ص ٦٥-٦٦.

المصرية، بل انتشرت في معظم أقاليم مصر من أسوان جنوباً إلى الإسكندرية شمالاً إذ أنشئ في الإسكندرية ما لا يقل عن خمس وعشرين مدرسة^(١) ملحقة بكل واحد منها خزانة كتب عامرة بصنوف الكتب والتوايف، كما يقول البلوى^(٢). من هذه المدارس العفوية والسلفية والعمادية والسراجية. ولم يكن البعد النسبي للوجه القبلى عن العاصمة مانعاً للمشاركة في النهضة المكتبية والتعليمية التي عاشتها مصر إبان عصر سلاطين المماليك، بل على العكس من ذلك كان دافعاً لإنشاء الكثير من المدارس^(٣). فأسوان وحدها كان بها ثلاث مدارس هي البانياسية والنجمية والسيفية^(٤). وفي إدفو خمس مدارس هي الأفرمية والعزية وابن سديد والغربية والمجيدية^(٥). وبلغت المدارس التي شيدت في قوص ستة عشر مدرسة^(٦). كما وجدت مدارس في إسنا وأسيوط وإخميم والبهنسا وأرمنت وقنا والأقصر. وأما الفيوم فكان بها هي الأخرى عدة مدارس، وكذلك بالوجه البحرى وجدت عدة مدارس بدمياط وفيشا وبلبيس والمحلة^(٧). ووفقاً لرواية القلقشندي^(٨) قل أن تخلو إحدى هذه المدارس من مكتبة. فالارتباط العضوى وثيق بين هذه المدارس كمؤسسات تعليمية وتربوية وبين الكتاب.

(١) انظر: أسامة أحمد إسماعيل حماد: الإسكندرية في عصر دولتي المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية

الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٦٣٧ - ٦٥٢.

(٢) البلوى: تاج المفرق، ج ٢، ص ٦٨، ٧٨، ٧٩، ٨٧.

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى: التظيم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ص ١٧١.

(٤) الإدفوى: الطالع السعيد، ص ١٩، ١٠٨، ١١٥، ٢٥٠، ٢٥٤، ٣٣٨، ٣٥٣، ٤١٩، ٤٢٠.

(٥) المصدر السابق، ص ١٩٣، ٨٣، ١٣٦، ١٩٢، ٦٥، ٢٩٥، ٢٣٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٧، المقرئى: الخطط ج ١ ص ٢٣٦.

(٧) راجع: عبد الغنى محمود عبد العاطى: المرجع السابق ص ١٧١ - ١٧٤، ١٧٦ - ١٧٩ وما بها من حواشى.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١ ص ٤٦٧؛ وراجع أيضاً: مصطفى السباعى: من روائع حضارتنا،

ص ٦١٦، سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٥. وجدير بالذكر أن مكتبة بلدية الإسكندرية تحتفظ بنسخة

تحت رقم ٨١٧ ب من كتاب «عمدة المحتاج فى شرح المنهاج لابن الملقن» (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م) برسم خزانة

مدرسة تقي الدين بالمحلة، وكتاب عبارة عن مجموعة مجلة تحتوى على إشكال ميكانيكية وهندسية وفلكية

وموسيقية، تأليف القس عيسى بيتر، كان ضمن موجودات خزانة المدرسة بدمياط.

وبالإضافة إلى أنواع المكتبات التي أسلفنا إليها، عرفت مصر المملوكية أنواعا أخرى من هذه المكتبات، من بينها المكتبات الملحقة بالبيمارستانات والربط والخانقاوات والزوايا والتراب والقباب.

مكتبات البيمارستانات :

وتعتبر البيمارستانات^(١) أكثر هذه الأنواع حاجة للكتب والمكتبات. ذلك أنها كانت بمثابة الكليات الطبية الحديثة، حيث توضح وثيقة وقف السلطان قلاوون «أن خدمات البيمارستانات لم تقتصر على معالجة المرضى بل تعدى الأمر إلى تدريس الطب والاهتمام به. ويشبه هذا إلى حد كبير ما يتم في المستشفيات الكبيرة في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حيث تتوفر الدراسة العلمية وممارسة الطب على أيدي أساتذة متخصصين. فقد نصت وثيقة الوقف على مصالح البيمارستان المنصوري على تعيين شيخ للاشتغال بالطب يكون من بين أطباء البيمارستان، وخصص له الواقف مكانا لإلقاء دروس الطب على طلبته^(٢)،... وهكذا كان البيمارستان مكانا للتدريب العلمي وللدراسات النظرية في ذات الوقت. ولأن الكتب تعتبر جزءا أساسيا في العملية التعليمية لا تتم إلا به

(١) البيمارستان بفتح الراء وسكون السين، كلمة فارسية معربة، مركبة من مقطعين «بیمار» وتعنى مريض و «ستان» وتعنى دار أو مكان أو محل، فهي دار المريض ويقال أحيانا المارستان وهو مستشفى لمعالجة المرضى من كافة الأمراض. ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على مستشفى معالجة الأمراض العقلية والنفسية. انظر: المقرئى : الخطط، ج٢، ص١٤٠٥ والسلوك، ج١، ص١٧١٦ راجع أيضا : سعيد الجوزى الشرنوبى : معجم أقرب الموارد فى نصيح العربية والشوارد ، بيروت، (مطبعة مرسلى اليسوعية) ١٩٨٣، ج١ ص ٧٠؛ أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، ص ٤٤ سيدة اسماعيل كاشف : أحمد ابن طولون، ص ٢٥٢ محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ١٥٥.

(٢) محمد محمد أمين : «وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري» تحقيق ودراسة، ملحق بكتاب : تذكرة النبوة فى أيام المنصور وبنده، ج١ ص ٣٠٧، راجع أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٩٢-٩٣.

فقد حرص الذين شيدوا البيمارستانات في العصر المملوكي^(١) على تزويدها بالمكتبات التي تضم المؤلفات الطبية. ومن هذه البيمارستانات، البيمارستان الطولوني وهو أول بيمارستان أنشئ في مصر^(٢)، ويعرف بالبيمارستان الأعلى^(٣)، أنشأه أحمد بن طولون في عام ٢٥٩هـ / ٨٧١م وكان بمثابة مستشفى وكلية الطب، وجعل فيه خزانة كتب ضمت ما يزيد على مائة ألف مجلد، لم تكن في علوم الطب فقط بل في سائر العلوم والمعارف^(٤). وعلى الرغم من أن هذا الرقم يبدو مبالغاً فيه، إلا أن هذه الرواية تكشف عن قدم العناية بالمكتبات في المستشفيات من ناحية وكثرة عدد محتوياتها من الكتب من ناحية أخرى^(٥). وقد استمر هذا البيمارستان في تأدية وظيفته حتى عصر المماليك

(١) هناك العديد من البيمارستانات التي كانت موجودة في العصر المملوكي سواء ما أنشئ منها قبل العصر المملوكي أو إبان، منها: البيمارستان الطولوني الذي أنشأه أحمد بن طولون في عام ٢٥٩هـ / ٨٧١م بالعسكر والبيمارستان الأسفل الذي بناه كافور الإخشيدي في عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م، والبيمارستان الصلاحي الذي شيده صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢هـ / ١١٦٧م، والبيمارستان المنصوري وقد شيده الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م، والبيمارستان المؤيدي الذي أنشأه المؤيد شيخ عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م.

انظر على التوالي :

- المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٠٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٤، ص ١٠١.
- المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٠٦؛ ابن دقماق: الانتصار لواقعة عقد الأمصار، ج١، ص ٩٩.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٤٠٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٤٨، ٣٦٥؛ أبو شامة: الروضتين ج١ ص ٢٦٨.
- وثيقة قلاوون رقم ١٥، محفظة ٢، دار الوثائق، رقم ١٠١٠، أوقاف قديم، المقرئى: الخطط ج٢ ص ٤٠٦، السلوك ج١ ص ٧١٦-٧١٧؛ انظر أيضا محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص وما بعدها.
- وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨، أوقاف، المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٠٨؛ والسلوك ج٤، ص ٦١٠.
- (٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٤٣.
- (٣) ابن دقماق: الانتصار، ق ١، ص ٩٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٣، ص ١٠، ١٢.
- (٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٠١ - راجع أيضا أحمد عيسى: تاريخ البيمارستان في الإسلام ص ١٧١؛ محمد عبد الرحيم غنيم: تاريخ الجامعات الإسلامية ص ٢٨٤.
- (٥) وجدير بالذكر أن هذا النوع من المكتبات كان قد انتشر في العالم الإسلامي، ومن أقدمها وأشهرها اثنتان، البيمارستان العضدي الذي أنشأه عضد الدولة البويهى في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى في بغداد وألحق به مكتبة كبيرة، والبيمارستان الثانى هو الذى شيده نور الدين محمود زكى في نهاية القرن السادس الهجرى / نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وأوقف عليه جملة كثيرة من الكتب الطبية، أنظر: ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص ١٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٥٠؛ ابن الجوزى: المنتظم ج٩، ص ١١٢، النعمى الدارس في تاريخ المدارس؛ انظر أيضا: محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٤٥؛ عبد الستار الحلوجى: لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات ص ٤٧.

الجراسكة (١).

ويعتبر البيمارستان المنصوري من أعظم المستشفيات والكليات الطبية في مصر الإسلامية إن لم يكن أعظمها عيل الإطلاق. وقد أدهش هذا المستشفى الكبير الرحالة الذين زاروا مصر في ذلك الوقت. فقد ذكر البلوى المغربي في رحلته أنه « لو لم يكن للقاهرة ما تذكره به إلا البيمارستان وحده لكفى » (٢). ووصفه ابن بطوطة بأنه « يعجز الوصف عن محاسنه، ولم لا » وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصر (٣) وكان « يشرف عليه الأطباء » (٤) الماهرون والنظام والخدام والمتصرفون (٥)، وقد أنشأ هذا البيمارستان الملك المنصور قلاوون (ت ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م)، وأوقف عليه الأوقاف السخية (٦)، وجعل به خزانة كتب (٧). كما حظى هذا البيمارستان باهتمام الواقفين منهم ابن النفيس الطبيب المشهور (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) حيث أوقف داره وكتبه عليه (٨)، وكانت هذه المكتبة من الضخامة أن بلغت محتوياتها مائة ألف مجلد (٩). وهكذا تتسع الحركة المكتبية في مصر المملوكية لتمتد فتشمل المكتبات المتخصصة في مجال الطب وذلك إدراكا جيدا من رجال ذلك العصر لكافة متطلبات الحياة.

(١) ذكره المقرئ في الخطط، ج ٢، ص ٤٠٥. ويفهم من كلامه عنه أنه رآه، ويذكر عبد الرحمن زكي في «تراث القاهرة العلمي والفني»، ص ٦٣، أن بعض الأطباء كسراج الدين البهادر (ت ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م) كان يعمل في المارستان المنصوري والمارستان الطولوني.

(٢) البلوى المغربي: الرحلة (مخط)، ورقة ٥٦ وجه.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٣.

(٤) من أبرز الأطباء الذين عملوا في هذا المارستان الطبيب ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية، ومهذب الدين أبي خليفة، ومحمد بن محمد بن عبد الرحمن. انظر: عبد الرحمن زكي: «تراث القاهرة العلمي والفني»، ص ٥٦.

(٥) البلوى المغربي: المصدر السابق والصفحة.

(٦) وثائق وقف قلاوون، رقم ١٥ محفظة ٢، دار الوثائق، ورقم ١٠١٠ أوقاف قديم.

(٧) المقرئ في الخطط، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٨) ابن شاكر الكتبي: عيون الاخبار، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود وقبصل السامراتي بغداد، ١٩٨٤، ج ١، ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٩) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الاسلام، ص ١٤٦.

مكتبات الخوانق والربط والزوايا :

وهناك أيضا المكتبات الملحقة بالخوانق^(١) والربط^(٢) والزوايا^(٣) وهى الأماكن التى أعدت لإقامة الصوفية وانقطاعهم فيها للعبادة والعمل. وقد انتشر هذا النوع من المؤسسات نتيجة لانتشار التصوف واتساع نطاقه فى عصر سلاطين المماليك. فقد أنشئ فى عصر الناصر محمد بن قلاوون^(٤) - وحده - ثمانية خوانق^(٥). وذكر المقرئى اثنين وعشرين خانقاه^(٦) واثنى عشرة رباطا^(٧) وخمسة وعشرين زاوية^(٨) فى القاهرة وحدها كانت جميعها دور علم وعبادة. ولذلك أنشئت بداخلها المكتبات، وأوقف الواقفون عليها الكتب

(١) الخوانق أو الخوانك مفردا خانقاه، وهى كلمة فارسية معربة تعلى موضع بيت أو دار، وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف. انظر المقرئى الخطط، ج٢، ص ٤١٤؛ والسلوك ج١، ص ١٨٢، ق ١، ج٤، على مبارك؛ الخطط التوفيقية، ج٦، ص ٤٨؛ راجع سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٦٨.

(٢) الربط مفردا رباط، وهى فى أصل اللغة الخيل المربوطة فى أفنية الدور المغلقة فيها، ثم أطلق على الإقامة فى الثغور وملازماتها ترصدا واستعدادا للغزو والجهاد. ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص ٣٠١-٣٠٣. ثم أطلق فى العصر المملوكى على المؤسسات التى تشبه الملاجئ فى العصر الحديث حيث تكون مأوى لفقراء المسلمين أو عتقاء الواقف أو الجند البطالين، ومن ثم فهو مأوى للصوفية أو لغيرهم من الفقراء، بعكس الخانقاه فهى مأوى للصوفية فقط. أنظر وثيقة بيبرس الجاشنكير، رقم ٢٢، محفظة ٤، دار الوثائق؛ وثيقة محمد بن قلاوون، رقم ٢٥، محفظة ٤، دار الوثائق؛ انظر أيضا محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٢٢٠-٢٢١.

(٣) الزوايا واحدها زاوية وهى ركن الدار، ثم أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التى تتسع لأشخاص قليلين. وكانت تعد لإقامة بعض الصالحين من الصوفية وفقراء العجم والخدم من الحبش والأيتام وغيرهم من أهل الصلاح والورع. راجع المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٣٠-٤٣٣؛ راجع أيضا توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٣٩.

(٤) تسلطن السلطان محمد بن قلاوون ثلاث مرات أولاها كانت من ٦٩٣-٦٩٤هـ / ٢٩٣-١٢٩٤م، والثانية من ٦٩٨-٧٠٨هـ / ١٢٩٨-١٣٠٨م، والثالثة من ٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م.

(٥) شمس الدين الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ص ١١٥.

(٦) المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤١٤-٤٢٧.

(٧) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٧-٤٣٠.

(٨) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٠-٤٣٦.

لأغراض البحث والقراءة والمطالعة. ومن أشهر هذه المكتبات تلك التي كانت ملحقة بالخانقاه البكتيرية التي أنشأها الأمير أبو سعيد بكتمر الساقى الناصرى فى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦ م. ويفهم من كلام المقرئى عن هذه الخانقاه أنه كان ملحقا بها خزانة كتب حيث يقول «وتنافس الناس فى مشيختها إلى أن كان المحن من سنة ست وثمانمائة... تمزق ما كان فيها من الفرش والآلات النحاسية والكتب والريعات... وغير ذلك من الأمتعة والنفائس المملوكية»^(١).

ومنها أيضا خزانة الكتب العربية التي كانت ملحقة بالخانقاه البشتكية^(٢)، حيث أورد السخاوى أن أحمد بن الحسن بن على بن الشهاب الجوهري (ولد ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣ م) كان شيخ الصوفية بالبشتكية مع خزن الكتب العربية بها،^(٣) كما أنشأ برسباى خانقاه بقراءة الممالك، وقد أطلقت عليها وثيقة وقفه بالتربة وألحق بها خزانة كتب^(٤). وهناك أيضا الخانقاه الجمالية التي بناها الأمير مغلطاي الجمالى فى سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨ م^(٥)، وزودها بخزانة كتب. إذ تذكر وثيقة وقفه ما نصه «وأما الخزائن الكتبية التي بإيوانها المذكور فيحفظ فيها ما لعله يكون بهذه الخانقاه من الكتب والريعات الشريفة»^(٦).

كما أنشأ السلطان فرح بن برقوق عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠ م خانقاه نعتت بالخانقاه البرقوقية نسبة إليه، وذلك تنفيذًا لوصية والده السلطان برقوق بالصحراء خارج باب

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢٤. ويفهم من ترجمة المقرئى لبكتمر الساقى أنه كان جماعا للكتب. المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٤٤٤. وجدير بالذكر أن دار الكتب المصرية تحتفظ بريعة بكتمر الساقى، ومن نص الرقنية المثبتة أسفل صفحة العنوان نستدل على أنها كانت ضمن موجودات خزانة الكتب بالخانقاه. انظر الريعة رقم ٧٢ مصاحف، دار الكتب، وانظر أيضا : الملحق الأول، لوحة رقم ٣ بآخر الكتاب.

(٢) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٤١٨-٤١٩.

(٣) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٧٧.

(٤) وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف، وقارن عبد الستار عثمان : الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباى بمدينة القاهرة، ١٩٧٧ م.

(٥) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٤١٨، وانظر ترجمته فى نفس المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٦) وثيقة مغلطاي الجمالى، رقم ٦٦٦ أوقاف.

النصر وكذلك الخانقاه الناصرية التي نسبها فرج بن برقوق لنفسه، وكان لكل منهما خزانة للكتب والمصاحف والربعات الشريفة^(١). وفي نهاية العصر المملوكي أنشأ السلطان الغوري الخانقاه الغورية وألحق بها خزانة كتب قوامها ثمانى كتبيات وخلوة^(٢). إذ تذكر وثيقة الغوري^(٣) عند وصفها للخانقاه ما نصه: «..... وبها ثمانى كتبيات متطابقة وخلوة برسم المصاحف والربعات الشريفة»^(٤).

كما وجد في رباط الآثار الذي عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين خزانة كتب^(٥). ويذكر السخاوى في الضوء اللامع^(٦) أن إبراهيم بن موسى ابن أيوب الفقيه (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) اتخذ زاوية بظاهر القاهرة في المقس^(٧)، وأقام بها يحسن إلى الطلبة ويجمعهم على التفقه... ووقف بها كتباً كثيرة.

وقد شاع أمر هذه المكتبات في العصر المملوكي حتى وصل إلى الخلاوى وه التي كان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٠٣، ج ٩، ص ١٨٩، مج ١؛ راجع أيضاً عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٢٦، حسن عبد الوهاب: خانقاه فرج بن برقوق، ص ٢٨٣، وراجع وثيقة فرج بن برقوق، رقم محفظة ١١.

(٢) للمكتبة دولا ب من الخشب قد يكون داخل في الحائط ويستعمل في حفظ الكتب أصلاً، لذلك أطلق عليه كتبية، وأما الخلوة فهي حجرة. انظر حاشية ٤ ص ١١٤ من الفصل الثانى .

(٣) وثيقة وقف الغوري، رقم ٨٨٣ أوقاف وراجع عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص ٦٠، محمد فهيم: مدرسة السلطان قانصوه الغوري «دراسة أثرية معمارية»، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٠٧.

(٤) كان من بين هذه الربعات الشريفة ربعة مكتوبة بالذهب كانت الخانقاه البيكتمرية، وقيل أن ثمنها بلغ ألف دينار، وقد استولى عليها الغوري ووضعها في خانقائه. انظر ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٦٩، راجع أيضاً حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٩٢، عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص ٦٠.

(٥) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٢٩.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٧) المقس أحد أحياء القاهرة. راجع المقرئى: الخطط ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤.

الأصل فيها الانقطاع للعلم والعبادة^(١). فقد كانت خلوة الكماخي بالقاهرة تضم مكتبة حيث يشير صاحب الضوء اللامع أن أحمد الشهاب الحجازي تزيل القاهرة عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٩م «سكن بخلوة الكماخي... وتكلم في خزانة كتبها»^(٢) ويستفاد من هذا النص وجود مكتبة في الخلوة، واستخدامها كمركز للتعليم.

مكتبات الترب والمدافن والقباب :

وعلاوة على ذلك، اعتاد معظم سلاطين المماليك وأمراءهم بناء قباب بجوار مساجدهم أو مدارسهم لتكون مدافن لهم بعد موتهم. وكانوا يتأنقون في بنائها ويزودونها بجميع المرافق اللازمة لسير الحياة فيها. وكانت كل قبة مزودة بقاعات واسعة تتسع لأعداد كبيرة من الناس العاملين بها والواردين عليها^(٣) كذلك اعتاد بعض السلاطين والأمراء والأعيان على بناء ترب أو مدافن خاصة بهم وبأسرهم يشتمل الواحد منها على أبنية وقاعات مثل القباب. وقصد المنشئون أن تكون هذه القباب والترب والمدافن مكانا لقراءة القرآن الكريم بشكل متصل، وأن تكون في خدمة العلم والدين استجابة للرحمة والدعوات للمنشئ. لذلك كانت تلحق بها مكتبات تشتمل على بعض الكتب الدينية وإن كان بعضها لا يقل حجما أو نشاطا عما سبق من أنواع المكتبات.

ولعل من أشهر هذه القباب والترب، القبة المنصورية التي أنشأها السلطان المنصور قلاوون خلال عامي ٦٨٣ - ٦٨٤هـ (١٢٨٤ - ١٢٨٥م) وخصها بدرس في الحديث وآخر في التفسير وميعاد للتصوف^(٤). وقد ألحق بهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أعمال من الكتب في أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره^(٥)، وكانت «كتبها من

(١) يحيى ساعاتي : الوقف وبنية المكتبة العربية ص ١١٥ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج٢، ص ٢٥٦ .

(٣) المقرئزي : الخطط، ج٢، ص ٣٨٠ .

(٤) وثيقة وقف المنصور قلاوون رقم ١٥، محفظة ٢، ١٠١٠ أوقاف، نشره . محمد محمد أمين؛ أنظر أيضا

المقرئزي : الخطط، ج٢، ص ٣٨٠؛ والسلوك، ج١، ص ٧٢٥، ملحق ٩، ص ٩٩٨؛ ابن تغري بردي :

الدجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٥) المقرئزي : الخطط، ج٢، ص ٣٨٠ .

الختومات الشريفة وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعر^(١). وبلغ من اهتمام المنصور قلاوون بمكتبة قبته أن رتب لخازنها في كل شهر أربعين درهما وعين لها من يقوم بخدمتها^(٢). كما أنشئ الأمير يشبك الداودار (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٦م) قبة أودع فيها الكثير من كتبه وقد وصل إلينا بعضها^(٣). والمعروف أن الرجل كان محبا للعلم والعلماء والفقهاء مشغلا بالأدب وله رغبة عظيمة في اقتناء الكتب^(٤). كذلك أودع المؤرخ الشهير أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى في مدفنه بالصحراء خارج باب النصر - بالقرب من تربة الأشرف إينال - كتبه القيمة وتصانيفه المختلفة ووقفها في خزانة يقيم لها خازنا أمينا ويجعل له سكنا خاصه به^(٥). وقد وصلتنا ربعة شريفة للأمير بكتمر الساقى كان قد وقفها على تربته ضمن مجموعة خزانتها، وشرط أن لا تخرج من التربة ولا تعاد ولا تخرج إلا للاصلاح^(٦). وممن وقف كتبه

(١) المقرئى: السلوك، ج ١، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة. وثيقة وقف المنصور قلاوون، رقم ١٥ محفظة ٢، وثيقة ١٠١٠ أوقاف، نشر محمد محمد أمين؛ انظر أيضا: عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ١٨.

(٣) تحتفظ مكتبة السلطان سليمان القانونى باستانبول بنسخة خطية من كتاب «الوافى بالوفيات»، كان قد وقفها الأمير يشبك الداودار، ثم انتقلت إلى ملك رجلين وقعا على صفحة عنوان الكتاب ما نصه «..... من كتب محمود بن العريى الشافعى ومن كتب يحيى بن حجي الشافعى سنة ٨٧٣». ويفهم من ذلك أن الكتاب قد خرج من خزانة يشبك فى حياته. ولعل سبب ذلك تلك الثورة التى قام بها العوام ونهبوا فيها بيته، وأغلب الظن أن الكتاب خرج من خزائنه مع ما نهب وبيع. انظر: صفحة عنوان كتاب «الوافى بالوفيات»، للصفدى فى: صلاح الدين المنجد: الكتاب العربى المخطوط، ج ١، لوحة رقم ٧٦؛ والصفدى الوافى بالوفيات، ج ١، ص ب من المقدمة؛ وانظر أيضا الملحق الأول لوحة رقم ١٠ بآخر الكتاب.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٤.

(٥) وثيقة وقف ابن تغرى بردى المؤرخ رقم ١٤٧، محفظة ٢٣، دار الوثائق، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ١، ص ٩-٢٨، السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٤، رقم ١١٧٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٣٧.

(٦) انظر نص الوقفية على ربعة الأمير بكتمر الساقى، رقم ٧٢ مصاحف، دار الكتب المصرية، انظر أيضا الملحق الأول، لوحة رقم ٣ بآخر الكتاب.

على التربة ابن أبي أصيبعة، فقد وقف كتبه على مشهد أبي عمرو، ومنها كتاب «تاريخ الأطباء» في عشرة مجلدات وفقاً لرواية العيني^(١).

وشبهه بما سبق تربة السلطان برسبای الدقماقي الظاهري، حيث أوقف عليها خزانة كتب تحتوي على المصاحف والربعات الشريفة^(٢)، «وقبة الناصر محمد بن قلاوون التي أنشأها بجوار مدرسة الناصرية»^(٣)، وقبة الدين بيبرس الجاشنكير^(٤)، وتربة الملك الفاضل التي جدها الأمير جانبك^(٥)، وتربة خشقدم الذي تولى التدريس فيها القاضي زين الدين الأنصاري^(٦)، وقبة السلطان قانصوه الغوري^(٧)، وغيرها كثير.

وعلى الرغم من أن هذه المكتبات كانت أقل شهرة وأقل عدداً واستخدماً من المكتبات الخاصة والمكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس، إلا أن وجودها يدلنا على أن الكتاب أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان في مصر المملوكية، الأمر الذي دفعه إلى إنشاء مكتبة داخل كل مؤسسة أو منشأة، كبيرة كانت أم صغيرة لتلبية احتياجات مجتمعها حتى ولو كان محدوداً.

وهكذا عرفت مصر إبان العصر المماليكي الذي اقتطع من تاريخها أكثر من قرنين ونصف من الزمان، جميع أنواع المكتبات التي تتباهى بها الدول المتقدمة في العصر الحديث، بدءاً بالمكتبات الخاصة ومروراً بمكتبات المساجد والمدارس والبيمارستانات والخوانق والربط والزوايا وانتهاءً بمكتبات التربة والمدافن والقباب. وقد توافرت لها جميع نظم وإجراءات فنية وإدارية، وهو ما سنتناوله تحليلاً وتفصيلاً في الفصول التالية من الكتاب والتي سنبدأها بالحديث عن الموارد المادية والبشرية.

(١) العيني : عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٥، ولعله كتاب «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء»، وقد نُشر هذا الكتاب عدة مرات ربما أهمها طبعة القاهرة عام ١٨٨٣ م.

(٢) وثيقة برسبای، رقم ٨٨٠ أوقاف، رقم ٣٣٩٠ تاريخ، دار الكتب المصرية، نشر أحمد دراج ص ٥٠، ٥١.

(٣) وثيقة محمد بن قلاوون، رقم ٢٥، محفظة ٤، دار الوثائق، المقريري : السلوك ج ١، ص ١٠٤٣.

(٤) وثيقة ركن الدين بيبرس رقم ٢٢ ورقم ٢٣، محفظة ٤، دار الوثائق.

(٥) نور الدين السخاوي : تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم، القاهرة، نشر محمود بيع وحسن قاسم، ١٩٣٧، ص ١٨٨.

(٦) السخاوي : الذيل على رفع الأصر، ص ١٤٧.

(٧) وثيقة قانصوه الغوري، رقم ٨٨٣ أوقاف.

الفصل الثانى

الموارد المادية والبشرية فى المكتبات المملوكية

١ - المبنى والتجهيزات :

- الموقع ومواصفاته - الأثاث والأدوات الخاصة بحفظ الكتب .
- صناديق الكتب ورفوفها - كراسى الكتب - أدوات الكتابة
- أدوات إعداد الكتب وتسجيلها وصيانتها .

٢ - الموارد المالية ووجوه الإنفاق :

- إيرادات المكتبة المملوكية - ريع الوقف - الهبات والتبرعات
- وجوه الإنفاق - مرتبات العاملين بالمكتبات - صيانة
- وترميم المكتبة ومجموعاتها وتجهيزاتها وأدواتها .

٣ - الموارد البشرية :

- فئاتهم وواجباتهم ومؤهلاتهم - خازن الكتب أو أمين المكتبة -
- المناولون - الوراقون .

٤ - المجموعات المكتبية :

- أحجام مقتنيات المكتبات - أنواعها موضوعاتها .

أوضحنا في الفصل الأول مدى اهتمام المصريين في العصر المملوكي، حكاما ومحكومين، بالكتب والمكتبات، وحرصهم على توافرها داخل كل منشأة أو مؤسسة تعليمية أو تربوية أو صوفية. فكانت هناك المكتبات الخاصة والمكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس والبيمارستانات ومؤسسات الصوفية، حتى وصل الأمر إلى إيجاد مكتبات داخل القرب، والمقابر. فعمت الخدمة المكتبية ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها، والحقيقة أن وجود الخدمة المكتبية - في أي زمان ومكان - يتطلب توافر عدة مقومات أساسية هي: المبنى والتجهيزات، والمواد المكتبية، والقوى البشرية المؤهلة تأهيلا مناسباً لتقديم هذه الخدمة، فضلا عن توافر الموارد العالية التي تضمن للمكتبة استمرارية أداء مهامها، وأن أي خلل في أي من هذه المقومات يؤدي بالتبعية إلى فشل المقومات الأخرى في تحقيق مهامها. وسنحاول في هذا الفصل تسليط الضوء على هذه المقومات والتعرف على مدى توافرها في المكتبات المصرية إبان العصر المماليكي.

١ - المبنى والتجهيزات :

من المعروف أن مبنى المكتبة هو المرتكز الذي تعتمد عليه في تقديم خدماتها. فلا توجد خدمة حقيقية بدون مبنى مناسب. ويركز خبراء المكتبات^(١) على ضرورة توافر عدد من المواصفات التي تجعل من مبنى المكتبة مكانا مناسباً لأداء خدماتها هي :

أولا - مناسبة الموقع ، بحيث يحتل موقع المكتبة مكاناً متوسطاً بالنسبة للمؤسسة الأم

(١) انظر على سبيل المثال : المراجع التالية:

- شعبان عبد العزيز خليفة : مباني المكتبات المدرسية، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، مج ٢، ع ٢٤ (ابريل ١٩٨٢)، ص ٢٧ - ٤٥.

- مدحت كاظم وحسن عبد الشافي : الخدمة المكتبية المدرسية، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧، ص ٢٨ - ٤١.

- يسرى مصطفى عناني : دراسة عن مباني المكتبات الجامعية، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الهندسة، جامعة الاسكندرية ١٩٨٨ م.

- Matchlf, K.D, Planning Academic and Research Library Building, N.Y. ,1984.

يسهل الوصول إليه ويتوافر فيه الهدوء والبعد عن الضوضاء بما يسمح للمطالعين والمستفيدين بالتركيز في القراءة والبحث.

ثانيا - جودة التهوية والإضاءة الطبيعية لتوفير جو صحي يتيح للمستفيد استخدام المكتبة دون تعب أو مضايقات.

ثالثا : تخصيص مساحة تتناسب مع مقتنيات المكتبة بحيث تستوعب المقتنيات والعالمين والمستفيدين، فكلما كانت مساحة المكتبة كبيرة كانت في وضع يمكنها من أداء وظيفتها على أحسن وجه.

والحقيقة أن مصادر العصر المملوكي ووثائقه تعج بالنصوص والمعلومات التي تؤكد حرص منشئي المكتبات المملوكية على توفير مثل هذه المواصفات، وذلك قناعة منهم بأهمية الدور الذي تلعبه كمؤسسات علمية ثقافية وتربوية.

وكما رأينا في الفصل السابق فإن جميع المكتبات كانت تابعة لمؤسسات أخرى مثل المدارس والمساجد والربط والخوانق والترب وغيرها. ومن ثم لم يكن للمكتبات مبنى مستقل. بل كانت الكتب توضع في أبنية ملحقة بالمؤسسات أو الجهة التي تتبعها. وكانت المكتبة تحتل مركزا رئيسيا باعتبارها جزءا من المؤسسة. فنجد على سبيل المثال أن المدرسة في العصر المملوكي كانت عبارة عن صحن مكشوف أو مغطى وحوله أربعة إيوانات متعامدة ذات شكل صليبي^(١) أكبرهم إيوان القبلة عادة. وقد تقارب

(١) اختلفت الآراء حول الأصول المعمارية للشكل الصليبي الذي اتخذته المدارس في عصرى السلاطين الأيوبيين والمماليك. وظهرت على الأقل ثلاثة نظريات تنسب الشكل المعماري إلى نظام معين هي :

(أ) نظرية الإيوانات المتعامدة ذات الشكل الصليبي : ويرى أصحابها أن المدرسة اشتقت هذا النظام المعماري من الكنائس البيزنطية ذات الشكل الصليبي في سوريا، وأن المدارس اتخذت هذا الشكل لأنه يوافق الفرض الرئيسي من المدرسة وهو تدريس المذاهب الأربعة. أنظر أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٧.

(ب) النظرية الفارسية ويرى أصحابها أن الشكل الصليبي للمدرسة ذات الإيوانات الأربع مستمد من النظم الفارسي، لأن نظام المساكن في مصر كان مقتبسا من أنظمة القصور الساسانية، وأن نظام المدارس في مصر اقتبس بالتالي من نظام المساكن المصرية التي تطورت القاعة فيها وأصبحت إيوانا للمدرسة ملائما لبیت الصلاة

وصالها للتدريس والصلاة كذلك أنظر:

التصميم المعماري لكل من المسجد والمدرسة والخانقاه حتى أصبح من الصعب تمييز بناء المسجد عن المدرسة والخانقاه ولكن ما يميز المدرسة أنه روعي في تصميمها الأغراض التعليمية والتربوية، وإنشاء المساكن للطلاب والمدرسين وغيرهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة، وبعض الملحقات من القاعات والحواصل وسبيل الماء ومكتب تعليم الأيتام، والمكتبة أو خزانة الكتب على حد مصطلح الوثائق المملوكية^(١). وكانت المكتبة تحتل مكانا خاصا هو إحدى خزانات أو قاعات أو حواصل^(٢) المدرسة المملوكية في مكان متوسط ومناسب من البناء كله بين الإيوانات الأربع التي كانت بها مساكن الطلبة ليسهل الوصول إليها. إذ نقول وثيقة السلطان برسباي الدقماقي الخاصة بالمدرسة الأشرفية

= - Creswell, Muslim Architecture of Egypt, Vol. 2, pp. 120

جـ- نظرية القاعة المصرية : وتعتمد هذه النظرية على أن نظام المدرسة في مصر مأخوذ من نظام المساكن المصرية (القاعة والدقاعة) التي تتكون من صحن يحيط به إيوانان، وواضح أن هذه النظرية تتفق إلى حد كبير مع النظرية الفارسية.

أنظر : أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص ١٣٧، ١٣٩،

- Creswell, op cit. , Vol. I, pp. 164 I63.

وقد قام الدكتور أحمد فكري بدراسة ومناقشة هذه النظريات ثم خرج بنتيجة تغاير هذه النظريات إذ يرى أن المدرسة منشأة دينية لها شروط خاصة وأن تعريفها مستمد من البيوت المخصصة فيها لسكنى الطلبة والمدرسين. وعلى ذلك قدم تعريفه للمدرسة بأنها هي المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكن فريق مختار من الفقهاء والطلاب ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ووفرت فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة واجريت عليهم الجرايات الوافرة.

راجع أحمد فكري : المرجع السابق ج ٢، ص ١٦٣، ١٧٣ - ١٧٥، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٢.

(١) أنظر : الوثائق المملوكية المثبت أسماؤها في فاتحة المصادر آخر الرسالة؛ وأيضا المقرئى : السلوك، ج ١ ص ١٠٤٥ راجع كذلك عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغورى، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة، ١٩٥٤، مج ٢، ص ١٤٩؛ زكى محمد حسن : فنون الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨، ص ٧١، ٧٣؛ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٦١٦ - ١٦٠٧؛ حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد، ص ١٤؛ عبد الغنى عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ص ١٧٩.

(٢) الحواصل مفردا حاصل وهو حجرة حبيس أو خلوة أو خزانة وكانت الحواصل تستخدم في العصر المملوكى فى عدة أغراض كمخازن للمؤن والبضائع وكخلوات للصوفية وكخزانات للكتب. راجع : وثيقة قانى باى الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف، راجع سامى عبد الحليم إمام : آثار قانى باى قرا الرماح، ص ٣٦٨.

بالحريرين ما نصه «... والقاعة التي بالدھليز الكبير جعلها محلاً لخزانة الكتب الوقف التي وقفها على طلبة العلم بالجامع المعين أعلاه، (١) كما ورد في وثيقة السلطان فرج بن برقوق ما نصه،... بالجانب الشرقي باب يدخل منه إلى بيت بمنافع وحقوق وهو معد لوضع المصاحف والربعات الشريفة وكتب علم...، (٢) أما وثيقة وقف الأمير عبد الغنى الفخرى الخاصة بمدرسته فقد ذكرت ما نصه «... ويصدره (أى الدھليز الكبير) يدخل منه إلى خزانة برسم خزن الكتب، والإيوان الغربى يشتمل على خزانتين برسم الكتب وغيرها....، (٣).

وغالباً ما كانت خزانة الكتب فى إيوان القبلة، فقد جاء فى وثيقة السلطان حسن بن قلاوون الخاصة ما نصه «... والإيوان القبلى منه جعله أيضاً لأقامة الخطبة... وجعل البيت الذى على يمنة المصلى فيه مرصداً للخطيب على العادة فيه، وجعل الخزانة المقابلة له لخزن ما عساه أن يكون بالمكان المذكور من المصاحف والربعات الشريفة والكتب على جارى العادة فى ذلك، (٤) كما ورد فى وثيقة الأمير صرغتمش الخاصة بالمدرسة الصرغتمشية ما نصه «.... الباب الثالث يجاور الباب الثانى المذكور من الجهة القبلىة عليه زوجاً أبواب يدخل منه إلى بيت يعرف بخزانة الكتب، (٥) وقد نصت وثيقة الأمير تغرى بردى على ذلك أيضاً حيث جاء فيها «... وأما الخلوة التى بالإيوان القبلى على يسرة المصلى، فإن الواقف المشار إليه جعلها معدة لخزن الكتب على العادة فى مثل

-
- (١) وثيقة برسبای، رقم ٨٨٠ أوقاف، وانظر أيضاً محمد عبد السار عثمان: الآثار المعمارية، ص ٨٦ - ٨٩.
- (٢) وثيقة السلطان فرج بن برقوق، رقم ٦، محفظة ١١، دار الوثائق (المحكمة الشرعية)، وانظر أيضاً صالح لمعى مصطفى: الوثائق والعمارة. بيروت، دار النهضة العربية (د. ت)، ص ٢٥.
- (٣) وثيقة الأمير عبد الغنى الفخرى، رقم ٧٢، محفظة ١٢، دار الوثائق (المحكمة الشرعية)، وانظر أيضاً محمد محمد الكحلأوى.. مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى، دراسة معمارية - رسالة ماجستير لم تنشر بعد - جامعة القاهرة، ١٩٨١ م.
- (٤) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون، رقم ٤٠، محفظة ٦، دار الوثائق، نشر د. محمد محمد أمين، كملحق لكتاب تذكرة النبیه، ج ٣، ص ٣٨٨.
- (٥) وثيقة الأمير صرغتمش، ٣٣٩٥ أوقاف، نشر د. عبد اللطيف إبراهيم، انصان جديان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ٢٧، ع ١ - ٢، ص ١٤٣.

ذلك، (١). أما وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة (٢) فإنها تذكر ما نصه «... وأما الخزانة اللطيفة التى ببصرة محراب المسجد المذكورة المعدة لخزن الكتب فجعلها مقرا لما سيوضع فيها من الختمات والربعات وكتب الحديث النبوى والعلم الشريف المنسوب إيقاف ذلك لمولانا المقر الجمالى...» (٣). كذلك تذكر وثيقة قانى باى الرماح أمير أخور كبير (٤) الخاصة بمدرسته ما نصه «... الخلة القبلية بالإيوان الكبير الذى بالمحراب معدة لخزن كتب الوقف التى وقفها الواقف المشار إليه. وجعل مقرها المدرسة المذكور» (٥).

وعلى الرغم من أن بعض المدارس قد اتخذت أوامير أخرى كمقار لمكتباتها، إلا إنها كانت أيضا فى مكان متوسط من المدرسة. فمكتبة مدرسة القاضى يحيى زين الدين كانت بالإيوان الشمالى الغربى - البحرى - حيث ذكرت وثيقة وقفه ما نصه «... الإيوان البحرى وبه أربعة أبواب متقابلة... والرابع يقابله عليه زوجا باب يدخل منه إلى خزانة الكتب» (٦)، وكذلك مكتبة مدرسة قايتباى بالصحراء حيث ذكرت الوثيقة ما نصه «فيتوصل إلى خزانة الكتب عن طريق فتحة فى باب السدلة» (٧) اليسرى من الإيوان الغربى، وكانت خزانة

(١) وثيقة نغرى بردى، رقم ٩٨، محفظة ١٦، دار الوثائق.

(٢) ناظر الخواص الشريفة من وظائف النظار فى دولة المماليك ويقال له ناظر الخاص، وهى من الوظائف الديوانية الجليلة التى كان يشغلها مدنيون. وكان من يشتغل هذه الوظيفة عليه التحدث فيما هو خاص بهال سلطان من إقطاع أو نصيبه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من الأموال العامة. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨، ٤٥؛ أنظر أيضا حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، ج ٣، ص ٤٣٨.

(٣) وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة، محكمة ١٠٥، حفظة ١٦، دار الوثائق.

(٤) أمير أخور كبير هو رئيس أو كبير الأمير أخورية، وكان يشغل هذه الوظيفة أحد الأمراء الكبار وكانت من أكبر الوظائف العسكرية فى البلاط المملوكى. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، ج ١، ص ١٨٣. وفئة الأمير أخورية هى الفئة المتولية أمر الإصطبلات السلطانية وما فيها من الخيل والبغال والإبل. راجع: ابن نغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢، المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٤٣٨.

(٥) وثيقة قانى باى الرماح أمير أخور كبير، أوقاف رقم ١٠١٩، نشر سامى عبد الحليم إمام: آثار الأمير قانى باى فرا الرماح بالقاهرة، دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م.

(٦) وثيقة القاضى يحيى زين الدين، رقم ١١٠، محفظة ١٧، دار الوثائق.

(٧) السدلة هى الستارة المائلة. المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٤٤٠، ويبدو أن المقصود بها فى الوثيقة هو البوابة اليسرى من الإيوان الغربى.

كتب المدرسة المحمودية تتوسط الإيوانين الجنوبي الشرقي والشمالي الغربي^(١)، وتقع بالجهة الجنوبية لدور قاعة المدرسة^(٢). وأما مكتبة المدرسة الاستادارية التي بناها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فكانت تعلو السباط^(٣) الذي يربط بين المدرسة وحوض الدواب كما ورد في وثيقة وقفه أنه رتب «..... خازنا لما بالخانقاه المذكورة من الربعات الشريفة والمصاحف وكتب العلم الشريف وما لعله يتحصل بها من نفائس الأشياء على العادة في مثل ذلك على أن يتسلم المصاحف والربعات والكتب الجارية الوقف ويشهد عليه بتسلمها ويقرأها بالإيوان العالي على السباط المذكور أعلاه^(٤)».

وكانت خزانة الكتب تستخدم للحفظ فقط في الوقت الذي اتخذت فيه الإيوانات الأربع بالمدرسة مجالاً واسعاً للعمل المكتبي من قراءة ونسخ وبحث، لذلك كانت توضع خزانة الكتب في إيوان القبلة أو في مكان متوسط من المدرسة حتى تكون كتبها في متناول جميع المستفيدين من علماء وطلاب دارسين في مختلف الإيوانات. كما أن إيوان القبلة قريب من مساكن الطلبة بالمدرسة الأمر الذي يجعلها سهلة الوصول إليها^(٥) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المكتبة ينبغي أن يتوافر فيها قسط من الهدوء والبعد عن الضوضاء بما يسمح للمطالعين والمستفيدين بالتركيز والقراءة. لذلك فإن أنسب مكان لها هو إيوان القبلة الذي بالمحراب حيث يرتفع عادة عن أرضية الشارع ويعدّه في الوقت نفسه عن دورات المياه والرطوبة والمقابر والمدافن^(٦).

(١) وثيقة قايتباي، رقم ١٦٨ محفظة ٢٥، نشرها الدكتور عبد اللطيف إبراهيم في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد ١٩، ج ٢ (ديسمبر ١٩٥٧م).

(٢) على أحمد إبراهيم الطائش: العنصر الجركسية الباقية بشارع الخيامية والسروجية. رسالة دكتوراه لم تنشر بعد - جامعة القاهرة، ١٩٨٩، ص ٤٠٨.

(٣) السباط أو الساباط هي السقيفة بين حائطين أو بين دارين ومن تحتها طريق نافذ، وجمعها سوابيط أو ساباطات. انظر: ابن منظور: لسان العرب مج ٢ ص ٨٧.

(٤) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ١٠٦ محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر ودراسة وتحقيق محمد عبد الستار عثمان ص ١٦٣، وأنظر أيضا: المقرئ: الخطوط، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ٤٠، ٤١، ٤٢.

(٦) وثيقة السلطان برسباي، رقم ٨٨٠ أوقاف، أنظر أيضا محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباي لمدينة القاهرة، ص ١٣٥، على أحمد الطائش: العنصر الجركسية الباقية بشارع الخيامية والسروجية ص ١٦٢.

وكان حجم مساحة خزائن الكتب يضيق أو يتسع حسب حجم مجموعة الكتب وأهميتها والمؤسسة التابعة لها. وقد لا يتعدى حجم المكان غرفة صغيرة. أما إذا ضاقت خزانة الكتب بما تحتويه من مؤلفات ومصاحف وريعات شريفة نتيجة النمو في حجم المجموعة المكتبية، كانت تستخدم خزانة أخرى قريبة منها بنفس المؤسسة^(١). وقد يصل الأمر إلى أن تكون المكتبة مجرد دولا ب واحد أو أكثر. وكانت تستخدم الحوائط في ذلك عن طريق عمل دخلات فيها كدواليب لحفظ الكتب، لذلك أطلقت عليها الوثائق لفظ كتبيات^(٢).

وقد انتشرت هذه الكتبيات في العصر المماليكي انتشارا واسعا. فأغلب المكتبات الخاصة ومكتبات الترب والخلوى كانت عبارة عن كتبيات، وكذلك بعض مكتبات المساجد والمدارس والخانقوات. ولعل ذلك ما يفسر لنا مصطلح خزانة، إذ يقال «جعل بها خزانتي للكتب». ويذكر ابن تغرى بردى أن الشيخ ناصر الدين شافع الكنانى العسقلانى (ت ٧٣٣هـ / ١٤٣٢م) كان جماعا للكتب خلف ثمانى عشرة خزانة نفائس أدبية وغيرها^(٣). وأما لفظ الكتبيات فقد ورد صراحة في معظم الوثائق المملوكية إذ تقول وثيقة السلطان برسباى الدقماقى «... وأما دور القاعة فمفروشة بالرخام وبها خمسة أبواب .. والرابع والخامس كتبيتان»^(٤) كما ورد في وثيقة حسن بن قلاوون ما نصه «... وباب يدخل إلى مكان بصدرة محراب وخزانتان كتبيتان، وعلى يسرة السائر فيه بابان يدخل كل منهما إلى بيت به شباك مطل عيل الطريق يقابلها خزانتان كتبيتان»^(٥). أما وثيقة الأمير آخور كبير قرقاجا الحسنى فتذكر ما نصه «وبالإيوان المذكور أى الإيوان القبلى كتبية»^(٦) كما نصت وثيقة الغورى على ذلك أيضا، فتذكر في معرض وصفها للخانقاه

(١) وثيقة السلطان برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف؛ وثيقة الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٢) وثيقة الأمير آخور كبير قرقاجا الحسنى دراسة وتحقيق ونشر عبد اللطيف إبراهيم على «مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة»، مج ١٨، ديسمبر ١٩٥٦م ص ٢٢٦ - تحقيق ٤، رقم ١٨، وما به من مصادر. وجدير بالذكر أن هذا الاستغلال للحوائط يشاهد الآن بصورة واسعة الانتشار في العمارة الحديثة.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٨٥.

(٤) وثيقة السلطان برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف.

(٥) وثيقة السلطان حسن، رقم ٨٨١ أوقاف.

(٦) وثيقة الأمير آخور كبير قرقاجا الحسنى - نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ٢٠٠.

الغورية مانصه وبها ثمانى كتبيات متطابقة وخلوة برسم المصحف والربعات الشريفة^(١).

وقد حرص منشئو المكتبات فى العصر المماليكى على تزويد مكتباتهم بوسائل التهوية ذلك أن توافر الهواء النقى الذى يتجدد باستمرار يساعد على توفير جو صحى يتح للمستفيدين استخدام المكتبة ومصادرها فى جو منعش وبدون مضايقات أو إحساس بكثافة الهواء. كذلك الحال بالنسبة للإضاءة الطبيعية، فهى تتيح القراءة والنسخ فى جو طبيعى لا يرهق البصر. لذلك اشتمل التصميم المعماري للمؤسسات المملوكية التى تشتمل على مكتبات على الشابييك والبازهنجات^(٢)، وغيرها من وسائل الإضاءة.

وبالإضافة إلى ذلك، كانت دور القاعة^(٣) تمد المؤسسة والخانقاه بالهواء صيفا والشمس شتاء، وتشد عليها شبكة من النحاس لمنع الطيور وما عساه يسقط لتوفير أكبر قسط من الراحة وعدم الإزعاج للمتريدين وكذلك كانت الشابييك ذات المصاريح الخشبية تستخدم فى التهوية والإضاءة عند الحاجة إليها، فقد نصت إحدى الوثائق المملوكية على ذلك «..... شابييك برسم النور والهوى»^(٤). وكانت الشابييك الشمالية تسمح بالنسيم وأما الشرقية

(١) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٢) البازهنجات وأحدثها بأذهنج وقد ورد اللفظ بالدال فى بعض الوثائق وهى كلمة فارسية معناها منفذ التهوية، ويوجد البازذهنج فوق أسطح العمارات فهو أشبه «بالخشبة»، ويستخدم فى التهوية والإضاءة، والبازهنجات لها أشكال مختلفة بحيث تسمح بالشمس شتاء والنسيم صيفا، وقد توجد على فتحة البازذهنج شبكة من النحاس. راجع عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسى، دراسة وتحقيق ونشر، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، مج ١٨، ج ٢ (ديسمبر ١٩٥٦م) ص ٢٢٨، تحقيق ٢٢، وراجع أيضا: وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف؛ وثيقة طومان باى، رقم ٨٨٢ أوقاف؛ وثيقة خاير بك، رقم ٢٥٦ محكمة، وثيقة قايتباى، رقم ٨٨٥ أوقاف؛ وثيقة قلاوون، رقم ١٠١٠ أوقاف؛ المقرئى: الخطط: ج ٢ ص ٢٢٢، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٦٧، ج ٢، ص ٧٦، ج ٢.

(٣) الدور قاعة هى المكان الذى يقع بين إيوانين متقابلين فى قاعات البيت الإسلامى، وهى مسقفة وهى فى الغالب. وإما سماوية بدون سقف، كما كان يطلق لفظ الدور قاعة على الصحن الأوسط بالمساجد والمدارس ذات التخطيط المتعامد (الشكل الصليبي) راجع: وثيقة الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف؛ وثيقة قانى باى قرا الرماح، رقم ١٠١٩ أوقاف؛ راجع أيضا سامى أحمد عبد الحليم إمام: آثار الأمير قانى باى قرا الرماح بالقاهرة، ص ٣٢٤.

(٤) وثيقة الجمالى يوسف بن تغرى بردى، رقم ٣١٢، محفظة ٤٦، دار الوثائق.

والجنوبية فكانت تسمح بالشمس والدفء^(١). وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى تقدم التصميم المعماري في مصر آنذاك.

وإذا كانت الكتب توضع في خزانة لا نجد فيها عادة إلا شبكا حديديا صغيرا في أعلاها، فذلك حتى تكون بعيدة عن أشعة الشمس المباشرة فلا تضر بالكتب وجلودها فإن عملية القراءة والنسخ والدراسة كانت تتم في الإيوانات والدور قاعة نهارا في الأوقات المحددة لذلك في وثائق الوقف^(٢)، أما في الليل فكانت تتم القراءة في بيوت الطلبة الملحقة بالمدرسة^(٣). ولذلك يرد في كثير من الوثائق^(٤) ذكر القناديل والثريات^(٥) وما تحتاجه من زيت الزيتون الطبيعي وغيره أو موكبيات من الشمع المسبوك على القطن المفتول في شمعدان من النحاس المكفت لأجل الإضاءة^(٦).

وإذا كانت مكاتب العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر قد اشتملت على قاعات وحجرات خاصة بالعاملين وأخرى بالمجموعات وثالثة خاصة بالرواد والمستفيدين، هذا فضلا عن المرافق التي أعدت لخدمة المقيمين منهم بالمكتبة، فذلك لأن هذه المكتبات كان لها مبان خاصة كدار العلم الفاطمية، وبيت الحكمة العباسية، ودار العلم الطرابلسية. لكن الوضع هنا يختلف، فالمكتبات المملوكية كانت ملحقة بمؤسسات أخرى تقوم على خدمة روادها. ومع ذلك فقد أفادت هذه المكتبات المملوكية من مرافق وملاحق تلك

(١) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ٤٤.

(٢) وثيقة الأمير صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف؛ وثيقة الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، رقم ١٦، محفظة ١٧، دار الوثائق.

(٣) كان من مكملات المدرسة في العصر المماليكي إنشاء بيوت خاصة للطلبة ملحقة ببناء المدرسة، وهي تشبه المدن الجامعية اليوم مع الفارق الكبير في وفرة الخدمات التي تقدمها للطلبة الساكنين بها بتوفير جو من الهدوء والراحة والنظام. راجع: المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٧١، ٣٧٩؛ النباهين: نظام التربية الإسلامية، ج ٣١٦.

(٤) وثيقة حسام لاجين، رقم ١٧ محفظة ٣، المحكمة الشرعية؛ وثيقة محمد بن قلاوون رقم ٢٥، محفظة ٤ (محكمة)، نشر محمد أمين؛ وثيقة بيبرس الجاشنكير رقم ٢٣، محفظة ٤٤؛ وثيقة تغرى بردى، رقم ٩٨، محفظة ١٦؛ وثيقة الجمالي يوسف، رقم ١٠٥، محفظة ١٦؛ وثيقة عبد الرحمن الزواوي، رقم ٢٥٣، محفظة ٤٠، نشر عبد اللطيف إبراهيم؛ وثيقة قاني باي الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف؛ وثيقة المؤيد شيخ، ١٩٣٨ أوقاف.

(٥) الثريات هي الكواكب وواحدتها ثريا وقد سميت كذلك لكثرة نورها، وهي تطلق على إحدى أدوات الإضاءة مثل القناديل: انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٥٧.

(٦) عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤٤.

المؤسسات فى أداء رسالتها. فبالإضافة إلى خزانة الكتب التى كانت تستخدم فى الحفظ فقط، كانت تستخدم إيوانات المدارس والخانقاوات والمساجد وغيرها من المؤسسات تستخدم فى القراءة والبحث والاطلاع والمراجعة، فضلا عن العمليات المكتبية الأخرى^(١).

وقد خصصت بعض المكتبات حجرات لإقامة العاملين بها حيث أورد السخاوى فى الجواهر والدرر أن ابن حجر العسقلانى الذى تولى خزانة المدرسة المحمودية كان يقيم بها^(٢) وكانت حجراته تقع بالدور الأرضى جنوب غرب الدور قاعة^(٣). هذا وقد أفادت بعض المكتبات من تبعيتها لمؤسسات أخرى من التسهيلات التى كانت تتيحها هذه المؤسسات كالمطبخ والمزلة^(٤) والنظافة والحراسة، فضلا عن الرعاية الطبية وإقامة الرواد الأجانب أو الغرباء وبعض النساخ الذين تفرغوا أو انقطعوا للخدمة بالخزانة^(٥).

فإذا تركنا المبنى وما يتصل به من موقع مناسب لأداء الخدمة وجودة التهوية والإضاءة وانتقلنا إلى التجهيزات الخاصة بالمكتبات نجد أن الممالك قد اهتموا بالمبنى وملحقاته كما اهتموا كذلك بالأثاث والأدوات الخاصة بحفظ المجموعات وصيانتها وتسهيل استخدامها وتداولها، وذلك حتى تكون المكتبات مهياة تماما لاستقبال الرواد والعمل على راحتهم، فضلا عن راحة العاملين بها، وتشمل هذه التجهيزات البسط والحصر والفرش والستور والصناديق والرفوف المستخدمة فى حفظ الكتب وغيرها من الموارد وكراسى الكتب، والأدوات الكتابية كالأوراق والأقلام والأحبار، والأدوات المستخدمة فى إعداد المجموعات وتسجيلها وصيانتها.

(١) انظر الفصل الثالث الخاص بالعمليات الفنية من تزويد وفهرسة وتصنيف جرد وصيانة.

(٢) السخاوى: الجواهر والدرر فى تراجم ابن حجر، مخط، ورقة ١٣٨ ظهر.

(٣) على أحمد الطائش: العمان الجركسية الباقية بشارع الخيامية والسروجية ص ١٦٥.

(٤) المزلة هى بيت الأزار- جمع زير- أو المزيرة، والمزملاتى هو الرجل الذى يقوم بتسبيل الماء فى المزلة أو فى السبيل. راجع وثيقة قانى باى الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف، وثيقة فرج بن برقوق رقم ٦٦ محفظة ١١، وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة، رقم ١٠٥ محفظة ٦٦، وثيقة السلطان الغورى، ٨٨٣ أوقاف، راجع ايضا: عبد اللطيف ابراهيم: نسان جديان من وثيقة الأمير صرغتمش، ص ١٥١، تحقيق ٣٤.

(٥) وثيقة حسام لاجين، رقم ١٧، محفظة ٣، وثيقة ببيرس الجاشنكير، رقم ٢٣، محفظة ٤، وثيقة تغرى بردى رقم ٩٨. محفظة ١٦، وثيقة السيفى مغطاى، رقم ٦٨، محفظة ١١، دار الوثائق (المحكمة الشرعية).

ينص العديد من الوثائق^(١) على أن إيوانات المدارس والمساجد - التي كانت بمثابة قاعات للقراءة والمطالعة والنسخ والمعارضة والدراسة - كانت تفرش أرضيتها بالبسط أو الحصر^(٢) والسجاجيد. إذ تقول وثيقة الأمير صرغتمش ما نصه «... ويجعل في بعض ذلك ما يكون بالمدرسة المذكورة حاصلا من القناديل والزيت والحصر والبسط وذلك ليمنع الداخل إليها من المشى على الرخام بنعله...»^(٣).

ويذكر المقرئ أن المدرسة الإقبغاوية قد فرشت بالبسط الذي بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة^(٤). وعلى الرغم من افتراض الأرض باستخدام السجاجيد أو البسط أو الحصر أو المراتب وغيرها، والجلوس عليها فيما يعرف بالجلسة الشرقية أو العربية كان أمرا شائعا في المؤسسات التعليمية والتربوية إبان العصر المماليكي، إلا أنه قد وجد في بعض المكتبات المملوكية كراسي للجلوس عليها حيث تنص وثيقة الإيشادى على أنه من جملة ما أوقفه على مكتبة الجامع الأزهر ثلاثة كراسي من الخشب إحدها مذهب والثاني مخرم والثالث سادج^(٥).

(١) وثيقة فاني باى الرماح، رقم ١٠١٩ أوقاف؛ وثيقة ببيرس الجاشنكير، محكمة ٢٣، محفظة؛ وثيقة الجمالى يوسف محكمة ١٠٥ محفظة ١٦، وثيقة الامير صرغتمش، رقم ٣١٩٥ أوقاف؛ وثيقة حسن بن قلاوون، ٨٨١ أوقاف؛ وثيقة الغورى، ٨٨٣ أوقاف؛ وثيقة بدر الدين الوفائى، محكمة ٣٢١، محفظة ٣٥.

(٢) هناك أنواع كثيرة من الحصر، فمنها الأبيض المنسوج على خيط الكتاب، وهو من أحسن الأنواع. وهناك أيضا القبطبانى والسماوى ولكنهما أقل جودة من الحصر العبدانى الذى كان يصنع بالإسكندرية وكان الأكثر استخداما فى المكتبات المملوكية. انظر: حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ١٩٣ حاشية ٤؛ عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير أخور كبير. ص ٢٤٤ تحقيق ٨٢؛ المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٤٧١ حاشية ٦، ص ٤٩٧ حاشية ٣.

(٣) وثيقة صرغتمش أوقاف رقم ٣١٩٥ نشر د. عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٤٥ - ١٤٦، حيث كانت تفرش أرضية المدارس بالرخام الثمين المختلف الأنواع والألوان. انظر: عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق فى خدمة الآثار. ص ٢٣، حاشية ١ وما بها من مصادر.

(٤) المقرئى: الخطط. ج ٢، ص ٣٨٤.

(٥) وثيقة الإيشادى: نشر عبد اللطيف إبراهيم ص ٤٥.

هذا وقد بحثنا عن تفسير لمعنى كلمة سادج فى القواميس العربية فلم نهتدى إلى شىء، ويبدو أن المقصود بها فى هذا السياق هو نوع من أنواع الكراسي عرف فى مصر إبان العصر الإسلامى الوسيط.

وكان الفراشون بالمدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية يقومون بتعليق الستائر أو السحابة من القماش السميك عيل دور قاعة المؤسسة في الصيف وأوقاف الحرارة الشديدة أو الغبار وغيره، ويرفعونها في الشتاء لكي تصل أشعه الشمس فتبعث الدفء في أنحاء المؤسسة بما في ذلك مكتبها بطبيعة الحال^(١).

وفضلا عن الكتبيات والدوايب التي أسلفنا إليها، استخدمت المكتبات المملوكية الصناديق والرفوف الخشبية في حفظ الكتب وخبزنها ونقلها من مكان لآخر. وكانت صناديق الكتب هذه من الخشب أو الخشب المصنوع بالنحاس والمكفت بالذهب والفضة، وكانت بعض هذه الصناديق الخاصة بالمصاحف والربعات الشريفة تقسم من الداخل لوضع أجزاء الربعة فيها. وكثيرا ما كان يكتب اسم السلطان أو الأمير وألقابه عيل جوانب الصندوق الخشبي بالألوان المختلفة وخاصة الذهب^(٢).

ويحتفظ المتحف الإسلامي بالقاهرة بعدد غير قليل من صناديق الكتب التي كانت تستخدم في المكتبات إبان العصر المملوكي. نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

- صندوق مصحف مصنف بالنحاس الأصفر، مزين بكتابات ونقوش قرآنية ومكفت بالذهب والفضة (رقم ١٨٣).

- صندوق مصحف خشب (رقم ١٤٣٦) برسم مصحف الغوري، وآخر مغلف بالجلاد رقم ٤٩١، وكانا يستخدمان في مدرسته.

- صندوق مصحف من الخشب السداسي الشكل رقم ٢٥٢، وهو يرسم مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان بن حسين.

- صندوق مصحف برقم ١٤٠٩٥ باسم السلطان قايتباي كان يستخدم في مدرسة بالصحراء.

- صندوق مصحف مكسو بالجلاد رقم ٢٧٩٨.

(١) وثيقة الغوري، رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر أيضا: عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص ٤٤.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص ٦٠. ويورد المقرئ ذكر سوق يدعى سوق الصناديقين، وكانت تصنع فيه رتباع الصناديق وخزائن الكتب الخشبية. راجع المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ١٠٢.

وقد استخدمت في بعض المكتبات رفوف خشبية حائطية كانت تثبت في جدارن البيت أو الحجرة المتخذة خزانة لوضع الكتب عليها بعيدا عن الأرض كي لا تتلدى أو تبلى كما يقول ابن جماعة^(١)، ولتيسير استرجاع أيا منها في أقل وقت وبأيسر الطرق وذلك بواسطة الخازن أو الأمين حيث إنه لم يكن يسمح للمستفيد بدخول الخزانة نفسها^(٢). ومن المكتبات التي استخدمت الرفوف مكتبة مدرسة القاضي يحيى زين الدين، فقد ورد في وثيقة وقفه مانصه «خزانة كتب . بها رفوف خشب برسم الكتب الموقوفة بالجامع المذكور»^(٣)، ومكتبة المدرسة الغورية فقد ذكرت وثيقة وقفه مانصه «... وبها خلوة كبرى معدة لخزن الكتب وبها جنبات خشب نقي يمنية ويسرة وصدرًا مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة»^(٤).

وفي بعض المكتبات كان المناول أو الخازن يستخدم سلما خشبيا مروحيا في إحضار الكتب من على الأرفف المرتفعة وإرجاعها إلى مكانها^(٥) وللحفاظ على الكتب وصيانتها استخدمت بعض المكتبات . خاصة الملحقة بالمساجد والخانقاوات وغيرها، ما يسمى بكرسى الكتب، وكان يستخدمه كل من القارئ والناسخ . فيذكر ابن جماعة أن من آداب نسخ الكتب ومطالعته عدم وضع الكتاب على الأرض مفروشا منشورا بل يجعله على كرسى الكتب^(٦). وهذا الاجراء إلى جانب كونه دليلا على احترام الكتب يهدف في ذات الوقت إلى صيانتها ويحتفظ المتحف الإسلامي بالعديد من كراسى الكتب، منها

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص ١٧٠ .

(٢) انظر ص ١٩٩ - ٢٠٢ من الكتاب .

(٣) وثيقة القاضي يحيى زين الدين، رقم ١١٠، محفظة ١٧، دار الوثائق .

(٤) وثيقة الغوري، ٨٨٣ أوقاف، وانظر أيضا : وثيقة برسباي رقم ٨٨٠ أوقاف، وثيقة السلطان حسن بن قلاوون

٨٨١ أوقاف، وثيقة حسام لاجين رقم ١٧، ١٨، محفظة ٣ .

(٥) على الطائش : المعائر الجركسية ص ١٦٢ .

(٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٧٠ .

أربعة كراسى كانت تستخدم فى خزانة كتب جامع المؤيد شيخ^(١) وهناك كرسى^(٢) عليه كتابات مؤرخة سنة ٨٨٧هـ، وكان يستخدم فى مكتبة مدرسة الأمير قاجماش الإسحاقى.

وقد استخدمت المكتبات المملوكية على اختلاف أنواعها وأحجامها الأدوات الكتابية فى عملية النسخ، كالحبر والورق والأقلام والمساطر والبراكر^(٣) والدوى^(٤). وكانت هذه الأدوات معدة لاستخدام النساخ الذين يعملون فى المكتبة أو المؤسسة الأم فضلا عن استخدامها من قبل الرواد والمستفيدين^(٥). كما استخدمت المكتبات أدوات التجليد والصيانة والترميم، وذلك لصيانة الكتب وترميمها والمحافظة عليها. فكانت من واجبات خازن الكتب ترميم شعث الكتب وحبكها كما يقول السبكى^(٦). وقد نصت الوثائق على تزويد المكتبات بما يلزمها من كتب وورق وحبر وأقلام وغيرها من أدوات الكتابة والتجليد والترميم^(٧).

وبالإضافة إلى هذه الأدوات وجد فى المكتبات المملوكية نوع آخر من الأدوات يمكن أن نطلق عليه أدوات إعداد الكتب، وهى التى تستخدم لأغراض إثبات ملكية المكتبة لكتبها كالأختام والسجلات وغيره. وأغلب الكتب التى وصلتنا من العصر المملوكى عليها أختام أو توقيعات تثبت ملكية أصحابها لها. وتختلف الأختام فى شكلها وحجمها فمنها المستدير ومنها البيضاوى ومنها المربع، وبعضها صغير الحجم، وأخرى ذات أحجام كبيرة.

(١) تحمل هذه الكراسى أرقام: ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٨، ١٠٧٩.

(٢) يحمل هذا الكرسى رقم: ٤٩٠.

(٣) البراكر جمع بركار وهى آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر وتعرف بالبيكار. أنظر: البغدادى: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، ج١، ص ٢٥٢-٢٥٧.

(٤) الدوى جمع دواة ويقال لها المحبرة وهى الآتية التى يجعل فيها الحبر من خزف كان أو قوارير. انظر ابن منظور: لسان العرب ج١٦، ص ١٦٤-١٦٢.

(٥) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار محكمة ١٠٦ محفظة ١٧، وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف، وثيقة الإيشادى محكمة ٢٧٨ محفظة ٤٣، وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف.

(٦) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص ١١١، وانظر ص ٢٨-٢٩ من الفصل.

(٧) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار محكمة ١٠٦ محفظة ١٧، وثيقة برسباى ٨٨٠ أوقاف، وثيقة الإيشادى، محكمة ٢٧٨ محفظة ٤٣، وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف.

وعادة ما نجد فيها اسم الواقف أو اسم المكان التي وقفت عليه^(١) وقد نجد في بعضها مضافا إلى الختم نص الوقفية^(٢)، وقد نجدما عوضا عنها في بعض الأحيان^(٣). وهناك العديد من الكتب التي وصلتنا تحمل أكثر من تمليكَة مما يدل على انتقال مثل هذه الكتب بين أكثر من خزانة^(٤)، وهي تعد بلا شك مصدراً خصباً لدراسة تاريخ حياة الكتاب ومدى أهميته العلمية وشهرته.

وتحتفظ المكتبة الأزهرية بالقاهرة بمعظم موجودات خزانة الإيشادى الخاصة التي كان قد وقفها على خزانة الجامع الأزهر في أواخر دولة المماليك الجراكسة. ويلاحظ أن جميع كتبها قد ختمت بخاتم دائري فيه ما نصه «من نعم الله على الإيشادى المالكى». وجدير بالذكر أن وثيقة وقفه قد أكدت على ضرورة ختم الكتب المشتراه حديثا من قبل ناظر الوقف بخاتم الواقف فقد ذكرت ما نصه «وأن جميع ما يشتريه كاتبه لجهة وقفه المذكورة ويكتسب عليه علامة وقفه المنب عليها ويضعه مع كتب وقفه...»^(٥).

وكإجراء مكمل لختم الكتب وإثبات ملكيتها استخدمت المكتبات ما يعرف بالثبوت^(٦) أو السجل لتسجيل محتويات المكتبة وقد كان من واجبات خازن الكتب عند تسلمه للعمل في الخزانة أن يقوم باستلام الكتب من سلفه أو من الناظر على الوقف وتسجيلها في ثبت كان يحتفظ بنسخة منه، ويقوم بتسجيل ما يستجد من كتب في هذا الثبوت الذي كان يستخدم عادة في أعمال الجرد^(٧).

(١) أنظر الملحق الأول، لوحات أرقام ١، ٢، ٥، ٨، ١٠، ١١. بآخر الكتاب.

(٢) أنظر الملحق الأول، لوحات أرقام ١، ٢، ٥، ٨، ١١، بآخر الكتاب.

(٣) أنظر الملحق الأول، لوحات أرقام ٣، ٤، ٦، ٧، ٩، ١٢. بآخر الكتاب.

(٤) مثل كتاب الوافى بالوفيات للصفدى الذي يحمل ثلاث تمليكات إحداها «برسم خزانة مدرسة شبك بن مهدى الداودار» والثانية «برسم خزانة كتب محمود بن العربى الشافعى» والثالثة «من كتب يحيى من حجبى الشافعى سنة ٨٧٣هـ» راجع صلاح الدين المنجد: الكتاب العربى المخطوط، ج ١، لوحة رقم ١٧٦، والصفدى: الوافى بالوفيات، ج ١ ص ب، وانظر أيضا: الملحق الأول، لوحة ١٠ بآخر الكتاب.

(٥) وثيقة عيل الإيشادى، رقم ٢٧٨ محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم ص ١٣.

(٦) الثبوت هو الحجة أو الصحيفة يثبت فيها الأدلة، ويقال أثبت الكتاب أى سجله.

أنظر ابن منظور: لسان العرب ج ٢، ص ١٨؛ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. ج ١، ص ٩٣.

(٧) لقد عالجتنا موضوع التسجيل والسجلات فى الفصل الثالث. راجع ص ١٧٤ - ١٧٦ من هذا الكتاب.

وهكذا كان يتم تجهيز المكتبات المملوكية بالتجهيزات المناسبة للاحتياجات الأساسية للخدمة المكتبية. وتسهم المباني والتجهيزات معاً في تسهيل استخدام المكتبة من قبل العاملين بها وروادها فضلاً عن راحتهم ورفاهيتهم، ولكي تحقق المكتبات أهدافها وتقدم التسهيلات المناسبة للعاملين بها وروادها وتقوم بأداء التزاماتها ووظائفها على الوجه الأكمل - كان لابد من تدبير الموارد المالية الكافية للإنفاق عليها.

٢ - الموارد المالية ووجوه الإنفاق :

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية تزخر بالحديث المدعم بالأرقام عن ثروة الممالك، إلا أنها لا تقدم لنا أية أرقام أو معلومات تفصيلية عن الإيرادات المخصصة للمكتبات أو موارد إنفاقها إلا ما ندر، أو ذكر عرضاً، ورغم كثرة المصادر التي أرخت للعصر المملوكي وتعدد موضوعاتها إلا أنها لم تقرر لنا ميزانية واحدة مفصلة عن إحدى خزائن الكتب المملوكية. وما نحاوله في هذه الفقرات هو محاولة استنطاق النصوص المتاحة بخصوص ما ورد عن الإيرادات والمصروفات الخاصة بالمكتبات ولو بشكل عرضي بين ثنايا السطور.

سبق أن ذكرنا أن مصر تمتعت بمركز اقتصادي مرموق في العصر المملوكي إذ استهرت بثرواتها الطائلة لازدهار التجارة الداخلية والخارجية والانتعاش الذي شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة. وقد اهتم الممالك بتنظيم تحصيل إيرادات الدولة. وكانت تتكون - عادة - من مصادر عدة منها : الضرائب سواء كانت على الأرض أو المعادن وغيرها، ومنها الزكاة والجزية، والزكاة التي لا وارث لها، والرسوم الجمركية التي تجيها الحكومة على عروض التجارة الواردة على الموانئ المصرية والمصادرة منها^(١). ولم يبخل الممالك نتيجة لهذا الانتعاش الاقتصادي على مؤسساتهم العلمية والدينية والتربوية بما فيها المكتبات. فرصدوا لها الأموال العامة والخاصة وحبسوا عليها الأوقاف، وقد عبرت الأوقاف السخية على المكتبات وغيرها من الأموال والهبات عن

(١) انظر: ٥١ - ٥١ من هذا الكتاب.

التقدير الحقيقي لكرامة العلم والعلماء، والإيمان بأهمية الدور الذي تؤديه المكتبات كمؤسسات تربية تعليمية، فنتجت عن ذلك نهضة تعليمية مكتبية كانت من مفاخر ذلك العصر.

وبعد الموقف^(١) المورد المالى الرئيسى للمكتبات المملوكية، وربما فاق ما رصده الممالك من أموال عامة للانفاق عيل المكتبات. وقد انتشر الوقف فى العصر المملوكى على المؤسسات الدينية والعلمية. وكانت له أسبابه المتعددة^(٢)، منها ما يتعلق بالشعور الدينى. الذى ساد المجتمع المصرى إبان عصر الممالك. فمعظم الوثائق تذكر فى مقدمتها عبارات تدل على هذا الإحساس وعلى أن العامل الدينى له أثره فى اتجاه الناس إلى الإقبال على الوقف باعتباره من القربات الدائمة، والصدقات المستمرة. لذلك كانت أغلب الأوقاف على المؤسسات الدينية بما فيها المكتبات الملحقة بها^(٣). كذلك أدى إعفاء الأوقاف من الخراج والضرائب إلى انتشار الأحياس. ويبدو أن الظروف القلقة التى اجتاحت البلاد لاسيما فى نهاية العصر المملوكى دفعت أصحاب الثروات إلى وقف أملاكهم على وجوه الخير ومراقق البر، وهم بذلك يحمون أملاكهم من المصادرات ويضمنون موردا اقتصاديا ثابتا من ريعها الوافر لانفسهم ولأولادهم وذريتهم عن طريق النظر عليها إلى جانب اكتساب الأجر والثواب. كما أدت المنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء، وغيرهم من عليه القوم، والتودد إلى الشعب لإرضائه، إلى إنشاء المؤسسات الدينية، ومنها المكتبات وحبس الأوقاف الكثيرة ذات الربح الوافر ليصرف عليها.

وتتمثل هذه الأوقاف فى منازل وحوانيت وبساتين وأرض وخلافها، تؤجر ويستغل

(١) الوقف معناه فى اللغة الحبس مطلقا وهو مصدر، وقفت الشيء أى حبسته، وهو فى اصطلاح فقهاء الدين والقانون حبس العين وتسبيل ثمرتها أو منع التصرف فى رقبة العين مع بقاء عينها وصرف المنفعة على جهات البر والخير حسب شروط الواقف. انظر: محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، ص ١١.

(٢) بتصرف عن: عبد اللطيف إبراهيم على: دراسة آثارية فى وثائق من عصر الغورى ج ١، ص ١٢٤ - ١٢٨؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٧١ - ٩٨.

(٣) أنظر الوثائق المثبت ببياناتها فى صدر قائمة المصادر والمراجع بآخر الكتاب.

ربيعها للصرف والإنفاق على شؤون المؤسسة بما فيها المكتبة حسبما تحدده وثيقة الوقف. وتحتفظ دور الأرشيف بالقاهرة بالعديد من الوثائق الوقفية^(١) التي تزخر بالمعلومات الخاصة بالوقف على المؤسسات الدينية والتعليمية والتربوية. وقلما نجد سلطانا أو أميرا إلا وله وثيقة وقف أو أكثر على مؤسسة دينية علمية حتى ولو لم يكن منشئها^(٢).

ولبيان أهمية الوقف كمورد مالى للمكتبة المملوكية نورد بعض الأمثلة التى توضع تنافس الممالك فى هذا المجال. وقد بلغ ريع الأوقاف الخاصة بالبيمارستان المنصورى - بما فى المكتبة - ألف دينار كل يوم^(٣). ويذكر السخاوى أن الفائض من ريع أوقاف البيمارستان بلغ عام ٨٨٥١هـ / ١٤٤٧م، أى بعد مرور ما يقرب من قرنين على إنشائه، حوالى أربعة عشرة ألف دينار^(٤). ولم لا وقد كان البيمارستان يستقبل أربعة آلاف مريضاً فى اليوم، وكل حاجات المريض متوفرة فيه من الأشرية والأكحال واللبوس^(٥).

أما مدرسة السلطان حسن بن قلاوون، فقد بلغ جملة المصروفات الخاصة بأرباب الوظائف فقط حوالى ستة وأربعين وخمسمائة وخمسين درهما (٤٦٥٥٠) شهريا حسب ما ورد فى وثيقته، تدفع جميعها من ريع الأوقاف^(٦). وكذلك بلغ جملة الأراضى الزراعية التى وقفها الأمير سودون من زادة على مدرسته حوالى ألفين وستمائة وست عشرة فدانا (٢٦١٦)، هذا إلى جانب بستان للأنشاب^(٧) وقطعة من الأرض المخصصة

(١) انظر محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك، القاهرة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٨٠م.

(٢) يبلغ عدد وثائق الغورى على سبيل المثال التى وصلتنا والمحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ٢٩٠ وثيقة وقف. انظر محمد أمين - المصدر السابق.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة، ص ٣٣.

(٤) السخاوى : التبر المسبوك، ص ١٨٧.

(٥) سعيد زغلول عبد الحميد ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع للهجرة، مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مج ٨، ١٩٥٤، ص ١١٠.

(٦) ثائق وقف السلطان حسن بن قلاوون، أرقام ٤٠، محفظة ٣٦٥١٦، محفظة ٨٥، رقم ٨٨١ أوقاف، انظر أيضا : محمد أمين : وثائق مصاريف السلطان حسن، ملحق تذكرة النبى، ج ٣، ص ٣٦٦.

(٧) الأنشاب هى الأشجار التى تؤخذ منها عصى السهام التى تستخدم فى القناب.

للبناء تبلى ألفى ذراع^(١). ووفقا لوثيقة جمال الدين الاستادار، فقد بلغ جملة مصروفات مدرسة حوالى واحد وثلاثين ألفا ومائتين درهما شهريا^(٢).

ولم تكن الأوقاف التى يوقفها أصحابها هى المورد المالى الوحيد للإنفاق على المكتبات. فقد كانت هناك المبالغ المالية التى يرصدها أصحابها لبناء وإنشاء مباني المكتبات وتأثيثها وتجهيزها وتزويدها بالكتب وغيرها^(٣) من المواد المرتبطة بها. وبالعقد المناسب من العاملين وغير ذلك. وهذه المبالغ والنفقات غير الهبات العديدة نقدا وعينا التى كان يقدمها رجال الخيرات إبان العصر المملوكى. من ذلك مكتبة مدرسة المحلى التى شيدها - كما سبق أن ذكرنا - رئيس التجار برهان الدين إبراهيم فى مدة سبع سنين وانفق فى بنائها زيادة على خمسين ألف دينار^(٤) ولنا أن نتصور ضخامة المبالغ التى رصدها الأمير علاء الدين طيبرس للإنفاق على مكتبة مدرسته التى شيدها بجوار الجامع الأزهر عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م، وقد تألق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبداع وأحسن قالب وأبهج ترتيب لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة... وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة،^(٥) وقد صاحب هذا الإنفاق حسن نية فقد صرح حين فرغ من بناء هذه لمدرسة أن احضر إليه مباشرة حساب مصروفاتها، فلما قدم إليه استدعى بطست فيه ماء، وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شىء منها وقال : شىء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه،^(٦).

وكان السلاطين أكثر سخاء وإنفاقا على مؤسساتهم من الأمراء والتجار وغيرهم، وقد بالغوا فى ذلك أحيانا حتى أن السلطان حسن بن قلاوون قد أجهده مصاريف مدرسته، التى استغرق بناؤها ثلاث سنوات لم ينقطع العمل فيها يوما واحدا، ورصد لمصروفها كل يوم عشرين ألف درهما، ففكر فى التوقف عن الإنفاق على عمارتها، إذ يروى أنه قال : «لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء يثاء لترك بناء هذا الجامع من كثرة ما

(١) وثيقة سودون من زاده، رقم ٥٨ محفظة ١٠، دار الوثائق، نشر حنلى نصير، ص ٦٢.

(٢) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ١٠٦ محفظة ١٢، دار الوثائق.

(٣) سيعالج وقف الكتب كمصدر من مصادر التزويد فى الفصل الثالث، ص ١٦١ - ١٧٦.

(٤) المقرئى : الخطط، ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.

صرف عليه،^(١). كذلك بلغت جملة ما أنفقه السلطان المؤيد شيخ المحمودى على عمارة مدرسته أكثر من سبعين ألف دينار^(٢). أما المدرسة الغورية فقد بلغت عمارتها نحو مائة ألف دينار^(٣).

ومن ريع الأوقاف والمبالغ والنفقات والهبات التى كانت يقدمها رجال الخير كان ينفق على خزائن الكتب. وتعج وثائق الوقف بمعلومات مفصلة عن وجوه الإنفاق أو مصروفات المكتبات المملوكية وهى تكفى للدلالة على مدى اهتمام المماليك ورجالهم بالإنفاق على الكتب حتى تؤدى رسالتها كمؤسسات تعليمية تربية.

ونستطيع أن نصنف أوجه الإنفاق على خزائن الكتب المملوكية فى وجهين رئيسيين أحدهما خاص بمرتبات العاملين بالمكتبات والوجه الآخر يتعلق بصيانة وترميم بناء المكتبة والكتب وتجهيزاتها وأدواتها المختلفة.

وفيما يتعلق بمرتبات العاملين فإن وثائق الوقف المملوكية تظهر تفاوتاً ملحوظاً بين مرتبات أمناء المكتبات^(٤) أو خزنة الكتب، على حد المصطلح المملوكى^(٥)، وفقاً للعمل الموكل للأمين ومركزه وسمعته، وتبعاً لمقدار ريع الوقف السنوى. فإننا نجد على سبيل المثال، أن أمين مكتبة مدرسة السلطان حسن بن قلاوون كان راتبه الشهرى مائة درهم حيث ورد فى وثيقة وقفه ما نصه :..... ويرتب رجلاً يحفظ ما عساه أن يكون بالخزانة

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٣١٦، السيوطى : حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٩٢، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج٣، ص ٦٧ راجع أيضاً: زكى محمد حسن : فنون الإسلام، ص ١٧٢ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية، ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢) المقرئى : المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٩.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣، ص ٥٨.

(٤) لقد أعدنا جدولاً بمرتبات أمناء المكتبات المملوكية من خلال الوثائق. انظر الملحق الثانى بآخر الرسالة.

(٥) وثيقة السلطان حسن، رقم ٨٨١ أوقاف، دراسة ونشر محمد أمين، وثيقة الأمير صرغتمس، رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر د. عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٥٢، وثيقة فرج بن برق، محكمة ٦٦، محفظة ١١، وثيقة برسباى، ٨٨٠ أوقاف، وثيقة قايتباى، ٨٨٦ أوقاف، وثيقة أزيك من طوطى محكمة ١٩٨، محفظة ٣١، وثيقة المؤيد شيخ، ٩٣٨ أوقاف، وثيقة سودون من زادة، محكمة ٥٨، محفظة ١٠، وثيقة قانصوه الغورى، ٨٨٣ أوقاف وثيقة قانى باى الرماح أوقاف ١٠١٩.

التي بالمكان المذكور من ختمات شريفات وربعات وكتب يتولى حفظها وصونها وفعل ما جرت عادة أمثاله في مثل ذلك، ويصرف له في كل شهر مائة درهم واحدة نقرة،^(١). وفي المدرسة الصرغتمشية كان خازن الكتب يتقاضى راتباً شهرياً خمسون درهماً، فقد ذكرت وثيقة الأمير صرغتمشى على المدرسة ما نصه... ويرتب الناظر في هذا الوقت شخصاً يكون خازناً للكتب والختمات الربعات وذلك بالمدرسة المذكورة يصرف إليه في كل شهر خمسون درهماً نقره،^(٢) أما أمين مكتبة مدرسة فرج بن برقوق بالحوش السلطاني بالقلعة فكان يتقاضى مرتباً عشرين درهماً فقط، حيث ذكرت وثيقة وقفه ما نصه «ويصرف لرجل يكون قادراً على القيام بخدمة الكتب عارفاً بترتيبها يقيمه خازناً لها.. ويصرف له عن ذلك في كل شهر من الفلوس المذكورة عشرون درهماً،^(٣).

كما قرر المؤيد شيخ لخازن الكتب بالجامع المؤيدي ما قيمته أربعون نصفاً من الفضة، وهي عمله كانت متداولة في عهده تشبه الدرهم، فتقول وثيقة وقفه ما نصه... ويرتب رجلاً أميناً ثقة حافظاً يكون خازناً للمصاحف والربعات الشريفة وكتب العلم الشريف التي تكون بخزانة الكتب بالجامع المذكور... ويصرف له في كل شهر.. ما مبلغه من الإنصاف الفضة المذكورة أربعون نصفاً...^(٤). وأما أمين مكتبة مدرسة الأمير سودون من زاده فكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرين درهماً، حيث تذكر وثيقة وقفه ما نصه «ويصرف الناظر لرجل من طلبة العلم الشريف خمسة وعشرين درهماً نقره في كل شهر يرتبه خازناً للكتب التي توقف على هذا الجامع...^(٥). ويبدو أن مرتب أمين

(١) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون، رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد محمد أمين، ص ٤٠٦، والدرهم النقرة نوع من الدراهم الفضة التي من المفروض أن تكون نقية من شائبة وعادة ما تكون من ثلاثين فضة وثلاث من النحاس وهي عبارة عن قرص مستدير وزنة ٢٩٧ جرام. راجع: القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣٠٧، ٤٦٢، ٤٦٣.

(٢) وثيقة الأمير صرغتمس، أوقاف ٣١٩٥، نشر عبد اللطيف إبراهيم على ص ١٥٢.

(٣) وثيقة فرج بن برقوق، محكمة ٦٦، محفظة ١١.

(٤) وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨، أوقاف.

(٥) وثيقة سودون من زاده، محكمة ٥٨، محفظة ١٠، نشر حسنى نويصر ص ١٠٣ - ١٠٤..

المكتبة مع تقدم الزمن فقد بلغ في عهد السلطان برسباى الدقماقى إلى ثلاثمائة درهما شهريا، فقد ذكرت وثيقة وقفه ما نصه «...» ويصرف لرجل يتولى خزانة كتب العلم التى وقفها مولانا السلطان الواقف وجعل مقرها بخزانة الكتب التى بالجامع المقدم.... فى كل شهر من الشهور من الفلوس ثلاثمائة درهما..(١)،

وأما مدرسة السلطان برقوق فكان الخازن من جملة الصوفية المنزلين فى المدرسة، وكان يصرف له مبلغا من المال زيادة عما هو مقرر له عن وظيفة التصوف،.. ويرتب الناظر شخصا من الصوفية المذكورين خازنا لما يكون بهذه المدرسة من الريعات والختمات الشريفة وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب، وما لعله يكون حاصلا بها من الحصر والبسط والقناديل وغير ذلك على العادة فى مثله، ويصرف له فى كل شهر خمسة عشرة درهما نقرة مضافا لما هو مرتب له فى وظيفة التصوف على ما شرح أعلاه(٢).

وبالإضافة إلى هذا الراتب الشهري تدلنا كثير من الوثائق على أن أمناء المكتبات كانوا يمنحون رواتب إضافية فى شكل جوامك أو رواتب نقدية وعينية تزداد فى المواسم والأعياد.(٣) من ذلك ما نصت عليه وثيقة السلطان قايتباى المحمودى أن خازن كتبه كان يتقاضى «فى كل يوم من الخبز الموصوف أعلاه رطلان»(٤)، وذلك علاوة على راتبه الشهري حيث نصت نفس الوثيقة على ذلك «...» ويصرف لرجل من أهل الخير والدين

(١) وثيقة برسباى، أوقاف ٨٨٠.

(٢) وثيقة السلطان برقوق، محكمة ٥١، محفظة ٩، وقد نصت الوثيقة على أن يصرف على وظيفة التصوف فى كل شهر عشرين درهما نقرة.

(٣) وثيقة صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف، وثيقة محمد بن قلاوون، محكمة ٢٥، محفظة ٤، وثيقة حسام لاجين، محكمة ١٧، محفظة ١٣ وثيقة حسن بن قلاوون رقم ٨٨١ أوقاف، وثيقة برقوق، محكمة ٥١، محفظة ٩، وثيقة فرج بن برقوق محكمة ٦٦، محفظة ١١، وثيقة قايتباى، محكمة ٢١٠، محفظة ٣٣ وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف، وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف، انظر الملحق الثانى بآخر الكتاب.

(٤) وثيقة قايتباى المحمودى، رقم ٨٨٦ أوقاف.

والأمانة يكون خازنا للكتب... مائتى درهما...^(١) كما نصت وثيقة برسباى على منح خازن الكتب جامكية^(٢) «... فى كل يوم من الخبز القرصة المذكور ثلاثة أرطال»^(٣).

هذا عن الوجه الأول من وجوه الإنفاق، أما الوجه الثانى فهو وجه عام وأساسى حيث يشتمل على صيانة وترميم بناء المكتبة وما يتعلق به من تجهيزات وأدوات^(٤)، فضلا عن الأدوات الخاصة بالكتابة والنسخ والتجليد والترميم^(٥) وما إلى ذلك. إذ تقول وثيقة الإيشادى ما نصه «... يصرف فى ما تحتاج إليه عمارة المكان المذكور وترميم الكتب وإصلاح الدواة والسكين والخزانة...»^(٦)، أما وثيقة الأمير صرغتمشى^(٧) فتذكر ما نصه «... ويستغل ربع ذلك بوجه الاستغلال الشرعى ويبدأ من ذلك بعمارة ما يحتاج إلى عمارته بالموقف المذكور فيه وإصلاح ما فيه دوام منفعتة...» ويصرف أيضا فيما يحتاج إليه من الزيت الطيب برسم الوقود بالمدرسة المذكورة وثمان قناديل وسلاسل وحصر وسط وشمع... كذلك تذكر وثيقة السلطان حسن ما نصه «ويصرف ما يحتاج إليه لفرش الأماكن المذكورة فى ثمن البسط وحصر وقناديل وسلاسل وأسطال وصفيح ومقشآت ونواعم وماعون وكلف الوقود... وغير ذلك مما فيه مصلحة المكان على العادة

(١) الجامكية هى الراتب الشهري الذى يتقاضاه العاملون فى الدول من جند وخلافه. وقد يكون نقدا فقط أو نقدا وعينا من خبز وأرز وتمر وغيره. انظر ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٧٢، ٢٢٨.

(٢) وثيقة برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف. والرطل هو وحدة ميزان وهو يوازي إثني عشرة أوقية، والأوقية إثني عشر درهما، وعلى هذا يكون الرطل مائة وأربعة وأربعين درهما. القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١، ج ٥، ص ١٤٤.

(٣) وثيقة تغرى بردى، محكمة ٩٨، محفظة ١٦، وثيقة أزيك من ططخ، محكمة ١٩٨، محفظة ٣١، وثيقة حسام الدين لاجين، محكمة ١٧، محفظة ٣، وثيقة ببيرس الجاشنكير، محكمة ٢٣، محفظة ٤، وثيقة السلطان حسن، رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد أمين، وثيقة الجمالى يوسف، محكمة ١٠٥، محفظة ١٦، وثيقة فانى باى الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف.

(٤) وثيقة جمال الدين الاستادار، محكمة ١٠٦، محفظة ١٧، نشر عبد الستار عثمان، وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف، وثيقة الإيشادى، محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم.

(٥) وثيقة الإيشادى، محكمة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ج ٣.

(٦) وثيقة صرغتمشى رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٤٧، ١٥١.

فى ذلك...، (١). إما وثيقة قراقاجا الحسنى (٢) فقد ورد فيها ما نصه «... ويصرف فى كل سنة من السنين العربية توسعة فى شهر رمضان منها فى ثمن زيت (٣) وحصر (٤) وقناديل وغير ذلك ما هو متعلق بذلك مما جرت العادة به فى مثل ذلك بالغما ما بلغ (٥).

وبالإضافة إلى هذين الوجهين، فإن وجهها آخر للمصروفات كانت بعض المكتبات تلتزم به، وهى النفقات الخاصة بالإقامة الدائمة أو شبه الدائمة فى المؤسسة والتفرغ للعلم. ومن هذه النفقات ما هو متعلق بالمبيت والمأكّل والمشرب وغير ذلك من مستلزمات الرقاه. إذ تذكر وقف السلطان حسن بن قلاوون ما نصه «... ويصرف من ريع الوقف المذكور فى ليلة كل جمعة خمسة قناطير بالقنطار المصرى من لحم ضأن وثمان عشرين قنطارا من الخبز القرصة وثمان ما يحتاج إليه من أرز عسل وحبوب وحب رمان وغير ذلك ودهن وخطب وتوابل وأجرة من يتولى ذلك وتفرقته...» (٦).

كما أفاد العديد من طلاب العلم ورواد المكتبات والعاملين بها من الرعاية الطبية والعلاج المجانى الذى كانت تقدمه بعض المدارس. ومن ذلك ما جاء بوثيقة السلطان حسن بن قلاوون «ويرتب الناظر رجلين مسلمين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان، والثانى عارف بصناعة الكحل على أن كل منهما يحضر فى كل يوم إلى المكان

(١) كانت هناك وظيفة فى العصر الإسلامى الوسيط باسم «شهادة العمارة»، يتولاها رجل ثقة أمين عدل يقوم بالصرف على تجديد العماثر واصلاحها وترميمها ويقدم بذلك حسابا إلى الناظر على الوقف. انظر عبد اللطيف إبراهيم: نصاب جديان من وثيقة الأمير صرغتمشى، ج٢، ص ١٥٩، تحقيق ٤٨، وما به من مصادر ووثائق.

(٢) وثيقة السلطان حسن رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد محمد أمين - ملحق تذكرة النبى، ج٣، ص ٤١٤.

(٣) كان الزيت فى المواسم والأعياد، وكان الوقاد يضع الزيت فى مسارج من الخزف أو المعدن ذات فتيل من شعبة أو شعبتين: راجع وثيقة الأمير آخور كبير قراقاجا الحسنى: دراسة ونشر عبد اللطيف إبراهيم، تحقيق ٨١، ص ٢٤٤.

(٤) الحصر هى المادة التى كانت تفرش بها أرضية أغلب المدارس والمساجد والخانات والمكاتب فى ذلك العصر. راجع ص ١١، هامش ٢، من هذا الفصل.

(٥) وثيقة آخور كبير قراقاجا الحسنى: دراسة عبد اللطيف إبراهيم، ص ٢١٢.

(٦) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون، رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد محمد أمين، ص ٤١٤، وراجع أيضا ص ٤١٦، ٤١٧ من نفس المصدر، وثيقة برقوق، محكمة ٥١، محفظة ٩.

المذكور ويدأوى من يحتاج إلى مداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه ومن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن بالمكان ومن المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه توجه الطبيب في مكان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب .. ويرتب الناظر رجلا جرائحيا مجبرا يحضر في كل يوم إلى المكان المذكور ويفعل نظير ما شرط على الكحال والطبيب بأعاليه،^(١).

وهكذا يتضح مدى تنافس أولئك القوم في تدعيم مكتباتهم ماليا إبان العصر المالكي، واهتمامهم بالإنفاق عليها حتى تؤدي رسالتها كما يجب . وقد حبسوا عليها الأوقاف، وقدموا لها الهبات ورصدوا لها الأموال، التي كان لها أثرها الكبير في استمرار تقديم الخدمة المكتبية لمختلف فئات الشعب .

٣ = الموارد البشرية

فاذا تركنا الموارد المالية ووجه الإنفاق، قابلنا مورد آخر لا يقل أهمية عن الموارد المالية وهو المورد البشري، وأعنى به القوى العاملة في المكتبة، وهى المرتكز الثالث الأساسى الذى تقوم عليه الخدمة المكتبية . وتزخر المصادر المملوكية، لاسيما الوثائق منها، بالنصوص الخاصة بالعاملين وفئاتهم وواجباتهم ومؤهلات كل فئة . ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نصنف العاملين فى المكتبات المملوكية فى فئات ثلاث نستعرضها فيما يلى:

الفئة الأولى هى وظيفة خازن الكتب أو شاهد خزانة الكتب^(٢)، أى أمين المكتبة حسب مصطلحنا المعاصر. وهو الشخص المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها،

(١) وثيقة السلطان حسن رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد محمد أمين، ص ٤١٠، وانظر ايضا وثيقة برقوق، محكمة، ٥١، محفظة ٩، وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨، أوقاف، عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية من عصر الغورى، مج ٢ ص ٤٦، تحقيق ١٠٦٥٤

(٢) جدير بالذكر أن الوثيقة الوحيدة التى أطلقت على خازن الكتب لفظ «شاهد خزانة الكتب» هى وثيقة الناصر محمد بن قلاوون حيث نكرت ما نصه «ويرتب شاهدا لخزانة الكتب ويحفظ ما فيها من الكتب...» وثيقة محمد بن قلاوون ، رقم ٢٥ محفظة، دار الوثائق.

وتنظيم العمل بها وفقا للشروط التي يعينها له الواقف. وقد حددت وثائق الموقف مهمة أمين المكتبة في العصر المملوكى بالتفصيل. وتبدأ هذه المهمة بأن يقوم الناظر على الوقف بتسليم الكتب إلى أمين المكتبة، ويشهد عليه بتسليمها، ثم يتولى الخازن بعد ذلك إحراز الكتب، ونفوذها من الغبار، وتعهدا بالمحافظة عليها، وصونها من التلف أو البلل، وتنظيمها دخل الخزائن، وتفقدتها من حين لآخر، وإصلاح ما أصاب التلف منها، وترميم شعنها وحبكها عند احتياجها للحبك^(١)، مع القيام بحراستها وصونها من السرقة أو الضياع. يؤيد ذلك ما جاء ببعض وثائق الوقف المملوكية. حيث تذكر وثيقة جمال الدين الاستادار ما نصه «على أن يتسلم الخازن - المصاحف والريعات والكتب الجارية في الوقف ويشهد عليه بتسليمها ويقرها بالرواق العالى على السباط المذكور أعلاه ويحفظها من البلل ويتعاهدها بالتقليب والإصلاح...»^(٢). وفي وثيقة السيفى أزيك ما نصه «... على أن يتولى إحراز الكتب بالخزانة المذكورة ونفوذها من الغبار وتعهدا على العادة وصونها عما يفسدها...»^(٣). أما وثيقة جواهر اللالا فتقول ما نصه «... على أن يتولى خزن الكتب التى بالمدرسة المذكورة ونفوذها وحراستها وعمل مصالحها على العادة...»^(٤). وفي هذا الصدد تذكر وثيقة فرج بن برقوق ما نصه «... على أن يتولى حفظها ونفوذها ويتفقد أحوالها بالإصلاح ووضعها بالخزانة المرصدة لها...»^(٥). كما تقول وثيقة قايتباى ما نصه «... يتولى خازن الكتب بالجامع حفظها وتنظيف خزائنها من الغبار وغير ذلك...»^(٦).

وبالإضافة إلى هذه الواجبات كان أمين المكتبة المملوكية يقوم بتنظيم الكتب وترتيبها فى الخزانة، وكان عليه أن ييسر القراءة والإطلاع عيها، ويمكن طلبة العلم من الانتفاع بها فى حدود القواعد المعمول بها والتي تنص عليها لائحة المكتبة الواردة فى وثيقة

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم، ص ١١١.

(٢) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ٨٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر عبد الستار عثمان ص ١٦٣.

(٣) وثيقة السيفى أزيك رقم، محفظة ٣١، دار الوثائق.

(٤) وثيقة جواهر اللالا، رقم ٦٨، محفظة ١٤، دار الوثائق.

(٥) وثيقة فرج بن برقوق، رقم ٦٦، محفظة ١١، دار الوثائق.

(٦) وثيقة قايتباى، رقم ٨٨٦ أوقاف.

الوقف، إذ تذكر وثيقة جمال الدين الاستادار ما نصه «... ويحفظها من البطل - أى الكتب التى بالخزانة - ويتعاهدها بالتقليب والإصلاح، ومن حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة لاستعارة شىء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه...» (١). وكذلك تنص وثيقة فرج بن برقوق على «... أن يتولى - خازن الكتب - حفظها ونفرضها... وعلى أنه من حضر إليه يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك والاشتغال به وكان من أهل المكان ومن يوثق به دفعه إليه...» (٢).

وكان يجب على من يشتغل هذه الوظيفة أن يتوافر فيه بعض الصفات والمزايا كأن يكون أميناً متديناً واسع الاطلاع عارفاً بشئون الكتب (٣) قادراً على القيام بخدمتها وعارفاً بترتيبها. إذ تذكر وثيقة فرج بن برقوق ما نصه «... ويصرف لرجل يكون ثقة خيراً أميناً يقظاً قادراً على القيام بخدمة الكتب عارفاً بترتيبها بقيمة خازناتها بالجامع المذكور من الختمات الشريفة والربعات العظيمة وكتب العلم الشريف على أن يتولى حفظها ونفرضها ويتفقد أحوالها بالإصلاح...» (٤) كما تذكر وثيقة قانى باى الرماح ما نصه «... ويصرف لرجل من أهل الأمانة والديانة والنهضة والصيانة يقرره الناظر فى وظيفة خزن الكتب الموقوفة بالمدرسة المذكورة الموضوعه بخزانة الكتب المذكورة أعلاه على أن يتعهد الكتب المذكورة بالنفرض...» (٥). أما وثيقة سودون من زاده فانها تذكر ما نصه «... ويصرف لرجل من طلبة العلم الشريف من أهل الخير والدين والأمانة خمسة وعشرين درهماً نقرة فى كل شهرين يرتبه خازننا للكتب التى توقف على هذا الجامع على أن يتولى حفظها...» (٦). كما ورد فى وثيقة قانصوه الغورى ما نصه «... تصرف لرجل من أهل العلم الشريف ثقة أمين عدل ضابط نزه يقره الناظر فى وظيفة خزن الكتب...» (٧).

(١) وثيقة جمال الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر عبد الستار عثمان، ص ١٦٤.

(٢) وثيقة فرج بن برقوق، رقم ٦٦، محفظة ١١، دار الوثائق.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٩٥.

(٤) وثيقة فرج بن برقوق، رقم ٦٦، محفظة ١١، دار الوثائق.

(٥) وثيقة قانى باى الرماح، رقم ١٠١٩ أوقاف.

(٦) وثيقة سودون من زاده، رقم ٥٨، محفظة ١٠، دار الوثائق، نشر حسنى نويصر، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٧) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر أيضاً وثائق: جمال الاستادار، رقم ١٠٦ محفظة ١٧، السيفى أريك رقم

١٩٨، محفظة ٣١، وثيقة قايتباى رقم ٨٨٦ أوقاف، وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف.

ولعل السبب في أن بعض الوثائق تشترط أن يكون الخازن أو أمين المكتبة من أهل العلم لتكون له دراية بالكتب ومعرفة محتوياتها ومصنفاتها، لأنه يتعامل مع طلاب العلم مدرسين ومعيديين وطلاب، ومن يرغب في الاطلاع من سائر المثقفين من الفقهاء والعلماء وغيرهم من أهل العلم والفضل، وإرشاد من يطلب منهم مساعدته في اختيار الكتب التي تعينه في بحثه أو دراسته، وذلك باعتبار أن وظيفة خزن الكتب وظيفية تربوية تعليمية توجيهية تهدف إلى تعريف الطلبة بتراثهم وتوجيههم إلى مصادر المعرفة، وإعانتهم على تحصيلها^(١)، مع معرفته وتقديره لقيمة الكتب التي يتولى الإشراف عليها، الأمر الذي يجعله حريصاً على المحافظة عليها وصيانتها.

وقد اشترطت بعض الوثائق في خازن الكتب أن يكون منتبهاً إلى مذهب معين، فيكون حنيفاً أو شافعيّاً أو مالكيّاً أو حنبليّاً. فقد ورد في وثيقة الأمير صرغتمش على المدرسة الصرغتمشية ما نصه «ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصاً حنفياً المذهب ثقة أميناً ديناً يكون خازناً للكتب والختمات والربعات الشريقات وغير ذلك بالمدرسة المذكورة»^(٢) كما اشترطت وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار أن يكون خازن كتب مدرسته أحد الصوفية حيث ذكرت ما نصه «... ويرتب من الصوفية المذكورين غير المتجردين شخصاً من أهل الخير والديانة والصيانة والأمانة ليكون خازناً لما بالخانقاه المذكورة من الربعات الشريفة والمصاحف وكتب العلم الشريف»^(٣). ونفس الشرط بالنسبة لخازن مكتبة المدرسة البرقوقية. فقد ذكرت وثيقة السلطان برقوق ما نصه «... ويرتب الناظر شخصاً من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازناً لما يكون بهذه المدرسة من الربعات والختمات الشريفة، وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب»^(٤).

ويبدو أن وظيفة خازن الكتب في المؤسسة المملوكية كانت من الوظائف الهامة.

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٤٦، عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) وثيقة صرغتمش، رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٥٢.

(٣) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، ص ١٦٣.

(٤) وثيقة السلطان برقوق، رقم ٥١، محفظة ٩، دار الوثائق.

ولذلك فإن تعيينه كان يتم بناء على رغبة السلطان ومعرفة الشخصية له . فقد ولى السلطان المؤيد شيخ المحمودى فى وظيفة خزن الكتب بالمدرسة المؤيدية ناصر الدين أبى عبد الله محمد البازى الجهنى الشافعى كاتب الأسرار الشريفة ثم من بعده لمن يصلح من أولاده وذريته^(١) . كما عين السلطان برسباى ، على بن أحمد القرشى القلقشندى خازنا لمكتبة المدرسة الاشرفية برسباى^(٢) ، وأحيانا كان يتم تعيين الخازن وفقا للزعة الفردية أو قرابته الشخصية للواقف كما فعل جمال الدين الاستادار ، إذ تذكر وثيقة وقفه ما نصه : «... وقرر الواقف هذه الوظيفة لشقيقه سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين أبى عبد الله محمد ولأولاده وأولاد أولاده وذريته ...»^(٣) ونادرا ما كان يتم تعيين الخازن بموافقة طلبة العلم المنتفعين بالمكتبة ، إذ تذكر وثيقة الإيشادى ما نصه : «... ولا يقرر فى ذلك إلا أمثل الفقراء بالجامع الأزهر المتصفين بالصفة المذكورة أعلاه بشرط رضاهم أجمعين واتفاقهم عليه ...»^(٤) وهذا شرط جدير بالملاحظة لأنه يوضح أهمية دور طلبة العلم فى اختيار واحد منهم كأمين للمكتبة التى يترددون عليها إما للقراء والنسخ أو المقابلة والمعارضة^(٥) .

هذا ، وتذكر وثيقة السلطان حسن بن قلاوون شرطا هاما فيما يخص الوظائف عامه ، ومنها وظيفة خازن الكتب فتقول ما نصه : «وأنه لا ينزل أحدا فى وظيفة من الوظائف كلها إلا إذا كان أهلا لها ، ومن سعى عنده بشفاعه أو جاءه أو برسالة ولا ينزل أحدا غصبا»^(٦) . وهذا النص يكشف عن مظهر اجتماعى ربما كان سائدا فى ذلك العصر ، وهو محاولة

(١) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف ، المقرئى : الخطط ج ٢ ، ص ٣٢٩ ، العيلى : عقد الجمان ، ج ١٩ سنة ٨٢٣ هـ (مخطوط) ، السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ١٣٧ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ١٦١ والتبر المسبوك ، ص ٤٢ - ٤٥ .

(٣) وثيقة جمال الاستادار ، رقم ١٠٦ ، محفظة ١٧ ، نشر عبد الستار عثمان ص ١٦٤ .

(٤) وثيقة الإيشادى رقم ٢٧٨ ، محفظة ٤٣ ، دار الوثائق ، نشر عبد اللطيف إبراهيم ص ٥٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦ .

(٦) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون رقم ٨٨١ أوقاف نشر محمد أمين ص ٤٢٠ .

الوصول إلى الوظائف لاسيما الوظائف الرفيعة كتلك التى تتعلق بالمدارس والمكتبات عن طريق الوساطة وغيرها.

ويبدو أن وظيفة خازن الكتب فى المكتبات المملوكية كان يتوارثها الأبناء عن الآباء بشروط. فبالإضافة إلى النص الذى أورده سلفا من وثيقة جمال الدين الاستادار نجد وثيقة برسباى، تقول ما نصه «... ومن توفى من أرباب الوظائف وله ولد صالح لونه والده قرره الناظر مكان والده فى الوظيفة المذكورة بمعلومه المشروط له فى كتاب الوقف» (١).

ومن تتبع أسماء أمناء المكتبات المملوكية نجد أنه كان هناك حرص من جانب الواقف أو الناظر من بعده على إسناد وظيفة أمين المكتبة إلى شخصية علمية معروفة، نذكر منهم على سبيل المثال : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المقدسى السيلى الحنبلى (ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١م) كان إماما فى الفرائض والحساب والوصايا، وقد عمل خازنا لمكتبة المدرسة الصنيائية (٢). وصدر الدين بن الآدمى (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) وكان قاضى القضاء بالقاهرة، وعمل قبل ذلك بالتدريس وتولى خزانة الكتب الأشرفية برسباى (٣) الشيخ على بن أحمد القلقشندى (ت ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م)، وكان عالما فاضلا فقيها تولى التدريس بالصالحية ودرس الفقه بالشيخونية والحديث بجامع ابن طولون والقراءات بالحسينية وتولى كذلك خزانة الكتب الأشرفية (٤). وورثه ابنه الشيخ إبراهيم بن على ابن أحمد القلقشندى (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م) فى خزانة الكتب، وكان كوالده عالما فى الفقه والتفسير والحديث، وكان مدرسا ومحدثا تولى تدريس الحديث والتفسير فى جامع ابن طولون والمدرسة الجمالية، وقام بتدريس الفقه بالمدرسة السكرية (٥).

ومنهم أيضا الشيخ أحمد بن الحسن بن الشهابى الجوجرى (ت ٩٠٠هـ / ١٥٠٠م) وكان

(١) وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف، أنظر أيضا : المقرئى : الخطط ج ٢، ص ٣٢٩.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٦، ص ٨٣.

(٣) النعمى : الدارس فى تاريخ المدارس ج ١، ص ٥٠٦.

(٤) السخاوى : المصدر السابق، ج ٥، ص ١٦١، والتبر المسبوك، ص ٤٥ - ٤٦.

(٥) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١، ص ٧٧ - ٧٨.

شيخا للصوفية في البشكنية، كما تولى خزانة الكتب العربية التي كانت بجوارها^(١) والشيخ محمد بن محمد بن جمال (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) الذي تولى خزانة المدرسة الظاهرية، وقد وصفه السخاوى بالعالم الفاضل البارع المشتغل المحصل لا شتغاله بالعلم طيلة حياته^(٢). وعبيد الله محمد بن إبراهيم الزين اليماني (ت ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م)، ويصفه السخاوى بأنه تميز في الفرائض، وأم بمدرسة أم السلطان شعبان مع خزن كتبها^(٣)، وكذلك خضر بن شومان الخاصكى الظاهري (ت ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م) خازن الكتب بالمدرسة الصرغتمشية، وكان عالما فاضلا في العربية والصرف والفقه، وقد ذكر السخاوى أنه دعاه ذات مرة إلى رؤية كتب الخزانة وعرضها على السخاوى واحدا واحدا، وكان من جملتها كتاب البدائع للكاساني^(٤).

وتعاقبت على منصب أمين المكتبة بالمدرسة المؤيدية أعلام مشاهير منهم : محمد ابن ابراهيم بن خلف الغملي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)^(٥)، والشيخ أبو عبد الله ابن محمد الجهيني البارزي الشافعي كاتب الأسرار الشريفة^(٦) والشيخ شمس الدين محمد بن عمر الدنجاوى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)^(٧)، ومحمد بن محمد القلعي (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م)^(٨). كما عمل بمكتبة المدرسة المحمودية أعلام منهم : الحافظ المحدث شيخ الإسلام وقاضى القضاء ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٧م)^(٩)، ومحمد بن علي الجلالى (ت ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) الذى اشتغل بالعلم طيلة حياته^(١٠). واستقر بعده في خزانة الكتب ابنه احمد بن محمد

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٠٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق ج ٣، ص ١٧٨؛ التعميم الدارى : الطبقات السنية في تراجم الحنفية ج ٣، ص ٢٠٣.

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٦، ص ٢٥٢.

(٦) المصدر السابق ج ٩، ص ١٣٧ وثيقة، ٩٣٨ أوقاف؛ المقرئى : الخطط ج ٢، ص ٣٢٩؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٤.

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٥٧.

(٨) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢٤٦.

(٩) السخاوى : الزيل على رفع الاصر، ص ٨٥. راجع الملحق الثالث بآخر الكتاب.

(١٠) السخاوى : الضوء اللامع ج ٨، ص ٢٢٨.

الجلالى (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)، وكان كوالده ذا شهرة علمية، تولى التدريس والخطابة بالمدرسة البرقوقية، وكتب تأليف عدة وناب فى القضاء^(١). وهناك أيضا الشيخ محمد بن عبد الله الأفنيش (ت ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م)، وكان عالما فاضلا كاتباً كتب الكثير من الكتب منها حوالى مائة مصحفاً، وياشر ديوان نوروز الظاهري جقمق الداودار، وتولى خزانة كتب المحمودية^(٢).

والأسماء السابقة إن دلت على شىء فإنما تدل على خطورة هذا المنصب وأهميته فجل من ذكرناهم كانوا من العلماء الأعلام الذين كانت لديهم خبرة ودراية واسعة بالكتب من خلال اشتغالهم الدائم بالعلم. ولم يكن هذا المنصب تشريفاً لأصحابه، بل كان تكليفاً يتطلب دقة فى العمل وبقظة وقدرة على أدائه، مع مراعاة متطلبات المترددين على المكتبة من مختلف فئات المجتمع الذى تقوم المكتبة على خدمته. وقد حملت وثائق الوقف الخازن بمسئوليات حفظ مجموعة المكتبة، وأناطت به تبعة وقوع أى تقصير يؤدى إلى أى خلل فيها.

لذلك نجد بعض الوثائق تنص على ضرورة عزل خازن الكتب، إن بدا منه أى تقصير أو خيانة فى الكتب واستبداله بخازن آخره فقد ذكرت وثيقة صرغتمش ما معناه قيام الناظر بتعيين خازن للكتب بالثقة والأمانة، وإن بدا الخازن المذكور تقصير أو خيانة فى الكتب استبدل الناظر غيره..^(٣)، وأحيانا كان الخازن يعاقب بالضرب ويغرم قيمة ما يفقد من خزانة الكتب التى تحت يده ويلزم بدفع ثمنها، كما حدث لعثمان فخر الدين البكرى التلاوى (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٧م) الذى تولى خزانة المحمودية قبل ابن حجر العسقلانى. فقد روى السخاوى أنه أى فخر الدين - فرط فى بعض كتبها فجئ به إلى السلطان وضرب امامه وغرم بدفع قيمة ما ضاع من كتب فاضطر إلى بيع داره وكتبه الخاصة لتغطية ثمن الكتب التى فقدت^(٤).

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ١١٢.

(٣) وثيقة الأمير صرغتمش، رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر الدكتور/ عبد اللطيف ابراهيم، ص ١٥٢.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.

ولعل من السمات الناجحة لإدارة العاملين في المكتبات المملوكية - كما هو واضح من الأمثلة السابقة - هو جمع خازن الكتب بين عمله المكتبي في المكتبة وبين التدريس سواء في المؤسسة الأم أو مؤسسات أخرى، حيث أن قيام أمين المكتبة بالتدريس يعطيه بعدا علميا ويساعده على معرفة ميول واتجاهات القراء. لذا فمعظم أمناء المكتبات الذين لم يمارسوا التربية أو يشتغلوا بالتدريس يواجهون صعوبة الاستخدام التربوي للمكتبة،^(١) ولذلك كان معظم أمناء المكتبات في العصر المملوكي أكثر تفهما للأمر التربوي والنفسية نتيجة اختلاطهم بالطلاب والمعيدين، كما أنهم كانوا أكثر نجاحا في عملهم من غيرهم. ومن المؤكد أن هذا الجمع بين الوظيفتين يعد سبقا لهم، حيث إنهم توصلوا إلى هذه الأمور التربوية المتداخلة مع عملية الإدارة. ويعتبر هذا تفهما صحيحا وإدراكا واعيا لكيفية إدارة الخدمة المكتبية، خاصة في هذا الوقت السحيق.

هذا عن الفئة الأولى من فئات العاملين في المكتبات المملوكية، أما الفئة الثانية فهي فئة المناولين. والمناول صاحب وظيفة وسط بين وظيفتي الخازن والفراش في المكتبة المملوكية، ولا يمكن الاستغناء عنه. فهو مساعد الخازن ويقوم بإرشاد القراء إلى مواضع الكتب واحضارها من الخزانة إلى من يرغب منهم في القراءة أو النسخ وغير ذلك، ثم يقوم بإرجاعها إلى الخزانة أو الرفوف لوضعها في أماكنها بعد فراغهم منها.

ويقوم المناول بهذا العمل تحت إشراف الخازن، ولكن معرفته بالكتب لا تتعدى معرفة أسائها وأماكن حفظها فقط، ولا يتجاوز ذلك لمعرفة موضوعاتها والقضايا التي تبحثها. أي أنها وظيفة لا تسمو إلى وظيفة الخازن، ولكنها لا تهبط في نفس الوقت إلى مستوى الفراشين^(٢) ولكن عمله بهذه الصورة يجعله قريبا إلى عمل الخادم، لذلك كان يعبر أحيانا بحامل المصحف أو خادم الربعة الشريفة، تأديبا وتميزا له عن من يقوم بالعمل بين القراء والكتب، ومن يقوم بأعمال النظافة. إذ تذكر وثيقة السلطان حسن بن قلاوون ما نصه :

(١) مسحت كاظم، وآخرون: المكتبة المدرسية، القاهرة، جمعية المكتبات المدرسية، ١٩٧٧.

(٢) راجع: عبد الغنى محمود عبد العاطى: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص ٢٥٩، عبد اللطيف .

ابراهيم: المرجع السابق، ص ٧٨، أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٤٣.

«... نفر يتولى حمل المصحف الشريف من المكان الذى هو فيه ووضعه على الكرسي عند القراءة فى كل يوم بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة وإعادته إلى مواضعه بعد فراغ القراءة»^(١)، كما تذكر وثيقة المؤيد شيخ ما نصه.

«... ويرتب خمسة رجال خدام للربعات الشريفات بالجامع المذكور على أن الخمسة المذكورين يحضرون الربعات الشريفات وقت حضور وظيفة التصوف ويفرقون أجزاءها على الحاضرين الوظيفة المذكورة بعد صلاة العصر فى كل يوم ليقرأون فيها ما العادة.... ويجمع الخمسة المذكورين الأجزاء المذكورة ويضعونها فى مواضعها»^(٢). ويؤيد ذلك ما جاء فى وثيقة برقوق «ويرتب الناظر أربعة أنفسا من الصوفية المذكورين يفرقون أجزاءها على الجماعات القائمين بوظيفة التصوف بعد صلاة العصر، وعند فراغهم يجمعون الأجزاء المذكورة ويعيدون بها إلى أماكنها على العادة فى مثل ذلك»^(٣).

ويبدو أن المناولين كانوا غالبا من الصوفية استنادا إلى نص وثيقة برقوق سألغة الذكر، وإلى ما ورد فى وثيقة جمال الاستادار حيث ذكرت ما نصه «... ويرتب أيضا من عدة الصوفية المذكورين أعلاه من المحررين أعلاه ثلاثة أنفس لخدمة الربعات الشريفات بالخانقاه المذكورة على أن يحضروها وقت حضور الوظيفة ويفرقون أجزاءها على الجماعة القائمين بوظيفة التصوف بعد صلاة العصر ويقرأون بها ما عين لهم .. ويجمعون الأجزاء بعد الفراغ من القراءة ويضعونها فى مواضعها ويعيدونها إلى الخزانة المعدة لها بالخانقاه المذكورة.

ومع ذلك فإنه كان من واجبات خازن الكتب حسبما أسلفنا - أن يقوم بالعناية بالكتب وتنظيفها من الغبار وما تتأذى به، بل تعد الأمر فى بعض المكتبات بأن يقوم الخازن بمناولة الكتب لمن يريد قراءتها. وعمله هنا أقرب إلى عمل المناول : إذ تذكر وثيقة

(١) وثيقة السلطان حسن رقم ٨٨١ أوقاف، تحقيق ونشر محمد محمد أمين ص ٤٥١.

(٢) وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف.

(٣) وثيقة السلطان برقوق، رقم ٥١، محفظة ٩، دار الوثائق.

(٤) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر عبد الستار عثمان، ص ١٥٩ - ١٦٠.

السيفى أزيك ما نصه: «... ومناولتها لمن يريد المطالعة فيها والكتاب منها مع العلم بأن نفس الوثيقة تعين خادما للمصحف والريعة الشريفة، وحددت اختصاصات مثلها فى ذلك مثل^(١) وثائق المؤيد شيخ، وجمال الاستادار، والسلطان برقوق السالفة الذكر. فقد ذكرت وثيقة أزيك ما نصه: «... على أن يتولى إحضار المصحف والريعة الشريفة كل يوم من حرزهما إلى محل حضور التصوف بعد العصر وعودة عند الفراغ وإحراز ذلك فى حرزه...»^(٢) ويدل هذا على أن مناولة الكتب كانت أيضا من صميم عمل الخازن. ولكن وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ربما تلقى بعض الضوء، إذ تذكر وجود الخادم الذى له علاقة بالاهتمام بالكتب، والمحافظة عليها من الضياع وقيامه ببعض مهام الخازن. إذ تذكر الوثيقة ما نصه «... وإن كان المستعير من غير أهل الخانقاه سلم إليه ما يريد استعماره فيطلع فيه نهارا بالخانقاه المذكورة فيه ثم يبيتها عند الخادم ثم يستعيدها منه نهاراً وأن يفعل الخازن ما يفعل أمثاله من الخزان أهل الضبط فى ذلك»^(٣). وربما كان هذا الخادم المذكور هو ما تعرف عليه أن يقوم بوظيفة المناولة فى المكتبة.

وعلى كل حال إذا وجدت وظيفة المناولة إلى جانب وظيفة خازن الكتب فمعنى هذا أن ترتقى وظيفة الخازن إلى الناحية الإشرافية فقط على عملية العناية بالكتب ونظافتها ونظافة الخزانة نفسها مع قيامه بمهام الخدمة المكتبية من تسجيل الاستعارات ومباشرة نظام سير العمل وحسن أدائه، ولكن توصيف مهمة الخازن بهذه الأعمال - على نحو ما ذكرنا - تدفعنا إلى القول بأنه كان يقوم بها دون مساعدة من أحد، مع التسليم بوجود طبقة المناولين الذين تتحدث عنهم الوثائق بخدام الربعات الشريفة. وإن كان هذا لا يمنع من القول بتداخل اختصاصات الوظيفيتين فى بعض الأحيان.

وإذا تركنا فئتي أمناء المكتبات والمناولين قابلتنا فئة ثالثة من فئات العاملين فى المكتبات المملوكية هى فئة الوراقين. وتضم هذه الفئة النساخ والخطاطين والمجلدين

(١) وثيقة السيفى أزيك رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وثيقة جمال الدين الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر عبد الستار عثمان ص ١٦٤.

وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة حرفة لهم. وهذه الفئة هي التي قامت بنسخ التراث العربي العلمي والأدبي وصيانتها، فقام النساخ بعمل آله الطباعة والتصوير في العصر الحاضر، وأمدوا المكتبات باحتياجاتها من الكتب. وربما وجد في كثير من المكتبات المملوكية نساخ أو أكثر لنسخ ما يطلب منه بأجر يدفع له من ريع الوقف. كما كان بعض الطلاب والصوفية يقومون بنسخ الكثير من الكتب مثل محمد بن أبي بكر الكنانى (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) وهو أحد صوفية المؤيدية كتب الكثير من التصانيف وكان يرتزق بالنساخة كما يقول السخاوى^(١).

وكان النساخ يقومون بتزويد المكتبة بما لا يوجد فيها من الكتب أو ما يتعذر تحصيله منها عن طريق نسخها، وخاصة إذا كانت من أمهات الكتب في علم من العلوم، أو كان الإقبال عليها كثيراً، لأهميتها أو أصالتها. ولذلك وجد في بعض المكتبات أكثر من نسخة واحدة من الكتاب الواحد. وكان على النساخ مراعاة الدقة والتأنى أثناء الكتابة والتزامه الأمانة، فلا يحذف شيئاً أو يختصر رغبة في سرعة الانجاز كما يقول السبكي^(٢). ولعل من أشهر هؤلاء النساخين في العصر المملوكى: الشيخ شرف الدين بن السرائى (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) الذى عمل ناسخاً ومعلماً للخط بالمدرسة الأشرفية بربسباى بالحريرين. إذ تذكر وثيقة وقف السلطان برسباى ما نصه: «... ويصرف للشيخ شرف الدين موسى المكتب الرومى فى كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة دراهم أو ما يقوم مقامها من النقود، وفى كل يوم من الخبز القرصة المذكور ثلاثة أرطال ليتعاهد أرباب الوظائف بالجامع المذكور بتعليم رسم الكتابة،^(٣) وأيضاً الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن يوسف المعروف بابن الصائغ^(٤) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١)، وكان صاحب مدرسة فى الخط وهو شيخ الكتاب والنساخ فى وقته، وقد نسخ عدداً غير قليل من المصاحف

(١) السخاوى: الضوء اللامع ج٧، ص ١٥٦.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص ١٣١-١٣٢.

(٣) وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف، راجع: السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص ٢٩٨.

(٤) أنظر ترجمته فى: السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، ص ١٦٢.

والكتب والقصائد بخطه^(١)، ولذلك قرر مكتباً فى عدة مدارس من أكبر مدارس القاهرة لتعليم الخط - ومنهم أيضاً خطاب بن عمر بن خطاب الدنجاوى^(٢) (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م)، ويعتبر من أشهر النساخ والخطاطين وكتاب الوثائق فى العصر المملوكى، وقد كتب أكثر من خمسين مصحفاً^(٣). هذا إلى جانب المخطوطات والوثائق الشرعية للسلطان قايتباى وأمراء عصره^(٤)، وقد تولى عدة وظائف منها تصدّره للتكتيب بمدرسة أريك من ططخ^(٥)، مع قراءة المصحف وصحيح البخارى.

وتزخر كتب التراجم والطبقات بالعديد من أسماء الخطاطين الذين كانوا يعملون فى رحاب المؤسسات المملوكية، كما كان كثير من مؤدبى الأيتام يجيد الخط. وبعضهم كان يقوم بعمل النساخ إلى جانب تعليم الخط مثل برهان الدين إبراهيم مؤدب الأيتام بمدرسة جوهر اللالا^(٦). كما تكسب بالنسخ وتعليم الخط فى المؤسسات المملوكية كل من أحمد بن حسن الشهاب الهيثمى، وإسماعيل بن عمران، ومحمد بن محمد البليهى وغيرهم كثير^(٧).

وعادة ما كان يدفع بالمخطوط بعد فراغ الناسخ من عمله إلى المجلد، لتجميع أوراقه

(١) وصلنا عدد غير قليل منها مصحف رقم ٧٦٧/١٦ بالمكتبة الأزهرية، ومصحف برقوق رقم ١١، مصاحف بدار الكتب، وكان هذا المصحف ضمن موجودات خزانة المدرسة البرقوقية، ويوجد أيضاً بدار الكتب نسخة من البردة الشريفة كان قد كتبها ابن الصائغ سنة ٨٠٤ هـ وهى تحت رقم ٤٥٥ أدب، ولابن الصائغ رسالة صغيرة فى صناعة الكتابة تعرف بـ «تحفة أولى الألباب» تقع فى ٢٣ ورقة وهى تحت رقم ١٤ صناعة بدار الكتب.

(٢) انظر ترجمته فى: السخاوى: الضوء اللامع ج ٣، ص ١٨١.

(٣) تحتفظ دار الكتب بالعديد من المصاحف التى كتبها الدنجاوى منها: مصحف الأمير السيفى جاني بك أمير آخور كبير كتبه الدنجاوى سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م وهوتحت رقم ٥٥ مصاحف، ومصحف آخر تحت رقم ١٢٦ مصاحف كان قد وقفه قايتباى على خزانة مدرسته بالكش سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م. أنظر المحلق الأول، لوحة ١١ بآخر الكتاب.

(٤) منها على سبيل المثال: وثيقة وقف السلطان قايتباى رقم ٨٨٨ أوقاف.

(٥) وثيقة أريك من ططخ رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق.

(٦) وثيقة جوهر اللالا، رقم ١٠٢١ أوقاف.

(٧) أنظر السخاوى: الضوء اللامع ج ١، ص ٢٧٣، ج ٢، ص ٣٥٤، ج ٩، ص ٢٥٢، على التوالى.

وتجليده . ولذلك يرجح وجود مجلد للكتب فى بعض المكتبات بالمؤسسات المملوكية لاسيما وأن فن التجليد كان قد بلغ فى مصر المملوكية أرقى مراتب التقدم والازدهار . وأصبح لمدرسة القاهرة فى تلك الفترة الصدارة فى إنتاج الكتب وتجليدها^(١) وزخرفتها وتذهيبها ووجد الكثيرون ممن برعوا فى هذه الصناعة نذكر منهم على سبيل المثال : عمر بن محمد ابن إبراهيم السراج الكتبى (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م)^(٢) ، ومحمد بن إبراهيم الحلبي الكتبى^(٣) (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، وسالم بن محمد بن محمد سالم القرشى القاهري الكتبى^(٤) (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) . ومنهم من كان يجمع بين مهنة النسخ والتجليد ، بل والتذهيب والزخرفة أحيانا مثل محمد بن أحمد على الإبيارى المعروف بابن السدار (ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م)^(٥) ، ومحمد بن أحمد الأزهرى (ت ق ٩هـ / ١٥م)^(٦) .

ويتضح مما سبق أن المكتاب المملوكية عرفت ثلاث فئات من العاملين هم أمناء المكتبات ، والمناولين والوراقين . كما أفادت بعض المكتبات ، لاسيما الملحقة منها بالمؤسسات كالمدارس والمساجد وغيرها ، بما توفر لها من خدم بما فى ذلك البوابين والفراشين والطباخين وغيرهم ، كما نصت على ذلك بعض الوثائق المملوكية^(٧) . وكان هؤلاء وأولئك على قدر كبير من المهارة الفنية وحسن الإدارة لما تحتويه مكتباتهم من إنتاج فكرى وتنظيمه وتيسير سبل الافادة منه . وقد نال العاملون جزءا كبيرا من اهتمام منشئ المكتبات والواقفين عليها . فخصصوا لهم المرتبات المجزية والتيسيرات العديدة وبخاصة فى الأعياد والمناسبات^(٨) . وكان هناك احترام لمشاعرهم الاجتماعية وتقدير لذاتهم . ويكفى أن نشير أن مرتب أمين المكتبة المملوكية كان يتساوى فى كثير من

(١) سوف تعالج قضية التجليد والترميم والصيانة فى الفصل الثالث من الكتاب .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ١١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٢ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٦ .

(٧) أنظر : الوثائق المثبت ببيانها فى صدر قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الكتاب .

(٨) أنظر : الوثائق المثبت ببيانها فى صدر قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الرسالة .

الأحيان مع مرتب المدرسين بالمدرسة^(١). فلا أقل إذا من أن يحب المكتبيون عملهم ويخلصوا فيه، وهذا ما كان يريده المعاليك لمكتباتهم.

٤ - المجموعات المكتبية :

وفى مقام الحديث عن موارد المكتبات المملوكية لا بد من وقفه نتعرف فيها على تعداد مقتنياتها من الكتب وأحجامها وأنواعها. ذلك أن مقتنيات أية مكتبة تعتبر من أهم العناصر المميزة لهويتها، كما أنها تعتبر من أهم معايير الحكم على فعاليتها، بل إن الأساس فى قيام المكتبة وبقائها واستمراريتها فى أداء دورها التعليمى والتربوى مرهون - إلى حد بعيد - بنوع المقتنيات التى تضمها بين جدرانها. ومن أجل هذا حرص الواقفون على تزويد مكتباتهم بالآلاف من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون.

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين القدامى حدد حجم مجموعات المكتبات المملوكية بالأرقام، إلا أن البعض الآخر وصفها بصفات عامة وغير دقيقة، مثل «كثيرة، وكبيرة، وعظيمة، وجليلة، ومعتبرة، ونفيسة، وغيرها من الصفات التى تدل على حب الكتب والتنافس فى جمعها والتباهى بكثرة عددها، وتنوع موضوعاتها. فالمقرئى يحدثنا عن السلطان المؤيد شيخ أنه لما تم عمارة الجامع المؤيدى «دخل خزانة الكتب التى عملت هناك، وقد حمل إليها كتباً كثيرة فى أنواع العلوم»^(٢). وفى معرض حديثه عن خزانة الكتب السلطانية بالقلعة يذكر أنه «وقع بها حريق يوم الجمعة رابع صفر من إحدى وتسعين وستمائة فتلف بها من الكتب فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيئاً كثيراً جداً»^(٣). كما يصف ابن حجر العسقلانى مجموعة كتب خزانة القاضى برهان الدين بن جماعة بأن «الكتب التى بها كثيرة جداً»^(٤).

(١) أنظر: الوثائق المثبت بيانها فى صدر قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الرسالة .

(٢) المقرئى : الخطط ج٢، ص ٣٢٩، ايضاً : السيوطى : حسن المحاضرة ج٢١، ص ١٩٤ .

(٣) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢١٢ .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر، (مخط)، حوادث سنة ٨٢٦هـ .

ويذكر المقرئى أن الظاهر ببيرس البلد قدارى لما أتم بناء المدرسة الظاهرية وقف بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم^(١). وفى حديثه عن المدرسة الناصرية يذكر أن الناصر محمد بن قلاوون جعل بها خزانة كتب جليلة^(٢) كما كان للمدرسة الصحابية البهائية خزانة كتب جليلة^(٣). وفى حديثه عن إبراهيم ابن موسى بن أيوب القاهرى (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) يذكر السخاوى أنه «أخذ زواية بظاهر القاهرة فى المقس، ووقف بها كتباً جليلة»^(٤).

وقد وصف ابن تغرى خزانة كتب المدرسة الطيبرسية بأنها «خزانة كتب عظيمة»^(٥). ويذكر المقرئى أنه وجد بالمدرسة الملكية خزانة كتب معتبرة^(٦). كما زود الأمير عز الدين ايدمر الخضيرى جامعة المسمى بجامع الخضيرى بخزانة كتب نفسية^(٧). أما القاضى برهان الدين ابن جماعة فانه «أقتنى من الكتب النفسية بخطوط مصنفها وغيرهم ما لم يتهياً لغيره»^(٨) ويدلنا وصف الكتب بهذه الصفات على قيمة الكتب وأثرها فى إثراء الحياة الفكرية إبان العصر المماليكى، وإن كانت لا تحدد بشكل قاطع أعدادها.

وبالإضافة إلى المعايير والمقاييس سالفه الذكر، استخدم الحمل كمعيار لتقييم حجم المكتبات، منها خزانة كتب جليلة كان بها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم^(٩). كما يذكر أن جمال الدين الاستادار كان قد اشترى خزانة كتب مدرسة الأشراف شعبان بن

(١) المقرئى : السلوك، ج ١، ص ٥٠٤، والخطط، ج ٢، ص ٣٧٩، انظر أيضاً : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٠، ٢١٣.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١، ص ١٠٤٦.

(٣) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٩٩.

(٦) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٩٢.

(٧) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣١٢.

(٨) ابن حجر العسقلانى : الدار الكامنة، ج ١، ص ٣٨.

(٩) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٨٥.

حين بعد هدمها، وكانت تبلغ الكتب النفسية عشرة أحمال،^(١) وإن كنا لا نعرف حجم الحمل هذا فإن المقرئ يرى بترك لنا تقدير حجم أو عدد هذه الكتب على ضوء حديثه، وهو يوحى بلا شك بضخامة المجموعة وكبر حجمها، ولا سيما وأنه يذكر أن جمال الدين الاستادار قد اشتراها بمبلغ ستمائة دينار، وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك^(٢). هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وصفت بعض المكتبات بالأرقام أو المعايير الكمية. فصاحب الضوء اللامع يورد لنا نصا يوحى بأن مكتبة المدرسة المحمودية كانت تضم في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري قرابه أو أربعة آلاف مجلداً^(٣). ويذكر ابن إياس أنه لما مات يحيى بن محمد بن حجي (ت ٨٨٨هـ / ١٤٥٤م) وجد عنده زيادة على ثلاثة آلاف مجلداً من الكتب النفسية^(٤).

والحقيقة أن المكتبات المملوكية، لا سيما المدرسية منها، كانت تعج بالكتب المختلفة في فروع المعرفة البشرية السائدة في ذلك العصر، وحسب نوع ومواد الدراسة المقررة في كل مدرسة. لذلك كانت الكتب تعليمية لأغراض الاحتياجات الدراسية والثقافية العامة فالمقرئ يصف مكتبة المدرسة الظاهرية بأن بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم^(٥). كما يذكر عن خزانة الجامع المؤيدي أنه، قد حمل إليها كتباً كثيرة في أنواع العلوم^(٦). وكان مكتبة المدرسة الأشرفية برسباي تزخر بالكتب المختلفة، ومنها كتاب «الكشاف» للزمخشري وهو في علم التفسير، و«المفتاح» للسكاكي وهو في البلاغة، و«الهدايا» للمرغباني في الفقه، و«البزدوي» في أصول الفقه، و«البردة»

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠١.

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج ٥ ص ١٤٣ - ١٤٤. أنظر نص الرواية ص ١٧٨ من هذه الرسالة.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣، ص ٢٠١، حوادث سنة ٨٨٨هـ.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٧٩؛ والسلوك: ج ١، ص ٥٠٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢١٣، ٢٢٠.

(٦) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٣٢٩.

للبوصيرى فى الأدب...^(١) كذلك كان بمكتبة المدرسة الغورية الكثير من الكتب والمؤلفات فى شتى أنواع العلوم والفقه والأدب والتاريخ والطب واللغة والمعانى والبديع، وأصول الفقه، وأصول الدين والمنطق وغيرها من علوم العصور الوسطى على حد ما جاء فى وثيقة الوقف^(٢). وعموما فإن عدد الكتب وموضوعاتها فى المكتبات المملوكية كان يتناسب تناسباً طردياً مع عدد المدرسين والطلاب والمعيدين فى أى مدرسة ومقررات الدراسة فيها^(٣).

ولم تشذ مكتبات المؤسسات الصوفية والمساجد عن ذلك، حيث غلب على مجموعاتها من الكتب الطابع اللغوى والشرعى، وإن لم تخل من بعض المؤلفات فى العلوم الأخرى المختلفة. وفى وثيقتين ترجع إحداهما إلى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م تتضمن بياناً بمحتويات مكتبة خاصة أوقفها صاحبها على رواق المغاربة والجامع الأزهر^(٤)، والثانية ترجع إلى عام ٩١٩هـ / ١٥١٥م وتختص بوقف منزل ومكتبة خاصة على الجامع الأزهر^(٥) أيضاً. ومن دراستنا لهاتين الوثيقتين تخرج بالمؤشرات التالية:

١ - أن هاتين المكتبتين كانتا تحتويات على مؤلفات فى مختلف ألوان المعرفة البشرية إبان العصر المملوكى ومنها المصاحف الشرعية من علوم القرآن والتفسير والحديث والمصطلح والفقه وأصوله والتوحيد والتصوف والنطق، ومنها أيضاً العلوم اللغوية كالمعاجم وكتب النحو والصرف والخط والبلاغة والأدب، وكذلك التاريخ والجغرافيا والخطط. أما كتب العلوم البحتة والتطبيقية فكان منها الحساب والمساحة والهندسة والفلك والكيمياء والجيولوجيا والحيوان والطب والبيطرة. هذا فضلاً عما كانتا تشتملان عليه من مؤلفات فى التربية والتعليم والموسيقى وفنون الحرب والفروسية والمعارف العامة. وهذا يدلنا على موسوعية علماء ذلك العصر وفرط اهتمامهم وحبهم للقراءة وجمعهم للكتب.

(١) وثيقة برسبای رقم ٨٨٠ أوقاف.

(٢) وثيقة الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) وثيقة عيسى بن عبد الرحمن الزواوى رقم ١٨٦، محفظة ٢٨، دار الوثائق، نشر عبد اللطيف إبراهيم.

(٥) وثيقة الشيخ على الإيشادى رقم ٢٧٨، محفظة ٥٤، دار الوثائق، نشر عبد اللطيف إبراهيم.

٢ - أن أكثر الكتب عدداً يمكن وضعها تحت الموضوعات الشرعية واللغوية والأدبية وأن أقلها هي كتب الهندسة والكيمياء والجيولوجيا والحيوان والموسيقى. ومن ثم فإن التوازن بين الموضوعات مفقود بوجه عام في مجموعات تلك المكتبات. وإن كنا يجب أن نضع في الاعتبار إن ظروفها كانت تقتضى ذلك.

٣ - وجود العديد من الكتب في العلوم البحتة التطبيقية يدلنا على ازدهار الحياة العقلية والفكرية في ذلك العصر.

٤ - يوجد العديد من النسخ للكتاب الواحد، تصل إلى عشر نسخ مثل كتاب العمدة في الحديث.

٥ - أغلب هذه الكتب مذهب ومجلدة لا سيما المصاحف والريعات الشريفة. ولا غرو في ذلك فقد درج المماليك على العناية بالمصاحف والمخطوطات بتتبعها وتزويقها بالرسوم الهندسية والزخارف النباتية وتذهيبها بالمذهب واللازورد.

يتبين مما سبق أن المماليك قد وفروا لمكتباتهم جميع الموارد المادية والبشرية اللازمة لتقديم خدماتها لكافة فئات الشعب. فوفروا المبنى والتجهيزات المناسبة وخصصوا الأموال الوفيرة، وزودوها بأمناء مكتبات ومناولين ووراقين كانوا جميعاً رجال أدب وعلم وفضل، كما حرصوا على تزويد مكتباتهم بالآلاف المؤلفة من الكتب والمخطوطات في شتى أفرع المعرفة الإنسانية، ولضمان الاستفادة مما تحويه هذه المكتبات في أسرع وقت وأقل مجهود. كذلك اهتم المماليك بالناحية التنظيمية والإجراءات الفنية للمكتبة ليضمنوا نجاح مكتباتهم في تأدية رسالتها على الوجه الأكمل، وهو ما سنتناوله في الفصل التالي.

الفصل الثالث

النظم والإجراءات الفنية فى المكتبات المملوكية

- ١ - التزويد : سياسته ومصادره (الشراء - الوقف - الإهداء - النسخ).
- ٢ - الإجراءات الفنية الخاصة بإعداد المجموعات المكتبية للتداول : التسليم والتسلم - التسجيل والسجلات - الجرد - الفهرسة والفهارس - التصنيف.
- ٣ - الإجراءات الفنية الخاصة بصيانة المجموعات المكتبية : التجليد - الترميم.

المقصود بالنظم والإجراءات الفنية، تلك الوظائف التى تخضع فى أدائها لقواعد وإجراءات معينة ومقننة، تهدف إلى تزويد المكتبة بمجموعات الكتب المناسبة، ثم تنظيمها وإعدادها إعداداً فنياً ليسهل تناولها والإفادة منها، ويقوم هذا الفصل على ثلاثة محاور أساسية هى : التزويد ومصادره وإجراءاته، وتسجيل الكتب وجردها والفهرسة والتصنيف، ثم الصيانة والترميم والتجليد.

١- التزويد : سياسته ومصادره

ويعتبر التزويد الإجراء المكتبى الأول، حيث به تبدأ كل الإجراءات، وحوله تدور كافة العمليات من تسجيل وفهرسة وتصنيف وجرد وإعارة وغيرها من العمليات التنظيمية والخدمية. بل إن الكتب التى يتم اختيارها وتزويد المكتبة بها، هى التى تحدد بدرجة كبيرة مدى كفاءة المكتبة وقدرتها على تحقيق أهدافها. ومن ثم تبدو أهمية البناء الجيد لمجموعات المكتبة، إذ كلما كان التزويد يتم وفق سياسة مستقرة، وأسس رشيدة ومعايير مناسبة، ويقابل ذلك بالاحتياجات الأساسية لمجتمع المستفيدين من المكتبة واهتماماتهم القرائية، كلما كانت المكتبة أقدر على تقديم خدماتها، ومن ثم تحقيق أهدافها الإعلامية والتعليمية والتربوية.

وتبدو أهمية وجود سياسة مكتوبة وموثقة للتزويد فى أن تدوينها يساعد العاملين بالمكتبة على اتباع خطة مرسومة بهذا الخصوص، «وذلك أننا - دون سياسة مكتوبة - نتعود بلا شعور تطبيق مبادئ عامة معينة نكتسبها كنتيجة للخبرة والدراسة والاحساس العام، وهى جميعها تفتقر إلى الإطار العام الذى يلتزمها»^(١). كما ترجع أهمية كونها

(١) شعبان عبد العزيز خليفة : تزويد المكتبات بالمطبوعات، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١٢.

مكتوبة إلى استمرار تنمية المجموعات وفق خطة ثابتة لا تتغير بتغير العاملين بها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي لسياسة التزويد أن تكون مرنة وتراجع باستمرار نظرا لأنه قد تتغير أهداف المكتبة مع مرور الزمن.

إننا كانت بعض مكاتب مصر اليوم لا تملك مثل هذه السياسة المدونة للتزويد، فإن الممارسين كانوا أكثر وعيا وإدراكا لكيفية إداره مكباتهم، فقد عرفوا ما يشبه سياسة التزويد، وتمثل ذلك في وثائق الوقف، والتي وصلتنا منها أعداد كثيرة. فقد كانت هذه الوثائق بمثابة اللوائح التنظيمية للمؤسسات المملوكية وما تحتويها من المكاتب، فهي غالبا ما تتضمن الغرض من إنشائها، وتعيين الموظفين فيها، والصفات والدرجات العلمية التي يجب أن تتوفر فيهم، والمجالات الموضوعية التي يجب أن تغطيها مجموعة المكتبة من الكتب والتي عادة ما تتفق والبرامج التعليمية التي كانت تدرس بالمؤسسة الأم^(١).

وثمة تساؤل عن دور أمين المكتبة المملوكية في تزويد مكتبته بالكتب والمؤلفات، وهي مهمة تعتبر من أهم أركان العمل المكتبي، بل وأخطرها. وللأسف الشديد لم تزودنا المصادر التي تحت أيدينا بأية معلومات يمكن أن نتلمس من استنطاقها الإجابة على هذا التساؤل. غير أن وثيقة واحدة تذكر لنا أن الواقف أو ناظر الوقف من بعده هو الذي كان يقوم باختيار الكتب وشرائها ووقفها على المكتبة^(٢). وفي اعتقادنا أن ذلك كان يتم بالتشاور مع أمين المكتبة والمدرسين بالمدرسة، أو الأطباء بالبيمارستان، فهم غالبا أقدر على تحديد احتياجات المكتبة والنظام التعليمي الذي تقوم على خدمته بمثل هذه الكتب.

(١) راجع على سبيل المثال: وثيقة تغرى بردى، رقم ٩٨، محفظة ١٦، دار الوثائق، وثيقة أزبك من ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق؛ وثيقة حسام الدين لاجين رقم ١٧، محفظة ٣، دار الوثائق؛ وثيقة الجمالي يوسف، رقم ١٠٥، محفظة ١٦، دار الوثائق؛ وثيقة السلطان حسن، رقم ٨٨١ أوقاف وثيقة ببيرس الجاشنكير، رقم ٢٣، محفظة ٤، دار الوثائق؛ وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، وثيقة برسباي، رقم ٨٨٠ أوقاف؛ وثيقة الابشادي، رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، وثيقة المؤيد شيخ أوقاف رقم ٩٣٨، وثيقة صبر غنمش رقم ٣١٩٥ أوقاف؛ وثيقة خوند بركة، رقم ٤٧، محفظة ٧.

(٢) وثيقة الابشادي، رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم على.

وعلى أية حال، تعددت مصادر التزويد في المكتبات ما بين شراء ووقف واهداء ونسخ. ويمثل الشراء المصدر الرئيسى لتزويد المكتبات المملوكية بالكتب، وعلى وجه الخصوص المكتبات الخاصة. وفي الحديث عن «الآداب مع الكتب التى هى آله العلم»^(١) يوصى ابن جماعة طالب العلم بضرورة اقتناء الكتب المحتاج إليها شراءاً ما أمكنه ذلك، وإلا فنسخاً أو اعادة، وإذا أمكن تحصيلها شراء، لا يشتغل بنسخها إذا تعذر عليه ثمنها، أو أجرة استنساخها، ولا يستعير كتاباً مع إمكان شرائه.

ويسبب الإقبال على الكتب أهتم الوراقون بها كسلعة اقتصادية، فكان الكتاب يروج له ويشترى، ويقايس به. وقد ساعد على ازدهار تجارة الكتب أن مصر كانت مركزاً علمياً وثقافياً وتجارياً هاماً. وكانت الأسواق معلماً جوهرياً من معالم الحياة فيها، وكان لكل تجارة فيها سوقها الخاص بها. ومن ذلك سوق الوراقين^(٢) أو سوق الكتبيين. وكانت هذه الأسواق تفيض بالحياة والحركة العلمية. فلم تكن حوانيتها «مجرد دوراً للنسخ وإنما كانت مركزاً للنشاط العقلى ومستودعاً لكل ما أنتجته العقلية الإسلامية فى شتى فروع المعرفة»^(٣). من ذلك سوق الوراقين الذى كان بجوار المدرسة الأشرفية برسبای^(٤)، وسوق الكتبيين بالشارع الأعظم فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية النجمية، وكانت مجعاً لأهل العلم يترددون إليه كما يقول المقرئى^(٥). وتذكر وثيقة أريك من ططخ أن سوقاً آخر للكتبيين كان بخط خان الخليلي^(٦)، وكذلك وجد بمصر سوق كبير لتجارة الكتب فى أول

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، ص ١٦٣-١٦٧.

(٢) الوراقة- كما يعرفها ابن خلدون- هى عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين. ريتعبير اليوم نستطيع أن نقول إن الوراقة هى نشر الكتب والاتجار فيها، وأن حوانيت الوراقين كانت تقوم مقام دور النشر فى هذه الايام، كما كانت تقوم بدور المكتبات Bookshops من بيع الورق والأدوات الكتابية كالأقلام والمداد. راجع : ابن خلدون : المقدمة، ص ٩٦٣.

(٣) عبد الستار الحلوجى : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، ص ٣٤.

(٤) وثيقة برسبای، رقم ١٧٣، محفظة ٢٧، دار الوثائق، وثيقة برسبای، رقم ٨٨٠ أوقاف.

(٥) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ١٠٢؛ انظر ايضاً : ابن دقماق : الانتصار، ج ٤، ص ١٣.

(٦) وثيقة أريك من ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق.

زفاق القناديل بجوار جامع عمرو بن العاص، وقد استمر هذا السوق عامراً حتى سنة ١٣٧٨ هـ / ١٧٨٠ م وفقاً لرواية المقرئى (١).

والحقيقة أن تجارة الكتب أو الوراقة ظلت مزدهرة في هذه الأسواق على امتداد تاريخ دولة المماليك. وقد اشتغل بها علماء وأدباء وأجلاء نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى المعروف بالوطواط (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) وكان أديبا مترسلا، فكانت صناعته الوراقة وبيع الكتب (٢)، والشيخ عبد اللطيف بن عبد العزيز شهاب الدين (ت ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م) وكان فاضلا عارفاً في النحو واللغة والمعاني والبيان والقراءات وكان يتاجر في الكتب (٣) وعبد المؤمن بن عبد الرحمن عبد العزيز (ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م) الكاتب الذى قدم إلى القاهرة من حلب وتاجر فيها بالكتب فحصل منها مالا جماً (٤). وهناك أيضاً على بن داود الجوهري المعروف بابن الصيرفى (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)، وكان مؤرخاً تولى الخطابة ثم ناب فى القضاء وأبعد، فاتجه إلى سوق الجوهري واشتغل بنسخ الكتب وبيعها (٥). ومن رجال القرن الثامن الهجرى أيضاً الشيخ الفقيه على بن أحمد الخضر الأميرى أحد علماء الحنابلة، وصنف المؤلفات واشتغل فى تجارة الكتب، وكان له حانوته الذى يبيع فيه، وظل يعمل به حتى فقد بصره فكان يعرف أماكن الكتب فى حانوته بل كان إذا طلب منه المجلد الأول مثلاً من الكتاب الفلانى قام وأخرجه، وكان يحس الكتاب فيقول هذا يشتمل على كذا وكذا فلا يخطئ، فإذا كان الكتاب مثلاً بخطين قال بخطين (٦).

وممن تكسب بالوراقة ويسوق الكتبيين أيضاً محمد بن يوسف بن سليمان الكتبى

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) الزركلى : الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٨٨ .

(٣) العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١ .

(٤) المصدر السابق ، الجزء ، ص ١٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٧٣٨ - ٧٣٩ . وجدير بالذكر أن الدكتور حسن حبشى

قد قام بتحقيق ونشر اثنتين من مؤلفات ابن الصيرفى ، هما أنباء المصر بأبناء العصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، نزهة

النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، ٣ جزء - القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٦) العسقلانى : المصدر السابق ، الجزء ، ص ٩٠ .

الإمشاطى (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) ^(١) فيذكر السخاوى أنه «تكتب فى حانوت بيع الكتب دهرا وعرف بالخبرة التامة فيها. وكذلك موسى بن سليمان بن عبد الكريم الشافعى الكتبى (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٤م) ^(٢) الذى تكتب بالوراقة والكتب وبرع فى ذلك، ومحمد بن محمد الحريرى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ^(٣)، وحسين بن حسن الهودينى الكتبى (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) ^(٤) ومحمد بن على بن موسى البدر الماوردى (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) ^(٥)، وعبد اللطيف بن أحمد الحريرى الحنفى (ت ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م) ^(٦) وأحمد بن محمد الماردى (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) ^(٧)، وحسين بن على بن سالم الغوى (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٦م) ^(٨)، وأحمد بن محمد الكتبى (ت ٩/١٥م) الذى كان يبيع الكتب فى حانوته تحت المدرسة الصرغتمشية ^(٩).

ويبدو أن عملية الشراء من أسواق الكتب لم تكن مأمونة، اذ يذكر السخاوى فى ترجمته لمحمد بن محمد بن صلاح الدين الحنفى (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) إمام الصرغتمشية وأحد تجار الكتب فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) أنه كان يقوم بشراء الكتاب بالثمن اليسير ثم يكتب عليه بخطه أنه بخط فلان من مشاهير النساخ كابن البواب وذلك حتى يروج له، وقد يقع له الكتاب المخروم فيوالى بين أوراقه أو كراريسه بكلام يزيده من عنده، أو تكرير الكلام بحيث يتوهمه المبتاع قبل التأمل فيه وفحصه ^(١٠).

(١) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٨٢.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ٧٠.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٤.

(٥) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢١.

(٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٦.

(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥.

(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٧.

(١٠) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٤٨.

وقد شهدت أسواق الكتب المصرية إبان العصر المملوكى - مثلها فى ذلك مثل أسواق الكتب فى بغداد ودمشق وقرطبة وغيرها - فئة من الوراقين تخصصت فى الدلالة أو الترويج والدعاية للكتب. وقد عرفت هذه الفئة بدلالة الكتب، وكان من بينهم العالم والأديب. نذكر منهم على سبيل المثال سعد بن على أبو المعالى الأنصارى الخضيرى (عاش فى ق ٥٧هـ / ق ١٣م) المعروف بالدلال، وكان أديبا فاضلا شاعرا رقيق الشعر^(١). ومنهم أيضا محمد بن عمر بن محمد النشيلي (عاش فى ق ٥٩هـ / ق ١٥م) دلال الكتب^(٢). وكان لهذه الفئة أخلاقياتها أو آداب مهنتها، فيذكر السبكي أن من حق الدلال «ألا يبيع كتب الدين لمن يعلم أنه يضيّعها، أو ينظرها لانتقادها والطعن عليها، وألا يبيع شيئا من كتب أهل البدع والأهواء، وكتب المنجمين، والكتب المكذوبة... ولا يحل له أن يبيع كافرا له لا المصحف ولا شيئا من كتب الحديث والفقه»^(٣).

وكان النساخ هم المصدر الأساسى لتمويل سوق الكتب والوراقين باحتياجاتها. بل إن بعض النساخ كانوا يستأثرون بأعمالهم، فتكون لهم دكاكينهم الخاصة، ينسخون ويبيعون ما ينسخونه فيها. من هؤلاء ابن الوحيد، محمد بن شريف الزرعى (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) وكان يتقن النسخ كما يقول العسقلانى، وكانت أعماله رائجة تباع بأعلى الأثمان، ويبدو أن الطلب على أعماله كان متزايدا مما دفع به إلى شراء ما كان ينسخه بعض تلاميذه الذين كانوا يقلدون خطه ويكتب فى آخره اسمه ثم يبيعه بسعر مرتفع^(٤).

وكان بعضهم يضيف التذهيب إلى الكتب التى ينسخها فتباع بأثمان مرتفعة وتلقى رواجاً لدى الخاصة من الناس من هؤلاء محمد بن محمد بن بدار (ت ٨٢٣هـ / ١٣٢٣م)

(١) ياقوت الحموى : معجم الأديباء، ج ١١، ص ١٩٥.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١١، ص ٢٣١.

(٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٤٣.

(٤) العسقلانى : الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٧٣.

وهو من أبرع الذين اتقنوا تذهيب المصاحف^(١)، ومثله كان محمد بن شرف بن الكاتب (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) الذي اشتهر بجودة الخط وإحكام التذهيب^(٢)، وعبد الله بن علي الكازوني (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) وكان لغويا أديبا عرف ببراعة الخط واتقان الكتابة بالكوفي، واشتهر بتذهيب الأعمال التي ينسخها^(٣). على أية حال، كان عدد الذين يقومون بنسخ الكتب كبيرا جدا، وكانت أسواق الكتب تعتمد على إنتاجهم، وكانوا هم الممول الرئيسي لحركة تجارة الكتب في ذلك العصر.

ولقد جرت العادة أن تباع كتب العالم أو مالك الكتب الذي يموت، ولا سيما إذا كان أولاده لا يحبون الكتب أو ليسوا من أهل العلم، أو لم يكن له ذرية ذكورا، أو لغير ذلك من الأسباب. فقد باع ورثة محمد بن علي بن غانم كتب والدهم بعد موته (ت ٧٤٠هـ/١٣٧٩م)، وكان قد خلف منها الشيء الكثير، ووصل ثمن الكتب عند بيعها

(١) المسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣٥٢.

وجدير بالذكر أن دار الكتب المصرية تحتفظ بالعديد من المصاحف والمخطوطات المذهبة، التي ترجع إلى العصر المملوكي، وكانت ضمن موجود مكتبات ذلك العصر. وهذه المخطوطات والمصاحف لازالت تحتفظ بلونها. ورونها. من ذلك مصحف محمد بن قلاوون رقم ٤ مصحف دار الكتب المصرية؛ ومصحف رقم ٧٠ مصحف؛ ومصحف السلطان شعبان رقم ١٠ مصحف؛ ومصحف صرغتمش رقم ٩٠ مصحف؛ ورقم ١٥ مصحف؛ ومصحف خوند بركة أم السلطان شعبان رقم ٦ مصحف ومصحف الأمير قجماش الإسحاقى رقم ٧١ مصحف؛ وكتاب البرهان في متشابه القرآن لتاج القراء برهان الدين الكرمانى (ت ٥٠٥هـ/١١٠٩م) رقم ٥٠٩ تفسير؛ والجزء الثانى من كتاب «التكملة والزيل والصلة للصاغانى» (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م) وكان وفقا على المدرسة الصرغتمشية. وهو يحمل رقم ٣ لغة.

وعن التذهيب في المخطوطات العربية راجع عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي، ص ٢٢٥ - ٢٣٠، زكى حسن: الكتاب في الفنون الإسلامية، مجلة الكتاب، مج ٢ (١٩٤٦) ص ٢٥٥ - ٢٦٣، أبو الحمد محمود محمد فرغلى: تصاوير المخطوطات في عصر الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير لم تنشر بعد كلية الآثار - جامعة القاهرة، ١٩٨١م.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

إلى ثلاثين ألف درهما^(١). وباع ورقة ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م) أغلب ما جمعه والدهم في حياته من كتب، وكان قد جمع ما لا يحصر على حد تعبير العسقلاني، فظل أولاده يبيعون منها فترة طويلة^(٢). وكان مما بيع في تركة أبي بكر بن أحمد الشهبى (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) نحو سبعمائة مجلد^(٣). ويذكر السخاوى أم محمد بن محمد بن عبد الله الخضيرى (ت ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م)، اقتنى الكثير من الكتب. وبعد وفاته وضع ولده أحمد ديدنه عليها فباعها^(٤). ومنهم أيضاً إبراهيم بن أحمد بن الفرس (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م)، فقد بيعت كتبه بعد موته بأبخس الأثمان^(٥). كما بيعت كتب حسن بن على ابن سالم ظهير الدين (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م) بعد موته بالعدد لكثرتها^(٦).

وبسبب ضيق ذات اليد أو الحاجة إلى تسديد الديون أو الإفلاس، اضطر بعض العلماء وأصحاب المكتبات الخاصة إلى بيع كتبهم أو جانباً منها في سوق الكتب. وتضمن المصادر أخباراً كثيرة عن أناس باعوا كتبهم لتسديد ديونهم أو لمواجهة حالة الإعسار التى وقعوا فيها لسبب أو لآخر. نذكر منهم عبد الله بن على الصنهاجى (ت ٨٠٠هـ / ١٤٠٠م)، وكان من العلماء الأثرياء، اضطر بسبب إسرافه الشديد إلى بيع كتبه ليسدد ديوناً كانت عليه^(٧). وكان لأحمد بن عبد الرحيم بن حسين بن الحسين مكتبة خاصة باعها آخر أيامه بسبب الحاجة (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م)^(٨).

والمكان الطبيعى الذى كان يلجأ إليه البعض ببيع كتبهم هو سوق الكتبيين. والحقيقة أن العديد من السلاطين والأمراء والعلماء والأدباء وغيرهم - خاصة الأغنياء منهم -

(١) العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٤، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١١، ص ٢٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٤.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢، ١٣.

(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٠.

(٧) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٨) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٦٦.

حرصوا على أن تكون مكتباتهم شاملة فتنافسوا في شراء الكتب المعروضة للبيع. نذكر من هؤلاء الأمير يشبك بن مهدي الداودار. فقد ذكر صاحب «الضوء اللامع» أنه تحصل من الكتب النفسية شراء واستكتاباً^(١)، والأمير جمال الدين محمود الاستادار الذي اشترى خزانة كتب القاضي برهان بن جماعة من ورثته بعد موته عام ٧٩٠هـ/١٣٨٧م وكان بها حوالي أربعة آلاف مجلد، ووقفها على مكتبة المدرسة المحمودية^(٢)، وأيضاً جمال الدين يوسف الاستادار الذي اشترى الكثير من كتب مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين بن ابنة الملك الصالح المنصور حاجي بن الأشرف شعبان بعد هدمها بمبلغ ستمائة ديناراً ووقفها على مدرسته^(٣).

وكل شراء الكتب من ريع الوقف، من بين الوسائل لتزويد المكتبة بالمؤلفات لاسيما النادرة منها، والتي تحتاجها العملية التعليمية. اذ تذكر وثيقة الإيشادي ما نصه... وأن جميع ما يشتريه كاتبه لجهة وقفه المذكور ويكتب عليه علامة وقفه المنبه عليها ويضعه مع كتب وقفه المذكورة فيه مما تحت يده من مال...^(٤).

وهكذا أسهمت أسواق الكتب أو الوراقين من خلال عملية الشراء في تزويد المكتبات المملوكية بالمؤلفات في شتى أنواع العلوم والفنون والمعرفة. وبالإضافة إلى الشراء، كان وقف الكتب وحبسها على المكتبات مصدراً رئيسياً من مصادر تزويد المكتبات المملوكية بالكتب. وقد ارتبط وقف الكتب بنظام الوقف بصفة عامة. وتسابق السلاطين والأمراء والعلماء والتجار وتنافسوا في مجال الوقف عموماً. فكان هناك من يقف الأراضى والمباني والبساتين وكذلك الأثاث والتجهيزات والمجموعات، فضلاً عن تقديم الرواتب للعاملين بالمكتبة، وكان هناك من يقف الكتب كل حسب إمكانياته. ووقف الكتب هذا هو ما يعنينا هنا، بمعنى أنه لا يجوز التصرف فيها بعد وقفها بأي حال من الأحوال سواء كان ذلك بالبيع أو الشراء أو الأهداء أو غير ذلك من أنواع التصرف.

(١) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤.

(٢) راجع: الصقلاني- الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧ المقرري: الخطط ج ٢، ص ٤٠١.

(٤) وثيقة على الإيشادي رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر: عبد اللطيف إبراهيم، ص ٢٤.

وباستثناء المكتبات الخاصة يمكن القول إن معظم المكتبات المملوكية قامت على قاعدة الوقف، إنشاءً وتمويلًا وصيانةً. ويرد اسم الفقيه المحدث أبو الفتح محمد بن أبي بكر الكوفي (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٧م) على رأس قائمة رجالات الخير في مجال وقف الكتب والمؤلفات على دور العلم والمكتبات. فقد كانت له مكتبة خاصة وقفها على طلبة العلم وفقا لرواية العيني في «عقد الجمان»^(١). ومن ذلك أيضا الشيخ الفقيه يحيى عبد الوهاب الدمنهوري الذي وقف كتبه على الجامع الظاهر^(٢)، وأحمد بن هارون الشهابي الذي وقف كتبه على الجامع الأزهر^(٣). وقد حظى الجامع الأزهر. وقد حظى الجامع الأزهر على وجه الخصوص باهتمام الواقفين في هذا المجال. فقد وقف الشيخ على الإبراهيمي كتبه «على الفقراء والمساكين القاطنين بالجامع الأزهر»^(٤). كما وقف الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المغربي جزءا من مكتبته على طلبة العلم برواق المغاربة بالجامع الأزهر^(٥). ووقف كذلك الأمير ركن الدين ببيرس الجاشنكير نحواً من خمسمائة مجلدا في المعارف والعلوم المختلفة على الجامع الحاكمي^(٦).

وإذا كانت المساجد والجوامع المملوكية قد عجت مكتباتها بالكتب الموقوفة، وتنافس المسلمون وتسابقوا في وقف الكتب الشرعية وعلى رأسها المصاحف الشريفة، فقد تفننوا أيضا في كتابتها وتجليدها وزخرفتها كما يقول يوسف العشي^(٧). وقد شكلت الكتب الموقوفة جانبا كبيرا هاما من مقتنيات المكتبات المدرسية. ويحدد السخاوي على سبيل

(١) العيني : عقد الجمان، ج٢، ص ٥٥، وانظر ترجمته في : الذهبي : العبر، ج٥، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٢) السقلاني : الدرر الكامنة، ج٤، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع، ج٢، ص ٢٤٠.

(٤) وثيقة الإبراهيمي رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٣ - ١٤.

(٥) وثيقة عيسى الزواوي رقم ٢٥٣، محفظة ٤٠، ص ١٣.

(٦) وثيقة ببيرس الجاشنكير، رقم ١٣ محفظة ٤، النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ق ١، سنة ١٧٠٢، الصفدي : فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٩٠.

(٧) - YOUSSEF EL ECHE, LES BIBLIOTHEQUES ARABES, P. 7.

المثال حجم الكتب الموقوفة في المدرسة المحمودية بثلاثة آلاف مجلداً^(١) والحقيقة أننا قلما نجد مدرسة في العصر المملوكي إلا ووقف عليها العديد من الكتب الدينية وغير الدينية^(٢). من ذلك الأمير ببيرس البندقداري الذي وقف خزانة كتب على المدرسة الظاهرية، وقد حملت إليها الكتب في سائر العلوم والمذاهب^(٣)، والأمير قاني باي الرماح الذي وقف مجموعة من الكتب على خزانة مدرسته، يستدل على ذلك من وثيقة وقفه حيث ذكرت ما نصه: «... وأما الخلوتان اللتان بالايوان الكبير... معدة لخزن الكتب التي وقفها الواقف»^(٤).. كما وقف محمود بن محمود بن أحمد العنتابي كتبه على مدرسة كان قد بناها بالقرب من الجامع الأزهر^(٥)، ونفس الشيء فعله قاضي عسكر حيث وقف كتباً كثيرة على المدرسة التي كان قد بناها^(٦)، كما وقف الإمام ابن حجر العسقلاني خزانة كتبه الخاصة على المدرسة المحمودية قبل وفاته^(٧).

كذلك شكلت الأوقاف مصدراً رئيسياً من مصادر تزويد المكتبات الأخرى بالكتب من بيمارستانات وترب وقباب وخوانق وربط وزوايا. من ذلك ما ذكره المقرئزي، أن المنصور قلاوون كان قد وقف عدة أحمال من الكتب على القبة المنصورية^(٨)، كما وقف كتباً كثيرة في الطب وغيره على مكتبة البيمارستان المنصوري^(٩). ومن ذلك أيضاً المؤرخ ابن تغري بردي الذي وقف كتبه في مدفنه بالصحراء^(١٠)، كما وقف الأمير بكتمر الساقى

(١) السخاوي: الضوء الاعم، ج٥، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) راجع الفصل الأول ص ٨٠-٩٤.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج٣، ص٥٠٤، والخطط، ج٢، ص٣٧٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٠، ٢١٣؛ راجع ايضاً: محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر ببيرس، ص١٢٨.

(٤) وثيقة قاني باي الرماح: رقم ١٠١٩، أوقاف.

(٥) ابن فهد الهاشمي: معجم الشيوخ، ص٢٩٥.

(٦) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٥٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٢٢٨.

(٧) السخاوي: الجواهر والدرر، ورقة ٢٨٠، ظهر، وانظر الملحق الثالث بأخر الكتاب.

(٨) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٠، والسلوك، ج١، ص١٠٠١.

(٩) وثيقة المنصور قلاوون رقم ١١٠ أوقاف، نشر محمد أمين (ملحق تنكرة النبوة، ج١).

(١٠) وثيقة وقف ابن تغري بردي رقم ١٤٧، محفوظة ٢٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١، ص٩-٢٨.

السخاوي: الضوء الاعم، ج١٠، ص٢٧٤.

عددا من الكتب على تربيته^(١)، وابن أبي أصيبعة الذي وقف كتبه على مشهد أبي عروة، منها كتاب تاريخ الأطباء^(٢) في عشرة مجلدات وفقا لرواية العيني.

وعلى أى حال، فإن الواقف كان يحرص دائما على إثبات الوقف والإعلان عنه بتسجيل نص الوقفية على الكتاب نفسه. ومن دراستنا للمخطوطات العربية التي وصلتنا من العصر موضوع الدراسة، والتي كانت موقوفة على المكتبات، يلاحظ تفاوتاً واضحاً في الصيغ الوقفية ما بين نصوص وقفية قصيرة، يشار فيها إلى اسم الواقف وتاريخ الوقف والمكان الموقوف عليه، كما هو الحال بالنسبة للكتب والمصاحف التي وقفها السلطان محمد بن قلاوون على جامعة بالقلعة سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م، وجاء نص الوقفية على النحو التالي:

«أوقف هذا المصحف الشريف مولانا السلطان مالك الملك الناصر ابن مولانا السلطان سيف الدين قلاوون سقى الله عهدهما وجعل مقره بالجامع الكبير بالقلعة المنصورة وشرط أن لا يخرج من المسجد المذكور بوجه ما وقفنا صحيحاً شرعياً، فمن بد له بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، بتاريخ سنة ثلاثين وسبعمائنه^(٣)».

وزادت بعض النصوص الوقفية على ذلك شروطاً لإعارة الكتاب وتداوله. من ذلك نصوص الوقف المثبتة على مصاحف خوند بركة أم السلطان شعبان والتي كانت قد وقلتها على مدرستها، وجاء فيها:

«هذا ما أوقف الدار العالية المصونة المخدرة المحجبة خوند بركة والد مولانا المقام الشريف الأعظم السلطان الملك الأشرف أبو المظفر

(١) انظر نص الوقفية على ربة الأمير بكتمر الساقى، مصاحف دار الكتب، رقم ٧٢، وانظر أيضاً: الملحق الأول، لوحة رقم ٣ بآخر الكتاب.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٥، ولعل الكتاب المقصود هنا هو «عيون الأبناء في طبقات الأطباء».

(٣) انظر الملحق الأول، لوحة رقم ٢ بآخر الكتاب.

شعبان خلد الله ملكه وصان حجابها جميع هذا المصحف الكريم وقفا صحيحا شرعيا لينتفع به سائر المسلمين فى القراءة وغير ذلك من سائر وجوه الانتفاعات الشرعية وشرطت أن يكون مقر ذلك بالمدرسة المعروفة بإنشائها وعمارتها بظاهر القاهرة المحروسة بخط التبانة وشرطت ألا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يحرز قيمته وشرطت النظر فى ذلك لنفسها أيام حياتها ومن بعد وفاتها لمن تشتط النظر إليه يف ذلك من بعدها واشهدت عليها بذلك فى اليوم المبارك يوم الاثنين الثالث من شهر ذى القعدة الحرام سنة تسع وستين وسبع مائة هجرية^(١).

ومن ذلك أيضا نص وقفية الأمير جمال الدين محمود الاستادار على كتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي والذي وقفه ضمن مجموعته على مكتبة المدرسة المحمودية وجاء فيه:

«الحمد لله وحده، وقف وحبس وسبل المعز الأشرف العالى الجمال محمود الاستادار العالية الملكى الظاهرى أعز الله تعالى أنصاره وختم بالصالحات أعماله جميع هذا المجلد وما قبله من المجلدات من تاريخ الإسلام للذهبي بخط مؤلفه وعده ذلك إحدى وعشر مجلدا وقفا شرعيا على طلبة العلم الشريف ينتفعون به على الوجه الشرعى وجعل مقر ذلك بالخزانة السعيدة المرصدة لذلك بمدرسته التى أنشأها بخط الموازين بالشارع الأعظم بالقاهرة المحروسة، وشرط الواقف المشار إليه أن لا يخرج ذلك ولا شىء منه من المدرسة المذكورة برهن ولا بغيره، من بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان المكرم سنة سبع وسبعين وسبع مائة، حسبنا الله ونعم الوكيل.

شهد بذلك

شهد بذلك

عبد الله بن على البنتونى عمر بن عبد الرحمن الرماوى^(٢)

(١) أنظر المصحف، رقم ٦ مصاحف، دار الكتب المصرية.

(٢) أنظر الملحق الأول : لوحة رقم ٥ بآخر الكتاب، وأيضا أرقام ١، ٣، ٧، ٨، ٩، ١١، من نفس الملحق.

وقد تطول بعض هذه الوقفيات إلى أكثر من صفحة، وإن كنا لم نعثر على نص زاد عن عشرة أسطر، إلا أن المقرئ قد أورلنا نص وقفية لسان الدين بن الخطيب على المجلد الرابع من كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، كان قد وقفه في حياته على أهل العلم بمصر وجعل مقره بخانقاه سعيد السعداء، وأوكل إلى عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسي القيام بذلك نيابة عنه، وكان النص على النحو التالي:

«الحمد لله وحده، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى، الشيخ أبو عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسي نفع الله تعالى به عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلسي لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلماني فسخ الله تعالى في مدته، وفتح لنا وله أبواب رحمته، ومنحنا وإياه من رفته وعطيته وأسكننا وإياه أعالي جنته. جميع هذا الكتاب تاريخ غرناطة وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنه فوض إلى النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها، وشئونه جميعها، والنظر في أحواله على اختلافها، وتباين أجناسها، تفويضا تاما على العموم والإطلاق والشمول والاستغراق، لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الاسكندرية المحروسة، أدام الله تعالى أيامه، كمال الدين خالص أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربيع المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجة عام سبع وستين وسبعمائه، وقفنا شرعيا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخا مطالعة وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم الله. الله تعالى واقفها، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة، حرسه الله تعالى، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحل لأحد يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنه سائرا إلى ربه الكريم أن يبطله ولا شيئا منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، ان الله سميع عليم، ومن أعان على إبقائه على الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأشهد الواقف

الوكيل عليه في ذلك في الثامن والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة، انتهى،^(١).

وبلاحظ على هذه الوقفية، إلى جانب طول النص، اهتمام لا بأس به باللغة وبالاسلوب، فضلا عن استغراق يتجاوز قضية الوقف إلى اطالة قد لا يكون من ورائها أى طائل إلا شيئا في نفس الواقف. وكيفما كان الأمر فقد كان الوقف مصدرا من مصادر التزويد في المكتبات المملوكية.

وأما ثالث مصادر التزويد فكان الإهداء. والإهداء هو أن يتطوع شخص ما بأن يقدم للمكتبة نسخة أو نسخا، بل وأحيانا مجموعة من الكتب مجانا وبدون مقابل، توضع في المكتبة لخدمة روادها. وقد شكلت الكتب التي قدمت كهدايا أو هبات إلى المكتبات المملوكية من قبل بعض السلاطين والأمراء والعلماء والفقهاء، جانبا كبيرا وهاما من مقتنيات هذه المكتبات، وإن لم يصل حجمها حجم الكتب المشتراه أو الموقوفة، وكان من بين هذه الكتب ما يمثل قيمة فنية وعلمية كبيرة، كأن يكون الكتاب نسخة نادرة، أو مسودة بخط مؤلفها. ومن ذلك ما ذكره عبد الوهاب عزام من أن الشاه إسماعيل الصفوى كان قد أهدى المكتبة السلطانية الغورية مجموعة من الكتب منها كتاب «تاريخ التتار»^(١) ومن ذلك أيضا ما أورده المقرئى من أن الشيخ ناصر الدين محمد البارزى، كاتب الأسرار الشريفة^(٢) زمن المؤيد شيخ، كان قد قدم إلى الجامع المؤيدى عند افتتاحه خمسمائه مجلداً. على سبيل الإهداء. قيمتها ألف ديناراً^(٣)، وكانت الكتب التي تأتي المكتبة عن طريق الإهداء غالبا ما تحبس حفظا لها من الضياع ولينتفع بها أهل العلم.

(١) المقرئى، أحمد بن محمد نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، بيروت - دار صادر، ١٩٧٨، ج ٧، ص ١٠٣-١٠٥.

(١) عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى، ص ٤١.

(٢) كاتب السر: هو أحد المصطلحات المملوكية وهو اسم آخر لصاحب ديوان الإنشاء ووظيفته التوقيع عن الملك وهو يدل على أن هذا الكاتب كانت بحكم عمله على علم بأسرار الدولة. راجع: السبكى: معيد النعم ومبيد اللقم، ص ٣٠، القلقشندي صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٢، وأيضا الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف: ج ٢، ص ٩٢٢.

(٣) المقرئى: الخطط ج ٢، ص ٣٢٩، راجع أيضا: السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢، ص ١٩٤.

ولتزويد المكتبات بالمؤلفات التي لا يتوقف سيلها، كان عمل النساخ في داخل المكتبات. فعن طريق النسخ كانت المكتبات المملوكية تحصل على كتب قد لا تحصل عليها بالطرق أو المصادر الأخرى من شراء ووقف وإهداء. فضلا عن الحصول على ما تحتاجه المكتبات. لاسيما المدرسية منها. من نسخ من الكتاب الواحد لأغراض العملية التعليمية. وقد مر بنا في الفصل السابق^(١) أن بعض المكتبات وجد بها النساخ لنسخ ما يطلب منهم بأجر يدفع بهم من ريع الوقف. كما كان يقوم بعض الطلبة والصوفية بنسخ الكثير من الكتب، وكان لهذه المهنة آدابها وأخلاقياتها. فيذكر صاحب «معيد النعم» أنه ينبغي على الناسخ مراعاة الدقة والتأني أثناء الكتابة، وأن يلتزم الأمانة في النقل^(٢) والأكثر من هذا ينبغي عليه إذا نسخ شيئا من القرآن أو العلم الشريف أن يكون على طهارة مستقبل القبل^(٣). ومن هؤلاء النساخ محمد بن عبد الرحيم بن علي بن عثمان الجمال الذي تكسب بالنسخ بحيث كتب كثيرا^(٤)، والشيخ شرف الدين السراني الذي عمل ناسخا بالمدرسة الأشرفية برسباي. إذ تذكر وثيقة وقف السلطان برسباي ما نصه «... ويصرف للشيخ شرف الله موسى المكتب الرومي في كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة دراهم أو ما يقوم مقامها من النقود، وفي كل يوم من الخبز القرصة المذكور ثلاثة أرطال»^(٥)، وذلك نظير نسخه للكتب بالمدرسة المذكورة وتعليمه لأرباب الوظائف رسم الكتابة^(٦).

ولا شك أن هذه المكتبات. فيما نعتقد. كانت تزود نساخها بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات ومحابر وأقلام. وكانت هناك طريقتان للنسخ الأولى أن يقوم الناسخ بالنسخ من المخطوطات مباشرة بنفسه دون مساعدة أحد، وبعد فراغه يراجعه غيره للتأكد من صحة ما نسخ وأنه لم يهمل ولم يقفز من على السطور. وأما الطريقة الثانية فهي أن يجلس عدد

(١) راجع ص ١٥٦ من الفصل الثاني

(٢) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٣١-١٣٢.

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص ١٧٣.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٦.

(٥) وثيقة برسباي ، رقم ٨٨٠ أوقاف.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع، ج ٣ ص ٢٩٨.

من النساخ فى أماكنهم وأن يملأ عليهم شخص آخر من مخطوط أريد الحصول على عدة نسخ منه، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجرى المقابلة^(١).

وإذا كانت هناك مكتبات مملوكية اعتمدت على الشراء أو الوقف كمصدر وحيد لبناء مجموعاتها من الكتب، فإن هناك مكتبات اعتمدت على النسخ كمصدر وحيد على الأقل أساسى. من ذلك مكتبة السلطان الظاهر خشقدم حيث تجمعت لديه خزانه كتب معتبرة كان معظمها بخط يده. كذلك نسخ السلطان حسن بن قلاوون العديد من الكتب بخط يده ووضعها فى خزانته^(٢).

وهكذا يتبين مما سبق أن المكتبات فى مصر إبان العصر المماليكى قد اعتمدت على روافد أربعة فى تزويدها بالكتب، يأتى فى مقدمتها الشراء والوقف، حيث كان المصدرين الرئيسيين يدعهما مصدرين آخرين هما الإهداء والنسخ. وبفضل هذه الروافد الأربعة اقتنت هذه المكتبات الكثير من المؤلفات، ولم يكن لمثل هذه المكتبات أن تؤتى ثمارها المرجوه وهى الإفادة من محتوياتها بالقراءة والاطلاع ما لم تكن على درجة كبيرة من الإعداد الفنى والتنظيم. ويقصد بالتنظيم هنا كافة الإجراءات المادية والفنية المتعلقة بتسجيل الكتب وفهرستها وتصنيفها وترتيبها على الرفوف. فكما كان هناك اهتمام بالتزويد وسياسته ومصادره كذلك كان هناك اهتمام مواز بتنظيم مجموعات هذه المكتبات ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها^(٣).

٢- الإجراءات الفنية الخاصة بإعداد المجموعات للتداول :

وقد جرت العادة أن تبدأ الإجراءات الفنية الخاصة بإعداد الكتب للتداول بعد تسليم أمين المكتبة لها^(٤). بتسجيل هذه الكتب فى سجلات خاصة أعدت لهذا الهدف، بقصد إثبات ملكية المكتبة لها من ناحية، ولكى تستخدم لأغراض الجرد والمتابعة والمراجعة من

(١) راجع محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام، ص ١٧٣ - ١٧٦.

(٢) أنظر ص ٢٠ من الفصل الأول.

(٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة، ص ٥٤ - ٥٥.

(٤) راجع ص ١٧٧ من الكتاب وما بها من مصادر.

ناحية أخرى. وكان سجل الكتب هذا يعرف بالثبوت أى القائمة، ويبدو أن هذا الإجراء كان معروفاً فى المكتبات الإسلامية السابقة على العصر المملوكى، وأن الممالك ورثوه عنهم. من ذلك ما ذكره ابن الجوزى «لقد نظرت فى ثبت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على ستة آلاف كتاباً»^(١). وما ذكره ابن الساعى أنه ينبغى على خازن كتب المدرسة الحنفية (أبو حنيفة النعمان) «أن يثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها»^(٢). وأما المكتبات المملوكية فتذكر وثيقة الغورى ما نصه «..... ويسلمه جميع ما فيها من الكتب من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وديع وأصول وفقه وغيرها بغرض يجعل الناظر نسخة عنده»^(٣). ويدل هذا النص على أن الخازن كان يتسلم الكتب ويقوم بتسجيلها فى سجلات أعدت لذلك، على أن يحتفظ الناظر على الوقف بنسخة عنده لأغراض الجرد والمراجعة. وقد قام أيضاً كل من الإيشادى والزواوى بتسجيل محتويات مكتبتهما من الكتب فى سجلات، وذلك قبل وقفهما على الجامع الأزهر. واستخدمت هذه السجلات لأغراض التسليم والتسلم والجرد وإثبات الوقف.

وثمة تساؤل عن البيانات التى كانت تسجل فى الثبوت أو السجلات عن كل كتاب، وكيف كانت ترتب هذه البيانات داخل الثبوت. والإجابة على هذا ليست بالأمر الهين، خاصة أنه لم تصلنا سجلات أو ثبوت يمكن أن نخضعها للدرس والتحليل. كما أن المصادر التى تحت أيدينا لم تتناول موضوع السجلات والتسجيل إلا عرضاً. ولكن أياً كان حجم ونوع البيانات التى كان يتم تسجيلها عن كل كتاب وطريقة ترتيبها، فإن الذى يعنينا فى المقام الأول هو وجود التسجيل والسجلات من عدمه، والهدف من إعدادها واستخدامها.

كان يتم التسجيل عادة لأغراض الجرد والمراجعة حسبما أسلفنا. والجرد هذا من الألفاظ الحديثة، وفى العصر المملوكى استخدمت كلمة أخرى تدل على كل ما له صلة بالكتب وتقويمها أو ترتيبها أو جردها وغير ذلك وهى «الاعتبار»^(٤). وكان بعض

(١) ابن الجوزى : صيد الخاطر، ج ٣، ص ٦٠٧ - ٦٠٨.

(٢) ابن الساعى : الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعبر السير، بغداد، ١٩٣٤ ج ٩ ص ٢٣٣، ٢٣٦.

(٣) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٤) انظر ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص ٥٢٩ - ٥٣٠.

الواقفين والنظار يقومون بجرد الكتب للتأكد من سلامتها بين حين وآخر، بشكل فجائي فإن وجد فيها نقص كان يعاقب أمين المكتبة بالتعزير أو بتغريمه بدفع قيمة ما ضاع من كتب^(١). فقد أورد السخاوى رواية تستدل منها على ذلك، حيث يقول فى ترجمته لعثمان فخر الدين البكرى التلاوى القاهرى (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م) خازن الكتب بالمدرسة المحمودية أنه «استقر فيها بعد عزل السراج عمر أمام واقفها بتفريطه.... واختبرت فنقصت نحو مائة وثلاثين مجلدة. واستمر الفخر. أى عثمان فخر الدين. يباشرها بقوة وصرامة وجلادة وعدم التفات إلى رسالة لكبير أو صغير.. إلى أن رفع فيه شخص أنه يرتشى فى السر فاختبرت الكتب وفهرست فنقصت العشر سواء لأنها كانت أربعة آلاف مجلدة فنقصت أربع مائة فألزم بقيمتها فقومت بأربع مائة ديناراً فباع فيها موجوده وداره^(٢) كما يروى السخاوى أن على بن أحمد القرشى القلقشندى خازن الكتب بالمدرسة الأشرفية برسباى «أنه حضر مبيع كتب مخلفة من بعضهم ومن جملتها «لسان العرب» فى اللغة بخط مؤلفه فلم يتبين إليه أحد، فرام أخذه لحسن موقفه عنده وزاد فيه فانتدب عند ذلك للزيادة من بعض الأعيان بحيث بلغ ثمناً كبيراً لا يستطيع الشيخ الوفاء به، وخشى من الزيادة ثمنه فى الحال فلا يقدر فأعرض عنه مع تعلق خاطره به، فلما صارت إليه هذه الوظيفة كانت النسخة بعينها أول شىء أخرج له حين التسليم والعرض، والأعمال بالنيات^(٣). ومن هاتين الروايتين نقف على أن إجراءات التسليم والتسلم وجرد المكتبة كانت متبعة فى المكتبات المملوكية.

وإذا كانت الثبوت أو السجلات قد أعدت لإثبات ملكية المكتبة لمجموعاتها من الكتب ولأغراض الجرد والتسليم والتسلم فى نفس الوقت، فإن الفهارس كانت تعد لتيسير استخدام هذه الكتب والوصول إليها بسهولة وسرعة من جانب المستفيدين والعاملين على السواء. والفهرس هو نتاج عملية الفهرسة، وهو لفظ فارسى معرب، إذ يعنى الفهرست

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك بالتفصيل ص ٣٤ من الفصل الثانى.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٥ ص ١٤٣-١٤٤. وأنظر الملحق الثالث بآخر الكتاب.

(٣) المصدر السابق ج ٥ ص ١٦١ التبر المسبوك، ص ٤٢-٤٥.

بالفارسية: الكتاب الذى تجمع فيه أسماء الكتب^(١)، أى ثبت أو قائمة بما تحتويه المكتبة من مؤلفات. ولقد فطن المماليك إلى أهمية دور الفهرس فى المكتبة^(٢)، فحرصوا على إعداد الفهارس لمكتباتهم لاسيما كبيرة الحجم وعدد الكتب. فيذكر السخاوى فى ترجمته لابن حجر العسقلانى أنه عندما تولى خزن الكتب بالمدرسة المحمودية «عمل لها فهرسا على الحروف فى أسماء التصانيف ونحوها وآخر على الفنون»^(٣). وعلى الرغم من أن هذا الفهرس لم يصل إلينا، إلا أننا نستنتج من هذه الإشارة وجود نوعين من الفهارس استخدمت فى المكتبة المحمودية هى فهرس هجائى بعناوين أو أسماء الكتب وفهرس بالموضوع. والسؤال عما إذا كان الأخير مصنفا أم هجائيا بالموضوعات وماهى البيانات البليوجرافية التى كانت تعطى عن كل كتاب، وكيفية ترتيبها. ولم تزودنا تلك الإشارة بما يشفى الغليل بهذا الخصوص.

ويتحدث الغزى عن مكتبة عبد الله يعقوب التى بلغت عشرة آلاف مجلداً فيقول: «وجعل لها فهرساً مجلداً مستقلاً يذكر فيه الكتاب ومؤلفه»^(٤). وعلى الرغم من أن هذا

(١) راجع: ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص ١٦٧، راجع أيضاً أدنى شير: كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٨، ج ٢٢.

(٢) جدير بالذكر أن الفهرسة تعتبر من أقدم العمليات الفنية المكتبية، فقد صاحبت نشأتها بداية نشأة المكتبات. فقد وجدت فهارس لمكتبات آشور بانيبال بالعراق القديم، ومكتبة الإسكندرية بمصر البطلمية، كما وجدت فهارس لمكتبات الأديرة والكنائس فى أوروبا فى العصور الوسطى. وأما العصر الإسلامى الوسيط فقد وجدت فيه العديد من الفهارس منها فهرس مكتبة بيت الحكمة فى بغداد زمن الخليفة العباسى الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩)، ومكتبة عضد الدولة البويهى (٣٧٢هـ/٩٨٢م)، ومكتبة بخارى التى كان يرتادها الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ/٩٨٠-١٠٣٧م) ومكتبة المدرسة النظامية ببغداد، ودار العلم بطرابلس زمن ولاية بنى عمار (ق ٥٥هـ-١١٠م)، ومكتبات الفاطميين بمصر، ومكتبات الامويين بالأندلس، وكانت هذه الفهارس وغيرها. فيما نعتقد - يغلب عليها وظيفة قوائم الجرد أكثر من فهارس الإتاحة. راجع: شعبان عبد العزيز خليفة الفهرسة والفهارس عبر التاريخ، فى كتابه: الفهرسة الوصفية للمكتبات، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٧، ص ١٢-٣٨.

(٣) السخاوى: الجواهر والدرر، (مخط)، ورقة رقم ٧٨٢، راجع الملحق الثالث بآخر الكتاب.

(٤) الغزى: الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة، ج ٢، ص ١٨٨.

الفهرس لم يصل إلينا، ورغم ايجاز عبارة الغزى، إلا أننا نضع أيدينا على شكل هذا الفهرس المستخدم فى تلك المكتبة، وهو كالكتاب يرجع إليه الطالب لأغراض التعرض على محتويات المكتبة. فقد صرحت العبارة بذلك «فهرسا مجلدا مستقلا»، كما دلتنا هذه العبارة أيضا على البيانات البيليوغرافية التى كانت تسجل عن كل كتاب وهى عنوان الكتاب واسم مؤلفه.

وفى وثيقة^(١) ترجع إلى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م نجد فهرسا لمكتبة خاصة أوقفها صاحبها الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوى على مكتبة الجامع الأزهر. وقد رتب هذا الفهرس ترتيبا مصنفا برؤس موضوعات واسعة، وإن لم يبرز هذه الرؤس فى سطور مستقلة أو تمييزها، بل يسمى الموضوع ثم يسرد الكتب فيه. وقد حصر محقق وناشر الوثيقة الدكتور عبد الله إبراهيم الموضوعات على النحو التالى: القرآن الكريم والتفسير (سطره)؛ القراءات (سطر ٦)؛ الحديث ومصطلحه (سطر ٧)؛ التصوف (سطر ٨)؛ الفقه (سطر ١٠)؛ أصول الفقه (سطر ١٧)؛ الفرائض والحساب (سطر ١٩)؛ النحو (سطر ٢١)؛ أصول الدين (التوحيد) (سطر ٢٧)؛ المنطق (سطر ٣٠)؛ الطب (سطر ٣٠-٣١)؛ التاريخ (سطر ٣٢)؛ اللغة (سطر ٣٢).

ومن دراستنا لهذا الفهرس يمكن أن نخرج بالمؤشرات التالية:

- ١ - جاء ترتيب الفهرس موضوعيا، وتحت الموضوع يسرد الكتب بدون نظام محدد.
- ٢ - تضمن كل كتاب البيانات البيليوغرافية الآتية: الكلمات الدالة فى عنوان الكتاب وليس العنوان الكامل، عدد الأجزاء، وأحيانا عدد النسخ من كل كتاب.
- ٣ - يذكر اسم المؤلف أحيانا، ويكتفى غالبا بالجزء الأشهر فقط دون ذكر الاسم كاملا. وأحيانا يكتفى بذكر اسم المؤلف عوضا عن عنوان الكتاب، وأحيانا أخرى كان يكتفى بعنوان الكتاب دون ذكر اسم المؤلف.

(١) وثيقة عيسى الزواوى رقم ٧٨، محفظة ٢٨، دراسة وتحقيق ونشر عبد اللطيف إبراهيم، ١٩٦٢.

٤- يخلو الفهرس من علامات الترقيم^(١).

نذكر مثالا من هذا الفهرس بما جاء في سطور ١٠ - ١٦ ، والتي يتحدث فيها عن كتب الفقه ، وهو يلقي الضوء على جميع الملاحظات السابقة .

... كتب الفقه المدونة كاملة في جزء التقيد على المدونة للغرياني في جزء ثلاث تقاييد على المدونة لم يعرف مؤلفهما في ثلاث أجزاء لابن يونس جزآن على المدونة ابن الحاجب الفرعى نسختان شرح ابن الحاجب لابن عبد السلام ستة اجزاء التوضيح على ابن الجاحب أربعة اجزاء شرح ابن الجاحب للثعالبي ثلاثة اجزاء جزء واحد للقاشاني التلقين جزء شرح التلقين ثلاثة اجزاء عيون المسائل جزء المختصر للشيخ خليل أربع نسخ شرح المختصر ليهرام نسختان أربع مجلدات جزء واحد من يهرام الرسالة لابن ابي زيد أربع نسخ شرح الرسالة لابن ناجي جزء وجزء ثالث من كلام الجزولى على الرسالة جزء ثالث من شرح ابن جلاب شرح البيوع للقباب في جزء للقباب جزء مجموع للطليطلى^(٢) . وما قيل عن كتب الفقه ينسحب على بقية محتويات هذا الفهرس .

وفى وثيقة أخرى ترجع إلى عام ٩١٩هـ / ١٥١٢م نصادف فهرسا لمكتبة خاصة أوقفها صاحبها الشيخ على الإبرشادى على الجامع الأزهر أيضا . ويبدأ الفهرس من السطر الثانى والعشرين من الوثيقة وينتهى فى السطر الثالث والستين . ومن دراسة هذا الفهرس نخرج بالمؤشرات التالية :

- ١ - ليس هناك طريقة معينة استخدمها الفهرس فى ترتيب الكتب ، وإن كان هناك حرص على ذكر القرآن الكريم وتفسيره وعلومه أولا ، ثم كتب الحديث ثم الفقه ...
- ٢ - البيانات الببليوجرافية التى يسجلها عن كل كتاب غير موحدة وغير منتظمة كالفهرس السابق . فهو يعطى هنا عنوان الكتاب واسم المؤلف أحيانا ، وعدد المجلدات وعدد النسخ أحيانا .

(١) راجع : شعبان عبد العزيز خليفة ، المصدر السابق ، ص ٢٣

(٢) وثيقة على الإبرشادى رقم ٢٧٨ ، محفظة ٤٣ ، دراسة وتحقيق عبد اللطيف إبراهيم ، ١٩٦٢ .

٣ - يتميز هذا الفهرس عن سابقة بأنه يذكر أحيانا الحالة المادية للكتاب مثل «مصحف شريف حمايلي يجلد أحمر».

٤ - يخلو هذا الفهرس كسابقة من علامات الترقيم^(١).

ونذكر فيما يلي مثالا من هذا الفهرس مما جاء فى سطر ٣٦ - ٣٨ من الوثيقة:

.... ومجموع فيه معين الحكام وما معه مجلد وتفسير المنامات جزء كبير مجلد والمستجاد مجلد ومجموع فيه الازوردية مجلد وفتوح مصر مجلد وشواهد العينى الصغرى مجلد وحاشية المغنى للدمامينى مجلد ودولة الإسلام للذهبى مجلد وزيله السخاوى مجلد والشفاء مجلد وسراج الملوك مجلد وشرح الموطأ مجلد وابن عقيل مجلد والانتفاء للقرافى مجلد والقدرى حمايلي مجلد والشامل ليهرام مجلد وحيوة الحيوان مجلد^(٢).

والحقيقة أن هذه الفهارس التى أوردنا مثالا لها وغيرها من فهارس العصر الإسلامى الوسيط، بما فى ذلك عصر سلاطين المماليك، كان يغلب عليها وظيفة قائمة الجرد أكثر من قائمة الإيجاد^(٣) حسبما أسلفنا، حيث كانت هذه وظيفة قائمة الرف التى تلصق على مدخل كل قسم أعلى الرفوف^(٤). فغالبا ما كان ينصب الاهتمام أساسا فى هذه الفهارس على ذكر عدد الكتب وعدد المجلدات والأجزاء من كل كتاب، مع عدم الاهتمام بذكر أماكن تواجد الكتب بالمكتبة. وعلى الرغم من أن البيانات البليوجرافية كانت مختصرة بشكل واضح وتخلو من علامات الترقيم إلا أنها كانت تحوى كل التفاصيل المطلوبة فى ذاك الوقت للتعرف على الكتب فى سهولة ويسر.

(١) راجع : شعبان خليفة : المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) وثيقة على الإبدادى رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، دراسة وتحقيق عبد اللطيف إبراهيم، ١٩٦٢، ص ٤٥ - ٤٦.

(٣) راجع حاشية رقم ٢، ص ١٧٩ من هذا الفصل.

(٤) يذكر المقرئ أن الفاطميين عرفوا هذا النوع من الفهارس حيث كانت خزنة القصر مصنفة إلى موضوعات، لكل موضوع توضع كتبه فى خزنة وعلى كل خزنة علق لائحة مثبت فيها ما فى الخزنة من كتب، ومن المرجح أن المماليك قد عرفوا هذه الطريقة عن طريق الفاطميين. راجع : المقرئ : الخطط، ج ٢ ص ٢٥٤.

وعادة ما يرتبط الحديث عن الفهرسة بالحديث عن التصنيف، ذلك لأنهما شقين لعملية واحدة هي التنظيم أو الاعداد الببليوجرافى. ويقصد بالتصنيف «تجميع الكتب ذات الموضوع الواحد فى مكان واحد، تسهيلا لتناولها من قبل رواد المكتبة من قراء وباحثين وغيرهم، ومن قبل العاملين بالمكتبة كذلك. وخاصة المناولين. والتصنيف بهذا المعنى وجد فى المكتبات العربية فى العصور الوسطى^(١) بما فيها مكتبات العصر المماليكى. ولو أن كلمة تصنيف لم تستخدم للدلالة عليه، إلا أنه استخدمت كلمات أخرى بديلة توحى بنفس المعنى كالترتيب أو التنظيم أو الاعتبار أو تفصيل الفنون أو العلوم أو غير ذلك من مصطلحات العصر.

ولم تتضمن المصادر الخاصة بتاريخ مصر إيان العصر المملوكى أى إشارات نستدل منها عن وجود نظام أو نظم خاصة للتصنيف تم تطبيقها واستخدامها بشكل عملى فى المكتبات المملوكية لتنظيم مجموعات من الكتب، وإن زخرت فى الوقت نفسه بالحديث عن الكتب، والمؤلفات التى تصنف العلوم - من الناحية النظرية - مثل إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد للأكفانى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، وموسوعات العلوم للبسطامى (٨٨٩هـ / ١٤٨٤م)، وإتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٦م) وإنموذج العلوم للدوانى، (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) وغيرها كثير.

وكتاب «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» للأكفانى^(٢) - مثلاً - يعكس نظرة بعض علماء ذلك العصر ومنهم الأكفانى للعلوم، وتعاملهم معها وتنظيمهم لها، خاصة وأنه عاش فى القاهرة ودرس الطب فى جامع ابن طولون والبيمارستان المنصورى. وقد بدأ المؤلف كتابه بمقدمه^(٣) تحدث فيها عن شرف العلم وشروط التعليم، وضمنها أسماء بعض

(١) من ذلك مكتبات الفاطميين فى مصر حيث كانت مصنفة موضوعياً كما أشرت سلفاء. فقد ذكر أبو شامة عند عرضه لنهاية هذه المكتبات أن الكتب قد أخرجت من أماكنها وخزائنها و«اختلط أدبيها بنجومها، وشرعها بمنطقها، وطبها بهندسها وتواريخها بتقاسيرها» راجع: أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٦٨.

(٢) السجائى، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى الأكفانى: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤ - ٣٢.

المؤلفات فى التاريخ والآدب التى يرى أن أولى واجبات المتعلم أن يدرسها . ثم عقد فصلا بعنوان حصر العلوم قسم فيه العلوم إلى قسمين رئيسيين هى : العلوم المقصودة لذاتها ، والعلوم المقصودة لغيرها ، وكل قسم فرعه إلى فروع ، ثم بدأ فى بسط الفروع ، وذلك بذكر العلم ثم تعريفه وموضوعه ومنفعته مع الإتيان بتماذج مختارة من الكتب المؤلفة فيه ما بين مختصرات ومتوسطات ومبسوطات . وقد جاءت خطته لتصنيف المعرفة على النحو التالى :

أولا - العلوم المقصودة لذاتها ، وهى نوعان :

١ - العلوم الحكمية النظرية وتشتمل على ثلاثة فروع :

(أ) العلمى الألهى والعلوم الشرعية ، وهى علم النوايس - علم القراءات - علم رواية الحديث - علم التفسير - علم دراية الحديث - علم أصول الدين - علم اللغة - علم الجدل - علم الفقه .

(ب) العلم الطبيعى ويشتمل على عشرة فروع هى : علم الطب - علم البيطرة - علم الفراسة - علم تعبیر الرؤيا - علم أحكام النجوم - علم السحر - علم الطلسمات - علم السيماء - علم الكيمياء - علم الفلاحة .

(ج) العلوم الرياضية وتشتمل على : علم الهندسة - علم عقود الأبنية - علم المناظر - علم المرايا المحرفة - علم مراكز الأثقال - علم المساحة - علم أنباط المياه (أى استخراجها) - علم الأثقال - علم البنكومات - علم الآلات الحرية - علم الآلات الرومانية - علم الهيئة - علم الزيجات والتقاويم - علم المواقيت - علم الأرصاد - علم تستطیح الكرة - علم الآلات الظلية - علم العدد - علم الحساب المفتوح - علم حساب التخت والميل - علم الجبر والمقابلة - علم حساب الخطأين - علم الدور والوصايا - علم حساب الدرهم والدينار - علم الموسيقى .

٢ - العلوم الحكمية العملية وتشتمل على ثلاثة فروع أيضا :

(أ) علم السياسية .

(ب) علم الأخلاق.

(ج) علم تدبير المنزل.

ثانيا - العلوم المقصودة لغيرها وهى نوعان كذلك :

١ - علم الآداب (وهى العلوم العربية) وتنحصر فى عشرة علوم هى :

(أ) علم الأدب.

(ب) علم اللغة.

(ج) علم التصريف.

(د) علم المعانى.

(هـ) علم البيان.

(و) علم البديع.

(ز) علم العروض.

(ح) علم القوافى.

(ط) علم النحو.

(ى) علم قوانين الكتابة.

(ل) علم قوانين القراءة.

٢ - علم المنطق (١):

وينضح من دراسة هذه الخطة التصنيفية أن الأكفانى قد تأثر فى بناء خطته بنظرية الفارابى فى تصنيف العلوم التى صرح بها فى كتابه (إحصاء العلوم) (٢) وقد جعلها على قسمين هما:

(١) السجارى: المصدر السابق، ص ١٤، ٣٢.

(٢) الفارابى: إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨.

١ - العلوم النظرية وتشمل:

العلم الرياضى - العلم الطبيعى - العلم الإلهى .

٢ - العلوم العلمية وتشمل:

علم الأخلاق - علم السياسة .

والقسم الأول يقابل «العلوم الحكمية النظرية، عند الأكفانى بنفس فروعها، بينما يقابل القسم الثانى «العلوم الحكمية العملية، بنفس فروعها أيضا.. لكن الأكفانى زاد فى عدد العلوم وفصلها . وبعد تصنيف الأكفانى هذا من أقرب نظم التصنيف العربية إلى النظم الحديثة، ذلك أنه اعتمد على مسح بليوجرافى للكتب وليس مجرد التقسيم الفلسفى المجرد للمعرفة . لذلك اعتبره محمد فريد وجدى التصنيف المعتمد عند العرب، وذلك عندما تحدث عن العلم عند العرب فى مادة علم فى «دائرة معارف القرن العشرين»^(١) . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن معظم من أتى بعد الأكفانى مثل القلقشندى، وطاش كبرى زاده قد تأثروا بتصنيفه للمعرفة . فقد عقد القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى، فصلا»^(٢) بعنوان «المقصد الثانى فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهود من الكتب المصنفة فيها ومؤلفيهم»^(٣) . وهو تلخيص لكتاب «إرشاد المقاصد» ، أخذ منه أسماء العلوم وأهم تعريفاتها، وذكر الأمثلة من الكتب كاملة، وفى أحيان قليلة يزيد عليها، وقد لوحظ أن ذلك النقل والتلخيص قد أوقع القلقشندى فى حيرة عندما تحدث عن علم السيمياء^(٤) الذى اكتفى الأكفانى بتعريفه ولم يورد فيه أمثلة للكتب^(٥)، مما اضطر القلقشندى إلى ذكر

(١) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين، مج ١١، ص ٢٢١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ج ١ ص ٤٦٧ - ٤٧٩ .

(٣) المصدر السابق ج ١، ص ٤٦٧ .

(٤) المصدر السابق، ص ٤٧٥ .

(٥) الأكفانى : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ص ١٢٥ .

عبارة تخرجه من المأزق فقال «رأيت فيه كتباً مجهولة المصنفين»، ولعل الأصل الرابع الذى خصصه القلقشندي لعلم الهندسة^(٢) هو أفضل الأمثلة التى توضح النقل الكامل من إرشاد القاصد حيث تطابق فيه ترتيب العلوم، والاقتصار على نفس الأمثلة. كما أن نفس عبارة الإرشاد نصادفها فى علم المناظر^(٣)، وعلم المساحة^(٤)، وعلم الآلات الروحانية^(٥).

وأما طاش كبرى زاده صاحب «مفتاح السعادة»^(٦)، فقد اقتبس هو الآخر من الإرشاد جميع تقسيماته للعلوم بنفس عناوينها وتعريفاتها وأمثلتها. لكنه كان يزيد على الأكفانى فى ذكر الأمثلة من الكتب، وكلما ذكر كتاباً ترجم لصاحبه وذكر مؤلفاته. ولعل الشعبية السابعة من الدوحة الرابعة^(٧) والتى خصصها لفروع علم الهندسة^(٨) هى من أفضل الأمثلة التى توضح النقل من الإرشاد حيث تطابقت فيها التعريفات فيها التعريفات والأمثلة.

وأياً ما كان الأمر، فثمة سؤال يطرح نفسه هو: هل كان هناك استخدام من قبل المكتبات المملوكية لتصنيف الأكفانى أو لغيره من أنظمة التصنيف؟ هذا ما سكتت عنه الأصول والمصادر. فلا توجد إشارة واحدة فى المصادر الخاصة بالعصر المملوكى يمكن أن نستدل منها على إجابة لذلك. ومع ذلك فمن المرجح أن بعض المكتبات المملوكية قد استفادت من تصنيف الأكفانى فى تنظيم مجموعاتها، ولا سيما

(١) القلقشندي: المصدر السابق، والجزء، ص ٤٧٥.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٣) الأكفانى: إرشاد القاصد، ص ١٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٦) طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، تحقيق كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧١.

(٧) قسم طاش كبرى زاده كتابه إلى طرفتين (أى بابين)، وكل طرفة منهما تنقسم إلى عدة نوحات (أى فصول)، وكل دوحة تنقسم إلى عدة شعب (أى مباحث).

(٨) أنظر: المصدر السابق، ص ٣٧٥، وما بعدها، وقارن ذلك بالأكفانى: إرشاد القاصد، ص ١٣٦-١٣٧، ١٥٣.

١٣٨، ١٤٦، ١٣٩، ١٣٨، ١٣٦.

المكتبات التى تقتنى مثل هذا الكتاب مثال ذلك مكتبة الإيشادى^(١)، حيث ورد اسم كتاب «إرشاد القاصد، ضمن مجموعة الكتب التى وقفها على الجامع الأزهر، وكذلك كتاب «تعريفات العلوم وموضوعاتها»^(٢) وهو كتاب فى تصنيف العلوم، كان ضمن مقتنيات المدرسة الجمالية الاستادارية، ثم انتقل إلى مكتبة المدرسة الناصرية، التى أقامها فرج بن برقوق على أنقاض الجمالية.

وعلى كل حال، فقد كانت المكتبات المملوكية تحتوى على عدة دواليب أو كتيبات كبيرة أو صغيرة وخزانات مصنوعة من الخشب. كما وجد فى بعض المكتبات أرفف خشبية مثبتة فى جدران الحائط لوضع الكتب عليها. ومن المحتمل أن الكتب التى تعالج موضوعا واحدا، كانت توضع، أى تصنف فى دواليب مستقل أو جزء منه أو على رف خشبي واحد. كذلك وضع الموضوعات المتقاربة فى التصنيف مثل الفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه ورجاله، واللغة والبلاغة، إلى غير ذلك من العلوم فى أمكنة متقاربة على الأرفف. ذلك لأن تجاور كتب الموضوع الواحد، وكذا الموضوعات المتشابهة ذات العلاقة التى تربط بينها، ييسر التعرف عليها بسهولة، وسرعة تناولها، ولا يتعب مناوئها. وأما المخطوطات النادرة والكتب غير المجلدة والوثائق. والرسائل والمصاحف، فمن المرجح أنها كانت تحفظ فى دواليب أو صناديق من الخشب.

ولسهولة وسرعة اخراج الكتاب من بين غيره من الكتب، يحتمل أنه كان يكتب على كل دواليب أو صندوق أو رف أو ورقة بعناوين الكتب التى يحويها. وكان يكتب عنوان الكتاب على جانب آخر الصفحات من أسفل^(٣) ليسهل على المناول أو الخازن التعرف عليه وهو ما نطلق عليه اصطلاحا لفظ التكعيب^(٤). ولأن الكتب كانت تنضد بشكل أفقى

(١) وثيقة الإيشادى، رقم ٢٧٨ محفوظة ٤٣، دار الوثائق، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ١٩٦٢.

(٢) البيضاوى: ناصر الدين أبى سعيد بن عمر: تعريفات العلوم وموضوعاتها، ميكروفيلم رقم ٤ معارف عامة، معهد المخطوطات العربية، القاهرة.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٧١، ١٧٢.

(٤) لم يكن مصطلح التكعيب مستخدما فى العصر المملوكى. وقد تم استخدامه هنا للدلالة على الإجراء التنظيمى الذى يسبق وضع الكتب على الرفوف أو تنصيدها.

على أن يكون أول الكتاب إلى أعلى وكعبه جهة اليمين^(١)، فقد كانت كتابه العنوان تظهر بشكل واضح وفي اتجاه واحد. ولكن يبدو أن طول عناوين الكتب - في معظم الأحيان - قد حال دون كتابة أخرى على طرف الصفحات من أسفل كاسم المؤلف^(٢).

وكإجراء فني أخير، كانت توضع الكتب في أماكنها على الرفرف أو في الخزائن أو الدواليب، وهو ما كان يعرف بالتنضيد. والتنضيد من نضد، ونضد الشيء أي جعل بعضه فوق بعض منسقا كما يقول ابن منظور. والتنضيد بهذه الطريقة يخالف ما تعارف عليه المكتبيون اليوم. فالكتب تنضد أو ترفف الآن بشكل رأسى وليس أفقى، على أن يكون كعب الكتاب المثبت عليه رقم طلب الكتاب في مقابل الناظر لسهولة استخراجها. وكان الخارن أو المناول عادة ما يقوم بمهمة التنضيد، وذلك وفقاً لقواعد وآداب معينة كانت تعرف بآداب تنضيد الكتب. منها ما ذكره ابن جماعة والعملى ما نصه «يراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت كتب في فن فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، ثم يراعى التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، ثم كتب الحديث ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب ثم العروض وهكذا. ولا يضيع ذات المقطع الكبير فوق ذوات الصغير كيلا يكثر تساقطها»^(٤).

ومن دراستنا لهذا النص نستنتج أن كل شيء في المكتبات المملوكية كانت له قواعد وآداب وإجراءات معينة، حتى تصنيف الكتب، أو تنضيدها، كما نستنتج أن ثمة علاقة وثيقة بين التصنيف والتنضيد، وأنها أقيما على أساس فلسفى ونظام دقيق، وهو شرف أو منزلة العلوم والمعارف وكذلك منزلة المؤلفين، كما أن هذه القواعد لم تغفل الإجراءات

(١) راجع : ابن جماعة : المصدر السابق، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) محمد مجاهد الهلالى : خزائن الكتب العباسية، ص ١٤١. راجع :

- Youssef EL Eche, Les Bibliothèques Arabes, p.223.

وقد ذكر فرانز روزينثال في كتابه - مناهج البحث عند العلماء المسلمين - ص ٣٤، أن جروهمان أورد في مقالة له صورا توضح طريقة تصنيف وتنضيد الكتب.

راجع Grohmann, A, Bibliotheken und Bibliophilen im qslamischen Orienti in Festschrift der National Bibliothek in Wien, 437 (Vienna, 1926).

(٤) ابن جماعة : المصدر السابق، ص ١٧٠ - ١٧١؛ وقارن : العملى : المصدر السابق، ص ١٣٥؛ رونتال : المرجع السابق،

العلمية البسيطة ومنها طريقة تنضيد المؤلفات حسب حجمها حرصا على سلامتها فلا تعوج أو تسقط فتمزق، وعلى سلامة من يتعامل معها كذلك.

وهكذا يتبين لنا أن المكتبات المملوكية لم تكن مجرد مؤلفات كثيرة حفظت في خزائنها، أو على رفوفها فقط، بل كانت مصنفة وفهرسة بطريقة تيسر استرجاع أى منها فى أقل وقت وبأيسر الطرق. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أهمية الكتاب والمكتبات فى مصر إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

ولم تقف عناية منشئو المكتبات إبان العصر المماليكى عند هذا الحد، بل وجهوا جزءا من اهتماماتهم نحو صيانة المجموعات بما يجعلها فى حالة مادية مناسبة تمكنها من أداء المهام التى أنيطت بها. يدلنا على ذلك ما جاء فى حديث صاحب «تذكرة السامع والتكلم» عن نسخ الكتب ومطالعتها وصفها، يقول ابن جماعة «إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشا، منشورا بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسى الكتب المعروف، كيلا يسرع تقطيع حبله، وإذا وضعها فى مكان مصفوفة فلتكن على كرسى أو تخت خشب أو نحوه، ولا يضعها على الأرض كيلا تتدى أو تبلى»^(١) ولعل هذا يفسر لنا سر حفظ الكتب المملوكية بصفة عامة فى حالة جيدة. بحيث لم تعد عليها عوادي الزمن.

والتساؤل الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم تستخدم المكتبات المملوكية طريقة الترفيف الرأسية المستخدمة حاليا، وهى أقرب إلى المنطق وحسن التنسيق، كما أنها تسهل عملية الحصول على الكتب من على الأرفف والدواليب؟ ولا يمكن الإجابة على هذا التساؤل بشكل قاطع، إذا أن المصادر العربية لم تسعفنا بذلك، حيث لم يرد عن التنضيد سوى اشارتين تحدث فيها المؤرخين^(٢) عن آدابه وفلسفته ولم يتطرقوا من قريب أو من بعيد إلى أسباب ذلك. أما الدفع بالقول أن طريقة التنضيد الأفقية كانت الأوفق والأفضل للكتب المخطوطة فى ذلك العصر، وذلك حفظا على سلامتها وسلامة جلودها فهو قول يردده ما وصلنا من مخطوطات ترجع إلى العصر المملوكى، وهى

(١) ابن جماعة : المصدر السابق، ص ١٧٠، وقارن : المصدر السابق، والصفحة ١، وراجع أيضا : روزنتال : المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع، ص ١٧٠ - ١٧١، الطموى : المعيد فى أئب المفيد: ص ١٢٥.

لا زالت تحتفظ بتماسكها وصلابتها ورونقها، مما يدل على أن صناعة الكتاب في مصر المملوكية قد بلغت درجة كبيرة من الجده والقوة ودقة التنظيم.

وعلى كل حال، فإن خازن الكتب أو المناول في المكتبة المملوكية، عادة ما كان يقوم بمهمة التنضيد^(١)، وذلك وفقا لقواعد وآداب معينة، كانت تعرف بآداب تنضيد الكتب. منها ما ذكره ابن جماعة في «تذكرة السامع»، ووافقه عليه العلموى في «المعبد في أدب المفيد والمستفيد»، من أنه ينبغي على خازن الكتب أن «يراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت في فن فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، ثم يراعى التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، ثم كتب الحديث، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث. ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والصرف، ثم أشعار العرب ثم العروض، وهكذا.

٢- الإجراءات الفنية الخاصة بصيانة المجموعات :

ويعتبر التجليد أول إجراء من إجراءات صيانة الكتب. لذلك انتشر في مصر المملوكية انتشارا واسعا، وبلغ أرقى التقدم والازدهار ولاسيما في القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى). آية ذلك الآلاف المؤلفة من المخطوطات التى وصلتنا من ذلك العصر، والتى قلما نجد فيها كتابا غير مجلد. ولم تصل صناعة التجليد في مصر إبان العصر المملوكى إلى هذه الدرجة من فراغ، وإنما ورثت ذلك من الدول السابقة عنها، وأضافت إليه أساليباً زخرفية هندسية ونباتية لتزيد من رونقها وجمالها. ومن المعروف أن العرب قد أخذوا فن التجليد عن أقباط مصر، إذ كان المصريون يستخدمون ورق البردى في تجليد الكتب صغيرة الحجم، والخشب في تجليد الكتب كبيرة الحجم. ولما زال البردى وحل محله الورق في الكتابة، أستخدم كبديل أيضا في التجليد. وفي القرن الثالث الهجرى

(١) راجع على سبيل المثال : وثيقة جمال الدين يوسف الاسدادر رقم ١٠٦، محفظة ١١٧، وثيقة رقم ٨٨٠ أوقاف، وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٢٨ أوقاف، وثيقة جوهر اللالا رقم ١٠٢١ أوقاف، وثيقة فرج بن بريق، رقم ٦٦ محفظة ١١١، وثيقة الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف، راجع أيضا ماكتبناه من واجبات خازن الكتب في ص ١٣٧ من هذا الكتاب.

(القرن التاسع الميلادي) أخذ الجلد يدخل في صناعة التجليد، وكان لتوفر الجلود أثرها الفعال في انتشار هذه الصناعة. وفي القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) استخدم المجلدون نظام اللسان في الجلد، وكانت وظيفته تغطية أطراف الورق، وكذلك لتحديد الموضع الذي يقف عنده القارئ أثناء قراءة الكتاب، كما كانوا يبطنون الكتب بالورق أو بالمقماش والحريز، وقد زودوا بعض الجلود برسوم وزخارف نباتية وهندسية^(١)، ويبدو فيها الذوق الإسلامي الرفيع وهي ما تعرف اصطلاحاً باسم الأغلفة المزينة، ويبدو أن المكتبات الكبيرة كانت تحوى مكاناً مخصصاً للتجليد يعمل به عدد من المجلدين والمذهبيين والمزوقين. فكانت ترسل إليهم الكتب بعد نسخها للتجليد والتذهيب وخلافه. وكانت بعض المكتبات التي ليس من العاملين فيها من هو مجلد تقوم بإرسال الكتب إلى سوق الوراقين لأغراض النسخ والتجليد، أو استئجار أحدهم للقيام بهذه المهمة داخل المؤسسة المملوكية. وتعتج كتب التراجم والطبقات والسير بذكر العديد من المجلدين الذين كانوا يعملون في المكتبات، ومن كانوا في سوق الكتبيين بالقاهرة وينسخون ويجلدون بالأجر^(٢).

وكإجراء مكمل ومدعم للتجليد، أعتبر الترميم من العمليات والواجبات التي يتعين على أمين المكتبة المملوكية القيام بها. ذلك لأن الكتب، كما هو معروف، صناعة هالكة تبلى وتصبح قديمة العهد، وقليلة النفع، حيث أنها تصبح مع الوقت وكثرة الاستخدام رثاً ممزقاً فتحتاج إلى الصيانة والتجليد والترميم للحفاظ عليها في حالة جيدة. لذلك نجد العديد من الوثائق المملوكية تؤكد أن من أهم أعمال أمين المكتبة المملوكية صيانة الكتب والمصاحف والريعات، وذلك بترميمها وإصلاحها وتجليدها. فقد ورد في وثيقة أزبك من ططخ ما نصه «على أن يتولى أجزاء الكتب المذكورة بالخزانة المذكورة ونفضها من الغبار وتعهدها كالعادة وصونها عما يفسدها...»^(٣). كما تذكر وثيقة فرج بن برقوق ما نصه

(١) راجع: عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي، ص ٢٣٣ - ٢٤٥، شعبان خليفة: المخطوط العربي، دراسة في نشأته ولامحة البليوجرافية، ص ٩٦.

(٢) راجع ما كتبناه عن المجلدين والنساخ في الفصل الثاني ١٤٩ - ١٥١.

(٣) وثيقة أزبك بن ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق.

«على أن يتولى حفظها ونفضها ويتفقد أحوالها بالإصلاح»^(١). وتذكر كذلك وثيقة السلطان حسام لاجين أن على خازن الكتب أن «يصونها وينظفها ويمسح الغبار عليها»^(٢). وأما وثيقة السلطان حسن فقد أكدت نفس المعنى الذى يتعلق بصون الكتب، وفعل ما جرت عادة أمثاله فى ذلك،^(٣).

وقد جاء فى نص الوقفية الواردة على ربعة بكتمر الساقى ما نصه «وشرط الواقف أن لا تخرج من التربة المذكورة ولا تعار ولا تخرج إلا للإصلاح»^(٤). أى لترميمها وتجليدها. وقد ورد لفظ الترميم صراحة على لسان السبكي عندما ذكر واجبات خازن المكتبة، قال: «وحق عليه الاحتفاظ بها، أى الكتب، وترميم شعثها وحبكها عند احتياجها للحبك»^(٥). وكذلك وثيقة الإبشادى حيث ورد ما نصه «وعلى الخازن المذكور... ترميم كراريس الكتب وأوراقها من عند نفسه، هذا إن كان له قدرة على ذلك»^(٦)، كما ورد فى مكان آخر من الوثيقة «ويصرف من الربيع لترميم الكتب المذكورة»^(٧).

غير أننا لا نجد شيئاً يدلنا على الطرق التى كان المماليك يتبعونها فى ترميم مخطوطاتهم^(٨)، وإن كنا نرجح أنها كانت طرقاً بدائية وبسيطة، تقوم أساساً على استعمال

(١) وثيقة فرج بن برقوق، رقم ٦٦، محفظة ١١، دار الوثائق.

(٢) وثيقة حسام الدين لاجين، رقم ١٧، محفظة ٢، دار الوثائق.

(٣) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون، رقم ٨٨١ أوقاف - نشر محمد محمد أمين.

(٤) ربعة بكتمر الساقى رقم ٧٢ مصاحف، دار الكتب المصرية. راجع الملحق الأول، لوحة رقم ٣ بآخر الرسالة.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص ١١١.

(٦) وثيقة الإبشادى رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣.

(٧) المصدر السابق.

(٨) جدير بالإشارة أن المكتبات العربية السابقة على المملوكى لجأ بعضها إلى تبخير الكتب كإجراء علاجى يستهدف الإبقاء عليها بعد تعرضها للخرم (أى التمزق) أو تغيير رائحتها، ومن ذلك أن سعيد بن المبارك المعروف بابن المبارك (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) كانت كتبه قد غرقت وهو غائب فلما حملت إليه بخرها بالإدن - وهى مادة تستخرج من الصمغ - فطلع على عيبيه فأحدث له العمى، وكان قد استخدم نحواً من ثلاثين رطلاً، من الإدن فى ذلك. راجع / ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١١، ص ٢٢٢؛ ابن خلكان ك وفیات الاعيان، ج ٢، ص ٣٨٢ وما بعدها.

الصمغ والنشا فى لصق ما يتمزق من الأوراق، وإعادة تجليد الكتب. وأغلب الظن أن هذه العملية كان يقوم بها المجلدون أنفسهم، ولم تكن قد أصبحت بعد مجالا للتخصص. لكن توافر الاهتمام والعناية بترميم ما يتعرض للتلف من كتب المكتبات المملوكية لهو فى حد ذاته دليل آخر على وجود وعى وجود مكتبى كبير لدى أولئك القوم، ويعتبر انعكاسا طيبا لما كان يحتله الكتاب والمكتبات فى حياتهم من مكانة واهتمام كبيرين^(١)، وما يستتبع ذلك من ازدياد الوعى العلمى والثقافى لديهم.

من كل ما تقدم يتبين لنا أن المكتبات المملوكية استخدمت النظم والإجراءات الفنية التى من شأنها تدبير مجموعات الكتب المناسبة، فتعددت قنوات ومصادر التوريد ما بين شراء ووقف وإهداء ونسخ. فضلا عن إعداد هذه المجموعات إعدادا فنيا وفقا لنظم وقواعد مقلنة. وقد تجلّى ذلك فى إعداد السجلات الخاصة بالتسجيل إثباتا لمليتها للكتب ولأغراض الجرد والمراجعة. كما استخدمت قواعد ونظم معينة لترتيب المجموعات وتنظيمها ببيابو جرافيا. كذلك حرصت المكتبات على أن تكون مجموعاتنا فى حالة جيدة دائما، وذلك من خلال تجليدها وترميمها وصيانتها. ولم تكن هذه النظم والإجراءات الفنية غاية فى حد ذاتها، ولكنها كانت وسيلة لتيسير سبل الإفادة من المجموعات المكتبية، وهى الهدف المستهدف من إنشاء أى مكتبة، أو ما نطلق عليه الخدمات والأنشطة. وهو ما سنتناوله تفصيلا فى الفصل التالى من الكتاب.

(١) راجع : عبد الستار الحلوجى : المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

الفصل الرابع

الخدمات والأنشطة في المكتبات المملوكية

- ١ - مواعيد فتح المكتبات المملوكية، وساعات العمل فيها.
- ٢ - المستفيدون من المكتبات المملوكية : فئاتهم، وأعدادهم.
- ٣ - أنواع الخدمات المكتبية.
 - خدمات الاطلاع الداخلى والنسخ.
 - خدمات الإعارة الخارجية.
 - خدمات أخرى : إرشاد القراء - الخدمات البليوجرافية - الخدمات التعليمية.
- ٤ - تقييم الدور التربوي للمكتبة المملوكية.
- ٥ - أوجه الشبه والاختلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية المعاصرة لها، ومدى الاتصال بينهما.

ليس ثمة شأن فى أن المحك الرئيسى لمدى نجاح أى مكتبة فى أداء رسالتها هو قدرتها على توفير الكتاب المناسب للقارئ فى الوقت المناسب، ومن ذلك تنبثق جميع الإجراءات والعمليات التى تتم فى المكتبة. إذ أن الهدف من اقتناء الكتب وغيرها من أوعية المعلومات وتنظيمها وإعدادها فنياً وبلوجرافياً، هو تقديم الخدمة للمستفيد. وقد سبق القول أن المكتبات فى مصر فى عصر سلاطين المماليك قد عجت بالكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل ما وفره مؤسسوها لها من موارد مادية ومالية وبشرية وتنظيمية وغيرها من عناصر تقديم الخدمة المكتبية.

والحديث عن الخدمات والأنشطة فى المكتبات المملوكية يفرض علينا أن نمهد لذلك بالحديث عن مواعيد فتح المكتبة لتقديم خدماتها، ثم فئات المستفيدين فيها وأعدادهم. وبمعنى آخر متى ولمن تقدم الخدمة فى المكتبات المملوكية؟ ثم نتبع ذلك بالحديث عن أنواع الخدمات والأنشطة فيها. ولأن تلك المكتبات كانت فى معظمها ملحقة بمؤسسات تعليمية وتربوية، فإنه من الأهمية بمكان أن نتبع الحديث عن الخدمة فيها بعرض وتقييم الدور التربوى لها ثم نختم هذا الفصل بدراسة أوجه الشبه والخلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات المعاصرة لها فى أوربا وإن كانت قد وجدت اتصالات بينهما أم لا.

١ - مواعيد فتح المكتبات المملوكية :

يتضح من دراسة المصادر الخاصة بالعصر المملوكى، ولاسيما النصوص الوثائقية الخاصة بالمكتبات ومؤسساتها، أن مواعيد فتح هذه المكتبات أمام روادها كانت تختلف من مؤسسة إلى أخرى حسب لائحة كل منها وشروط الواقف فى وثيقة الوقف. فمكتبة المدرسة الغورية، على سبيل المثال، كانت تفتح أبوابها للمتريدين عليها فى أيام محددة

من كل اسبوع. فقد ذكرت وثيقة الغورى ما نصه «يفتح الخزانة أيام الدروس يومين فى الجمعة لطلبة العلم»^(١). أما وثيقة جوهر اللالا الخاصة بمدرسته، فقد حددت أيام الخدمة المكتبية بثلاثة أيام فى كل أسبوع وهى السبت والأحد والأربعاء^(٢). بينما تحدت أيام فتح المكتبة فى بعض المؤسسات الأخرى بخمسة أيام، وهى غالباً أيام الدراسة فيها. من ذلك ما تشير إليه وثيقة برقوق أن على خازن الكتب أن يفتح الخزانة فى أيام الدراسة «فى كل يوم من أيام الأسبوع خلا يومى الثلاثاء والجمعة»^(٣). بينما كانت غالبية المكتبات تفتح أبوابها طوال أيام الأسبوع لاسيما المكتبات الملحقة بالمساجد ومؤسسات الصوفية والترب والقباب، وبعض المدارس الأخرى. فقد روى صاحب «الجواهر والدرر»، أن الإمام ابن حجر العسقلانى خازن مكتبة المدرسة المحمودية، كان يفتح أبوابها يومياً للأطلاع والقراءة والنسخ والاشتغال بالعلم الشريف^(٤). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإننا نجد كثيراً من الوثائق الخاصة بالمؤسسات المملوكية لا تتحدد أيام فتح المكتبة بدقة، ولكنها اشترطت أن تكون أيام الأفاة من المكتبة طبقاً لما هو معمول به فى باقى المكتبات حيث نصادف عبارة «فيما جرت عليه العادة فى مثل ذلك، فى كثير من الوثائق المملوكية»^(٥). ومن ناحية ثالثة، فإن الأخبار التى تروى عن النقاش الذى كان يدور فى تلك المكتبات توحى بأنها لم تكن تغلق فى أوقات محددة ولكن حسبما تمليه ظروف اليوم ولأن الخازن كان نفسه من العلماء فإن بقاءه فى المكتبة كان شبه دائم ليقرأ ويبحث ومن ثم فإن الفرصة كانت متاحة لغيره من الرواد والمستفيدين للبقاء طوال فترة بقاءه داخل المكتبة^(٦) ومن الأرجح أن فترة استخدام المكتبة كانت تمتد إلى ما قبل الغروب بشكل عام،

(١) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣، أوقاف.

(٢) وثيقة جوهر اللالا، رقم ٨٥، محفظة ١٤، محكمة.

(٣) وثيقة برقوق، رقم ٥١، محفظة ٩، محكمة.

(٤) السخاوى: الجواهر والدرر، ورقة ١٣٨ ظهر.

(٥) راجع على سبيل المثال وثيقة حسام لاجين، رقم ١٧، محفظة ٣؛ وثيقة ببيرس الجاشنكير، رقم ٢٣، محفظة

٤؛ وثيقة أزبك بن ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١؛ وثيقة أبوزكريا يحيى رقم ١٥٤، محكمة ٢٤، وثيقة المؤيد

شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف؛ وثيقة محمد بن قلاوون رقم ٢٥، محفظة ٤.

(٦) يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٦١.

مثلما كان مطبقاً في مكتبتى المدرسة الجمالية الاستدارية والمدرسة الناصرية . فقد نصت وثيقة كل منهما^(١) على أن وقت الإعارة والتداول كان يتم فيها من الصباح حتى الغروب . وهى نفس الفترة التى حددتها وقفية القاضى يحيى^(٢) على مدرسته ، حيث أشارت إلى فتح الخزانة كل يوم من أيام الجمعة بعد طلوع الشمس حتى قبيل الغروب .

وأما المدرسة الصرغتمشية فيبدو أن مكتبتها كانت تفتح أبوابها ليلاً ونهاراً . آية ذلك ما وصلنا من مخطوطات كانت ضمن محتوياتها ، وقد أثبت عليها ما يفيد وقفها على طلبة العلم بالمدرسة والمسلمين بصفة عامة ، لينتفعون بذلك فى الاشتغال والكتابة ليلاً ونهاراً^(٣) داخل المدرسة . لعله يتضح مما سبق أنه لم تكن هناك ساعات محددة للعمل بالمكتبة ، ولكن غالباً ما كان العمل يمتد فيها طوال اليوم من الصباح إلى ما قبل الغروب .

٢ - المستفيدون من المكتبات المملوكية :

هذا عن مواعيد فتح المكتبات المملوكية وساعات العمل بها والتى اختلفت من مكتبة إلى أخرى حسب لائحة كل منها . وهذا يقودنا إلى الشطر الثانى من السؤال وهو : لمن تقدم الخدمة المكتبية فى المؤسسات المملوكية ؟ تشير معظم النصوص الوثائقية التى تحت أيدينا إلى أن القصد من وراء الحاق المكتبات بالمؤسسات التعليمية والصرفية وغيرها ، كان أفادة طلاب العلم ، ومن ثم فإن لهم حق استخدام مجموعات المكتبة والاستفادة منها وفق اللوائح الخاصة بها ، وهى الشروط التى حددها الواقف أو المنشئ فى وثيقة الوقف . ومن التعابير التى نصادفها كثيراً فى هذا الشأن «وقف على طلبة العلم» ، «وقف على طلبة العلم بالمدرسة» ، «وقف على من ينتفعون به من المسلمين» ، «هذا ما أوقف ... لينتفع به سائر المسلمين ..» ، «وقفت لينتفع بها سائر المسلمين» .

(١) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار ، رقم ١٠٦ ، محفظة ١٧ محكمة وثيقة فرج بن برفوق ، رقم ٦٦ ، محفظة ١١ محكمة .

(٢) وثيقة القاضى يحيى زين الدين ، رقم ١١٠ ، محفظة ١٧ ، محكمة .

(٤) راجع نص الوقفية المثبتة على ربة صرغتمش ، رقم ١٥٠ مصاحف ، دار الكتب ، وايضا الملحق الأول بآخر الكتاب ، لرحمة رقم ١ .

وهؤلاء هم ما يمكن أن نطلق عليهم مصطلح «المستفيدين المحتملين»، أى المحتمل تردهم على المكتبة للافادة من مقتنياتها، أما «المستفيدون المتوقعون» فهم أفراد مجتمع المؤسسة الأم التى تقوم المكتبة على خدمة برامجها التعليمية والتربوية، وهم الطلاب وهيئة التدريس بالنسبة للمكتبات المدرسية ومكتبات البيمارستانات، والمتصوفين بالنسبة للخوانق والربط والزوايا والخلوى، وهكذا.

وقد اختلفت أعداد المستفيدين من مكتبة لأخرى، فعلى سبيل المثال كان أقصى عدد من المستفيدين المتوقعين هو ما كان بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون. إذ بلغ عدد طلبة المدرسة حوالى خمسمائة طالب ما بين مقيم بها ومتردد عليها، وخمسين عضو هيئة تدريس ما بين معيد ومدرس وشيخ^(١). أما أقل عدد من المستفيدين فهو ما كان بمكتبة المدرسة البدرية، إذ كان عددهم ثلاث طلاب وشيخا واحدا^(٢). وبين هذا وذاك توجد أرقام مختلفة، منها مكتبة المدرسة الصرغتمشية والتى بلغ عدد المستفيدين منها خمسا وسبعين مستفيدا، فضلا عن المعيدين والمشايخ^(٣). ومنها كذلك مكتبة المدرسة الأشرفية برسباى والتى بلغ عدد المستفيدين منها خمسا وخمسين مستفيدا^(٤). أما مكتبة المدرسة المؤيدية فقد حددت وثيقة الوقف عدد المستفيدين منها بحوالى مائة وخمسة وأربعين طالبا فضلا عن مشايخهم^(٥). وفى مدرسة سودون من زادة بلغ عدد المستفيدين من المكتبة حوالى اثنين وستين مستفيدا^(٦).

ولعل السبب فى اختلاف اعداد المستفيدين من مكتبة إلى أخرى يرجع إلى اختلاف ما يغله الوقف على المؤسسة الأم للصرف عليها. فضلا عن حجم المؤسسة وقدرته الاستيعابية للأعداد المقررة ونوعية المخطوطات التى تشمل عليها.

(١) وثيقة حسن بن قلاوون، رقم ٤٠، محفظة ٦، محكمة.

(٢) وثيقة محمد بن بدر العباسى، رقم ٤٣، محفظة ٧، محكمة.

(٣) وثيقة صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٤٧.

(٤) وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف.

(٥) وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف.

(٦) وثيقة سودون من زاده رقم ٥٨، محفظة ١٠.

٣ - أنواع الخدمات المكتبية :

وأما عن سبل الاستفادة من المكتبات المملوكية، فيمكن تصنيفها في ثلاثة أنواع من الخدمة المكتبية هي :

- خدمة القراءة والنسخ.

- خدمة الإعارة الخارجية.

- خدمات أخرى.

وتأتى خدمة القراءة والنسخ فى مقدمة هذه الأنواع، وذلك أن الهدف الأساسى الذى أرادَه الممالِك لمكتباتهم هو أن تكون مكانا دائما يتردد عليه من يريد الاطلاع أو النسخ. وبالفعل تم لهم ما أرادوا، فكانت جميع المكتبات على مختلف أنواعها وأحجامها تقدم هذا النوع من الخدمات. فقد كان ينص على الاطلاع والنسخ - كخدمة - فى نصوص الوثائق. من ذلك ما جاء فى وثيقة وقف مدرسة السيفى أريك من ططخ أنه ينبغى على خازن الكتب مزاولة الكتب وتقديمها لمن يريد المطالعة فيها والكتابة منها^(١). وكذلك تذكر وثيقة الجمالى يوسف عند معرض حديثها عن واجبات خازن الكتب أن يقدمها لمن يريد المطالعة والنسخ^(٢). وتذكر وثيقة الغورى أنه ينبغى تقديم الكتب لطالبها للانتفاع بها داخل المدرسة فى نسخ منها أو مطالعة فيها أو مقابلة عليها^(٣). وهو ما يعرف فى المصطلح الحديث بالإعارة داخل المكتبة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن معظم الكتب التى وصلتنا من العصر المملوكى مثبت عليها نصوص وقفية تنص أيضا على أن الغرض من وقفها القراءة والنسخ من ذلك ما جاء فى وقفيات مصاحف السلطان شعبان وأمه خوند بركة، أن الغرض من وقف المصاحف «لينتفع بها سائر المسلمين فى القراءة وغير ذلك»^(٤). كما جاء على بعض الكتب التى وقفها الأمير صرغتمش فى مكتبة

(١) وثيقة السيفى أريك من ططخ، رقم ١٩٨، محفظة ٣١، محكمة.

(٢) وثيقة الجمالى يوسف ناصر الخواص الشريفة، رقم ١٠٥، محفظة ١٦ محكمة.

(٣) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٤) راجع نص الوقفية فى ص ١٧١ من الفصل الثالث من الكتاب؛ وراجع أيضا الملحق الأول، لوحة رقم ٤ بآخر الكتاب.

مدرسته ما يفيد أنها وقفت للانتفاع بها فى القراءة والنسخ^(١). ومن ذلك ما جاء فى وثيقة قانى باى الرماح «وكل من حضر إليه من طلبة العلم الشريف يمكنه الانتفاع بما يحتاج إليه من الكتب المذكورة فى نسخ أو مقابلة أو مطالعة إلى أن ينهى حاجته ثم يرد الكتاب إلى محله»^(٢).

ولم تكن هناك شروط مقيدة للاطلاع والنسخ داخل المكتبة، بل كان للفرد الحق فى الاستفادة من هذه الخدمة. وساعد على ذلك اهتمام منشور المكتبات بالجو العام الخاص بالمكتبة والاعتناء بكل ما له صلة بالمبنى وتجهيزاته وامتداده بالأدوات الخاصة بالنسخ والمحابر والأقلام والأوراق وغيرها^(٣). ولعل السؤال الذى يفرض نفسه الآن ملحا فى طلب الإجابة عنه هو: هل كانت هناك اجراءات معينة لتقديم خدمات الاطلاع الداخلى والنسخ؟

لم ترد أية أشارات يمكن من استنتاجها أن نتلمس أى نوع من الإجراءات. لكن يرجح أنه كانت توجد إجراءات معينة لضمان عدم التفريط فى الكتب والمحافظة عليها، كأن يترك القارئ ما يشبه الرهن عند الخازن أو تدوين بيانات المستعير، أو ما شابه ذلك. ذلك أن مثل هذه الإجراءات كانت متبعة فى تقديم خدمة الإعارة الخارجية كما سدرى فى الصفحات التالية، وقياسا على ذلك يمكن القول أن ما كان يطبق على الاعارة الخارجية كان من المنطقى أن ينسحب أيضا على الإعارة الداخلية.

وعلى كل حال، فبالإضافة إلى خدمة المطالعة الداخلية والنسخ، وتسهيلا لحركة تداول الكتب، وتنشيطا لاستخدامها، قدمت معظم المكتبات خدمة أخرى لمن تحول ظروفه دون الانتقال إليها للاطلاع الداخلى فيها أو نسخ ما يريده هى خدمة الإعارة الخارجية.

وفى مصنفه «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، عقد ابن جماعة

(١) ربعة صرغتمش رقم ١٥٠ مصاحف، دار الكتب، راجع أيضا الملحق الأول، لوحة رقم ١ بآخر الرسالة.

(٢) وثيقة قانى باى الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف.

(٣) لمزيد من المعلومات عن مباني المكتبات المملوكية وتجهيزاتها ومظاهر الاهتمام بها، راجع الفصل الثانى، ص ١١١-١١٦.

(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) بابا للحديث عن الآداب مع الكتب بما في ذلك نسخها وإعارتها. ويمكن تلخيص هذه الآداب في ثمانى نقاط^(١):

- ١ - يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه منها، وممن لا ضرر^(٢) منه.
- ٢ - إذا استعار المستعير كتابا فينبغى له أن يتفقده عند أخذه ورده.
- ٣ - ينبغى للمستعير ألا يطيل مقام الكتاب المستعار عنده من غير حاجة، بل يرده إذا قضى حاجته، ولا يحبسه إذا طلبه المالك.
- ٤ - لا ينبغى للمستعير أن يعير ما استعاره من كتب للغير، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه.
- ٥ - إذا نسخ من الكتاب بإذن صاحبه فلا يضع المحبرة عليه، ولا يمر بالقلم فوق كتابته حتى لا يتلفه.
- ٦ - لا يجوز اصلاح كتاب الغير بغير إذن صاحبه.
- ٧ - لا يكتب شيئا فى بياض فواتح الكتاب، أو خواتمه إلا بعلم ورضاء صاحبه.
- ٨ - ينبغى للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيرا.

وإعارة الكتب للفقراء وطلاب العلم والعلماء وغيرهم أمر استحسنة الأولون والآخرون لما فيه من نشر العلم بصفة خاصة وإفادة الناس بوجه عام. فالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) يحدثنا فى كتابه «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» عن سفيان الثورى أنه قال «من بخل بعلمه إبتلى بثلاث : إما أن ينساه ولا يحفظ، وإما أن يموت ولا ينتفع به، وإما أن تذهب كتبه»^(٣). وهذا ما حدث لابراهيم بن أحمد بن حسن الفرس

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع فى ادب العالم والمعلم، ص ١٦٣، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢.

(٢) ذكر السبكي فى معيد النعم «أنه، حق على خازن الكتب الضن بها على من ليس من أهلها، ويذلها للمحتاج إليها، وإن يقدم فى الاعارة الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الاغنياء». راجع : السبكي : معيد النعم ومبيد النقم، ص ١١١.

(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، ج ١، ص ٢٤٠، وراجع أيضا : السمعاني : أدب الاملاء والاستملاء، ص ١٤٥.

(ت ٨٨٨هـ / ١٤٩٩م) . يذكر السخاوى أنه كان «عنده من الكتب والأجزاء وتصانيف شيخه ما لم ينتفع به وعطل على غيره الانتفاع بها لعدم سماحه بإعارتها حسبما استفيض عنه حتى نقل عنه أنه كان يقول إذا عانيت الموت ألقيتها فى البحر» . وبعد موته تفرق الناس كتبه بأبخس ثمن،^(١) . وكره بعضهم إعارة الكتب . من هؤلاء أبو العتاهية «قال رجل له أعرنى كتابك، فقال إني أكره ذلك، فقال : أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره، فأعاره الكتاب»^(٢) ويروى صاحب الضوء اللامع أن حسين بن على ظهر الدين الغوى (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م) كان يعير كتبه لخلانه ومنهم ابن عزم الذى كان يستعير منه الكثير من الكتب^(٣) وكان الخطيب البغدادي ممن يرغب فى إعارة الكتب، فقد عقد فصلا فى كتابه «تقيد العلم»^(٤) عن الذين يترددون فى إعارة الكتب لمن هو أهل لها، وذم من سلك فى ذلك طريق البخل والامتناع .

وعلى كل حال، فإن الوثائق المملوكية تبرز تباينا واضحا بين مختلف المكتبات فيما يتعلق بتطبيق وتقديم خدمة الإعارة الخارجية . فقد وضعت بعضها قيودا لضمان تنظيم العمل، وحسن سيره من ناحية، وللمحافظة على الكتب وكلها مخطوطة - من الضياع وخوفا عليها من التلف من ناحية أخرى فعلى سبيل المثال تذكر وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق، بعد أن حددت مهام وصفات ومرتب خازن الكتب، «أنه من حضر إليه يطلب شيئا من ذلك فإن كان أهلا لمطالعة ذلك، والاشتغال به، وكان من أهل المكان وممن يوثق به، دفعه إليه، وأخذ خطه منه، فإذا أعاده إليه، دفع إليه خطه، ولا يمكنه من التأخير مدة بعيدة يخشى منها حصول النسيان، بل يتعهد بالسؤال وأخذ ما أخذه منه، فإذا طلب غيره إجابته لذلك، وفعل كما فعل أولا، وإن كان الطالب من خارج المكان لا يعطيه شيئا من ذلك...»^(٥) . ومن استقراء هذا النص يمكن أن نتعرف على الشروط والاجراءات

(١) السخاوى : الضوء اللامع، ج ١، ص ١٢-١٣ .

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٦٧-١٦٨ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٥٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : تقيد العلم، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٤٦-١٥٠ .

(٥) وثيقة فرج بن برقوق ، رقم ٦٦ محفظة ١٦، محكمة .

التي وضعها السلطان فرج بن برقوق لتنظيم عملية الإعارة الخارجية وهي تتلخص فيما يلي:

١ - قصر الإعارة الخارجية على طلاب المدرسة وعلمائها، وهو ما عبرت الوثيقة عنه بمصطلح «أهل المكان»، وأما إن كان من غير أهل المكان فيمكن له استخدام المكتبة في الاطلاع الداخلي أو النسخ أو كليهما فحسب^(٢).

٢ - أن يكون المستعير أهلاً لمطالعة ما يستعار من الكتاب. وهذا شرط هام جداً لأنه لا ينبغي للمكتبة أن تمد القارئ بما يريده فقط، بل لابد من أن يكون هناك توجيه لما يمكن أن يستفيد منه. وهذا ما يعبر عنه خبراء المكتبات بنظريتي الإمداد والتوجيه^(٣).

٣ - أن يكون المستعير أهل ثقة وأمانة. ذلك لأن الكتب كانت مخطوطة. وبعضها نادر، ولو فقدت المكتبة أحدها قد لا تستطيع الحصول على غيره.

٤ - تسجيل اسم المستعير وتوقيعه، وهو ما عبرت عنه الوثيقة بمصطلح «أخذ خطه منه».

٥ - متابعة الكتب المعارة بالسؤال عنها إذا ما تأخر المستعير عن ردها.

وقد وجدت مثل هذه الشروط والقواعد في مكتبات مملوكية غير مكتبة فرج بن برقوق من ذلك مكتبة الإبراهيمي التي نصت وثيقته على أهمية تسجيل واقعة الإعارة، وذلك بتسجيل اسم المستعير والكتاب المعار في سجل خاص بذلك. فقد ذكرت ما نصه «وكتابة اسم من يطلب منه كراساً ويأخذه منه، ثم إذا أعاده مسح اسمه بحبر يشتره من عند نفسه»^(٣) كذلك اشترطت وثيقة جمال الدين الاستاد أن يكون المستعير من أهل

(١) جدير بالذكر أن هذا الشرط مطبق إلى حد كبير في المكتبات الجامعية اليوم حيث تقصر هذه المكتبات الإعارة الخارجية على طلابها وهيئة تدريسيها وموظفيها وبعد أخذ الضمانات الكافية ضماناً لرد الكتب المعارة.

(٢) للاطلاع على ماهية هذه النظرية. راجع: أحمد أنور عمر: المكتبات العامة بين التخطيط والتففيذ، ص ١٠، ١٥.

(٣) وثيقة الإبراهيمي، رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، محكمة. ونعتقد أن المسح بالحبر الذي ذكرته الوثيقة يعنى الشطب أو القشط. وجدير بالذكر أننا قمنا بالبحث في فهارس مكتبة الجامع الأزهر عن مثل هذا السجل حيث يوجد بالمكتبة عدد كبير من مخطوطات مكتبة الإبراهيمي، ولكننا لم نصل إلى شيء.

الخانقاه، وأن يكون أهل ثقة وأمانة، وإن كان يخشى منه أو غير معروف للخازن فينبغي احضار ضامنا له على أن يكون هو الآخر أهل ثقة ومن أهل الخانقاه. كذلك حددت الوثيقة مدة الإعارة الخارجية بشهر واحد^(١)، فقد جاء فيها ما نصه «من حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه إن كان ثقة. وإن كان ممن يخشى منه، منعه إلا أن يضمه ثقة من أهل الخانقاه المذكورة. ولا يقر شيئا من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد من حين استعارته، بل يأخذه منه بعد مضي الشهر»^(٢).

وضمانا للمحافظة على الكتب وعدم الماطلة في رجوعها، أو الامتناع عن ردها من جانب المستعير. اشترطت بعض المكتبات المملوكية الحصول على رهن حافظ لقيمة الكتاب المعار. فيذكر تاج الدين السبكي أنه «كثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر، فليس للخازن أن يعير إلا برهن»^(٣)، والرهن قد يكون نقدا أو عينا كأن يكون كتابا أو غيره^(٤). ومن المكتبات التي استخدمت الرهن شرطا للإعارة الخارجية، مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين، ومكتبة أم السلطان خوند بركة، حيث ورد في نص الوقفيات الخاصة بكتب هاتين المكتبتين ما نصه «وشرط أن لا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يحرز قيمته»^(٥) و«شرطت أن لا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يحرز قيمته»^(٦).

(١) جدير بالإشارة أن وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار هي المصدر الوحيد الذي ذكر المدة المسموح فيها بالإعارة الخارجية، وقد حددتها الوثيقة بشهر واحد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سكنت المصادر عن الأفادة بشأن عدد الكتب المسموح باعادتها خارجيا في المرة الواحدة لشخص واحد.

(٢) وثيقة جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦، محفظة ١٧، محكمة.

(٣) السبكي: معبد النعم، ص ١١١؛ انظر أيضا: وثيقة حسام الدين لاجين رقم ١٧، محفظة ٣، فؤاد سيد: نصاب قديمان في الإعارة، ص ١٣٤-١٣٦.

(٤) يبدو أن فكرة الرهن كانت معروفة قبل العصر المملوكي، حيث يذكر ابن الفوطي أنه كان بمكتبة المدرسة المستنصرية ببغداد من الرهون ثلاثمائة دينار. راجع: ابن الفوطي. الحوادث الجامعة، ص ٢٢٣.

(٥) راجع: مصحف السلطان الأشرف شعبان رقم ٩ مصاحف، دار الكتب المصرية؛ وانظر أيضا: الملحق الأول، لوحة رقم ٧ بآخر الرسالة.

(٦) راجع: مصحف خوند بركة، رقم ٦ مصاحف، بدار الكتب المصرية؛ وراجع نص الوقفية ص ١٧١ من الكتاب.

وإذا كان يسمح بالإعارة الخارجية فى بعض المكتبات برهن أو بشروط، فقد وجدت بعض المكتبات الأخرى التى تشددت فى منعها منعاً باتاً لا برهن ولا بغيره .

ومن المكتبات المملوكية التى منعت الاستعارة الخارجية تماماً، مكتبة المدرسة الصرغتمشية فقد ثبت على بعض الكتب التى وقفها صرغتمش على مدرسته ما نصه «لينتفعون بذلك فى الاشتغال والكتابة منه ليلاً ونهاراً بحيث لا يخرج من المدرسة المذكورة ولا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يبدل ولا يغير»^(١). كما تذكر وثيقة الجمالى يوسف ما يفيد بأن على خازن الكتب اخراجها لمن يريد المطالعة فيها داخلياً أو النسخ منها، ولا يخرج شيئاً من ذلك عن المدرسة برهن ولا بغيره،^(٢). أما وثيقة المؤيد شيخ فقد جاء فيها ما نصه «ولا يخرج (أى الخازن) من الجامع المذكور كتاباً واحداً ولا أكثر منه مطلقاً»^(٣). كذلك تذكر وثيقة الغورى ما نصه «ومن طلب منه كتاباً فى علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له فينتفع به فى المدرسة ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع إليه شيئاً يساوى أضعاف قيمته، فإذا انتفع كل منهم بما طلبه فى نسخ منه أو مطالعة فيه أو مقابلة عليه بالمدرسة رده الخازن إلى الخزانة»^(٤). وفى هذا المقام ورد فى وثيقة الإبرشادى نص هام هو «ولا يخرج من ذلك شيئاً من الأشياء من الجامع الأزهر برهن ولا بغيره، ولا يعطى من ذلك شيئاً لمن يعرف فيه التفريط». وتبدو أهمية هذا النص فى أنه إلى جانب تحريمه للإعارة الخارجية يمنع كذلك الإعارة الداخلية لمن يعرف عنه الإهمال والتفريط^(٥). ومع ذلك فقد كان البعض يتحايل على أمناء المكتبات فى سبيل الاستعارة الخارجية للكتب باذلين فى سبيل ذلك المال الجزيل، كما كان الحال مع خازن

(١) ربعة صرغتمش، رقم ١٥٠ مصاحف، دار الكتب المصرية، راجع الملحق الأول، لوحة رقم ١ بآخر الكتاب.

(٢) وثيقة الجمالى يوسف، رقم ١٠٥، محفظة ١٦، محكمة.

(٣) وثيقة المؤيد شيخ، رقم ٩٣٨ أوقاف.

(٤) وثيقة الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف.

(٥) وثيقة الإبرشادى رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، محكمة.

المكتبة المحمودية، إذ كان أكابر الدولة وأعيانها يحاولونه على إعارة الكتب، ولكنه مع ذلك كان يباشر عمله بقوة وصرامة، ولا يلتفت إلى طلباتهم^(١).

ويبدو أن سياسة منع الإعارة الخارجية في بعض المكتبات، إنما ترجع إلى حرص المنشئين والواقفين على الحفاظ على مقتنيات المكتبة، وذلك بهدف تعميم الفائدة لأكبر عدد من المترددين على المكتبة أو ربما لقيمتها العلمية، أو لندرة وجودها أو لقلة نسخها، وهو حرص له ما يبرره في ذلك الوقت. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد وجد في العصر المملوكي بعض الأشخاص الذين ولعوا بحب الكتب واقتنائها وتحصيلها، بأي وسيلة كانت. إذ يذكر السخاوي أن القاضي شرف الدين المناوي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م) توسل به عند ابن الشحنة لرد الكتب التي استعارها منه. كذلك توسل به خازن مكتبة المدرسة المحمودية لنفس الغرض^(٢). ووجد البعض الآخر ممن عرف عنهم سوء عازيتهم للكتب بحيث لا يسترد المعير كتبه إلا بشق الأنفس، إن أمكن استردادها^(٣).

ويبدو أن مسألة إباحة الإعارة الخارجية أو منعها قد شكلت قضية بالنسبة للقراء والباحثين في العصر المملوكي الذين كانوا يترددون على المكتبات، ولكل وجهة نظره التي يدافع عنها. وقد درس هذه القضية المؤرخ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٦م) بتفصيل في رسالته التي أسماها «بذل المجهود في خزانة محمود»^(٤) التي كتبها عام (٨٦٧هـ / ١٤٦٥م) وحاول فيها أن يجد مفرًا من شروط الواقفين الذين كانوا يشترطون منع اخراج الكتب الموقوفة من مكانها، وأن يفسر هذه الشروط، ويستنبط منها ما يسمح باستثناء ما شرطه الواقف. والاقناع بجواز الإعارة

(١) السخاوي: الضوء الاعم، ج ٦، ص ٢٥٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٤٨ - ٢٥٠. ويبدو أن هذا الخلق كان منتشرًا قبل العصر المملوكي: فيحدثنا ياقوت في معجم الأدباء أن عبد الله بن الخشاب (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م) كان إذا استعار من أحد كتابا، وطالبه به، قال دخل بين الكتب فلا أقدر عليه. راجه: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٥١.

(٤) السيوطي: بذل المجهود في خزانة محمود، تحقيق فؤاد سيد، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤، ج ١ ص ١٩٥٨، ص ١٣٤ - ١٣٦.

الخارجية لمن هم جديرون بحفظها وصونها، ويبدو أن الذي دفع السيوطي إلى ذلك هو أنه أراد أن يفيد من موجودات مكتبة المدرسة المحمودية، معتمدا على أنه رأى شيخى الاسلام البلقيني^(١) والمناوى^(٢) يستعيران منها الكتب استعارة خارجية، ويخرجان منها الكتب إلى منزليهما وتمكث عندهما الأيام الكثيرة، وهما الامامان يقتدى بهما. وقد فند السيوطي رأيه فى إياحة إعاره الكتب إعاره خارجية مع علمه لمخالفة ذلك لشروط الواقف بأن له أربعة أوجه : وجهان ضعيفان ووجه حسن ووجه قوى صحيح . ويقول فى الوجه الثالث أن بعض الأئمة أجاز مخالفة شرط الواقف إذا اقتضت المصلحة ذلك . وفى الوجه الرابع يرى السيوطي أن مقصود الواقف تمام النفع وتتمام الحفظ، أى تمام انتفاع الناس بما وقفه من كتب بالمكتبة المذكورة والمحافظة عليها من الضياع والتلف فى ذات الوقت .

فاذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بها فى تصنيف وتأليف، وأنه لا يتمكن من تمام الانتفاع بها داخل المدرسة، فإذا كان المنتفع ممن يوثق بحفظه وصونه للكتب أجاز الإخراج له ويستثنى من المنع . ثم يخرج السيوطي من محاولته هذه بفتوى مؤداها:

أولا- لا ينبغى ألا يستعار من هذه المكتبة مالا يتيسر وجوده فى غيرها . وهذا ما ينسحب على غيرها من المكتبات .

ثانيا- أنه لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر ما يقضى حاجته منه (ومدرك الأمرين أنه ما جاز للضرورة يقدر بقدرها) .

ويدل موقف السيوطي هنا على وعى وفهم واقعى ، فهو لم يطلق الاستعارة من هذه

(١) هو القاضي علم الدين أبو البقاء صالح بن عمر بن رسلان الكنانى العسقلانى (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) ، ويقول عنه السخاوى أنه كان سمحا بعارية الكتب راجع السخاوى : الضوء اللامع، ج٣، ص ٣١٢ .

(٢) هو الشيخ شرف الدين المناوى قاضى القضاء بمصر ولد سنة ٧٩٨هـ / ١٤٠٨م وتوفى سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م وكان من العلماء المحدثين والفقهاء والأصوليين له تصانيف منها مختصر المزنى على الأم . راجع ترجمته فى السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٣٨؛ السخاوى : الضوء اللامع، ج٩، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

المكتبة، وفي نفس الوقت لم يمنعها. ولعله بنى موقفه هذا على ندرة ما هو موجود بالمكتبة، وبالتالي إمكان ضياع ما تحتويه من الكتب في حالة الاطلاق. فأجاز ذلك بشرط أن ما يستعار فيها غير متوفر في غيرها، وأن لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر ما يقضى حاجته منه سواء في القراءة أو النسخ.

وهكذا يتبين من كل ما تقدم أن موقف المكتبات المملوكية من خدمة الإعارة الخارجية كان موقفا متباينا، يختلف باختلاف المكتبة ولوائحها وشروط منشئها. فبعضها أباح الإعارة الخارجية مع وضع شروط واجراءات تنظيمية لضمان حسن سير عملية الإعارة، والبعض الآخر أباح الإعارة ولكن بدفع زهن لضمان المحافظة على الكتب المعارة، كما وجدت فئة ثالثة من المكتبات منعت الإعارة منعا باتا لا برهن ولا بغيره مثلما حدث في مكتبات المؤسسات المملوكية الجركسية مثل مكتبات المدرسة الصرغتمشية والجمالية والمحمودية والمؤيدية والأشرفية برسباي والغورية وغيرها.

وفضلا عن خدمتي الإطلاع الداخلي والنسخ وخدمة الاستعارة الخارجية توفرت في بعض المكتبات المملوكية أنماط أخرى من الخدمات. ولكنها لم تكن منتشرة انتشاراً واسعاً مثل إرشاد وتوجيه القراء إلى ما يناسبهم من مراجع. ومن الذين نصبوا أنفسهم مرشدين للقراء الامام ابن حجر العسقلاني خازن المكتبة المحمودية، فقد كان لا يأتيه مستعير كتابا إلا دله عليه. وفي الدلالة إرشاد وتوجيه وخدمة. ومن هذه الخدمات أيضا ما يمكن أن نطلق عليه خدمات الإرشاد الببليوجرافي. وقد أسهمت الفهارس التي أعدها المكتبات على اختلاف أنواعها، ومنها الفهارس الموضوعية وفهارس المؤلفين، أسهمت في تقديم هذا النوع من الخدمات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قدمت الكثير من المكتبات المملوكية خدمات تعليمية للطلاب والمعידين والعلماء وغيرهم، وذلك من خلال التسهيلات المتمثلة في

تقديم الأدوات الكتابية المجانية من أوراق وأقلام وأحبار، فضلا عن عقد الدروس والمحاضرات والمباحثات. فقد كانت الايوانات الأربعة للمؤسسة المملوكية التي كانت تعتبر من صميم المكتبة وجزءا أصيلا منها، ومخصصة لخدمة القراء في المطالعة والنسخ المراجعة، طبقا لللائحة المدرسة الواردة في وثيقة الوقف. وكانت هذه الايوانات بمثابة قاعات للمحاضرة والمناقشة والبحث في الموضوعات الدراسية. ومن العلماء الذين كانوا يترددون على هذا المباحثات الشيخ أبو الفتوح المناوى^(١) والشيخ أحمد الشهاب الحجازي، حيث يذكر السخاوى أن الأخير «سكن بخلة الكماخي وتكلم في خزانة كتبها»^(٢). والنص هنا يشير إلى استخدام الحجازي للمكتبة كمركز للتعليم وإلقاء الدروس والمحاضرات. ونفس الشيء كان في مكتبات القباب والترب والتي كانت المكتبة فيها مركزا تعليميا ومحلا للمناظرات والمناقشات والمحاضرات، كما كان الحال في خزانة القبة المنصورية التي كانت تعقد فيها الدروس والمحاضرات للفقهاء على المذاهب الأربعة^(٣).

٤ - تقييم الدور التربوي للمكتبة المملوكية :

وهكذا قدمت المكتبات المملوكية أنماطا عديدة من الخدمات والأنشطة حسبما أسلفنا. وكان من الطبيعي بعد ذلك كله أن يكون للمكتبات بمختلف أنواعها وأحجامها دور تربوي تعليمي. فالمكتبات أداة أو وسيلة تربوية حية لخدمة الأفراد، وهي جزء لا يمكن الاستغناء عنه في أي مؤسسة تربوية تعليمية، بل يمكن اعتبارها الأساس الذي تركز عليه جميع الاتجاهات التربوية والتعليمية التي تؤكد على نشاط الطلاب وفعاليتهم^(٤) وقد أدرك سلاطين المماليك ورجال دولتهم دور المكتبة التربوي. فلم تكن مكتباتهم مجرد مجموعات كثيرة أو قليلة من الكتب وجدت لمجرد الزينة أو التباهي والتفاخر أو إرضاء لهواية جمع الكتب، أو حتى استخدامها لقتل وقت الفراغ، إنما وجدت لغاية أسمى من ذلك فقد كانت

(١) السخاوى : الضوء اللامع، ج١، ص ٣٨٠.

(٢) السخاوى : المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥٦.

(٣) وثيقة السلطان قلاوون، رقم ١٠١٠ أوقاف، المقرئى : الخطط، ج٢ ص ٣٨٠.

(٤) عبد ربه محمود وعبد الجليل السيد : المكتبة والتربية، القاهرة، دار الفكر العربى ١٩٦٨ م. ص ٣.

مكانا لتثقيف الشعب المصرى وتعليمه، ومكانا للبحث والدرس والتأليف، وبعد هذا سيقا فى إدراك العلاقة الوثيقة بين العملية التعليمية وتوفير المكتبة داخل المؤسسات التعليمية والتربوية. بهدف اتاحة الفرصة لطالب العلم للخروج به من دائرة الاعتماد على ما يسمعه ويتلقاه من مدرسيه إلى عالم أوسع وأرحب يحصل منه على ثقافة أكثر عمقا ودقة وتنوعا.

ولأن جميع الكتب فى ذلك العصر كانت مخطوطة، تعتمد فى كتابتها على النسخ ومع احتمال ارتفاع أثمان مواد الكتابة من ورق وجلد وغير ذلك، لم يكن باستطاعة الكثير من الطلاب اقتناؤها نظرا لارتفاع ثمنها أو ندرتها. ومن هنا تبدو أهمية المكتبة فى حياة الدارسين. فبدونها لا يستطيع الطلاب الاعتماد على شىء إلا ما يمليه عليهم اساتذتهم، ولكن وجودها أتاح لهم فرصة الاطلاع والبحث ومقابلة ما يدرسون على أراء الفقهاء والعلماء كما أتاح لهم فرصة القراءة والبحث فى فروع العلوم المختلفة بصرف النظر عما إذا كانت تدرس لهم من عدمه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أتاح المكتبة لهم فرصة الاطلاع مسبقا على الدروس التى سيقوم بشرحها لهم أو املائها عليهم مما يعينهم على سرعة الفهم والتجاوب مع الأساتذة^(١). وهذا فى حد ذاته نجاح للمكتبة المملوكية فى تأدية دورها التربوى فى هذا الزمن البعيد.

ولم تكن رسالة المكتبات فى العصر المملوكى قاصرة على خدمة الدارسين والمدرسين، ولكنها أفادت الباحثين فى شتى فروع المعرفة البشرية. فبدونها ما كنا لنسمع عن كثير من مؤرخى تلك الفترة وعلمائها الذين اعتمد عدد غير قليل منهم فى بحوثهم ودراساتهم على ما يوجد فيها من مادة علمية. نذكر منهم على سبيل المثال: القاضى والمؤرخ ابن حجر العسقلانى الذى كان خازنا لمكتبة المدرسة المحمودية، فقد أعانته كثيرا فى تصنيف مؤلفاته^(٢). وكذلك شيخ الاسلام القاضى علم الدين البلقينى الذى كان يستعير الكتب من المحمودية أيضا ويخرج بها إلى منزله وتمكث عنده الايام الكثيرة^(٣). ومحمد

(١) راجع: عبد الغنى عبد العاطى: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص ٢٤٩.

(٢) السخاوى: الجواهر والدرر، ورقة رقم ٧٨٢، وانظر أيضا الملحق الثالث بآخر الكتاب.

(٣) السيوطى: بذل المجهود فى خزانة محمود، ص ١٣٤.

بن يوسف ابن حيان الغرناطى القاهرى حيث يحدثنا صاحب «الدرر الكامنة» عنه أنه كان يلوم ابن حجر العسقلانى على بذل الدراهم فى شراء الكتب ويقول إذا أردت كتابا استعرتة من كتب الأوقاف وقضيت حاجتى^(١). ويعترف ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) أنه لم يتمكن من تأليف كتابه «وفيات الأعيان» إلا بعد أن حصل على المعلومات الموجودة فى الكتب التى كان يهدف منذ زمن بعيد إلى مطالعتها. فيقول «لما وصلت إلى القاهرة صادفت فيها كتباً كنت أوثر الوقوف عليها. وطالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتى ثم قصدت لاتمام هذا الكتاب حتى كمل على هذه الصورة»^(٢).

ومن العلماء الذين أفادوا من المكتبات المملوكية المؤلف الموسوعى جلال الدين السيوطى الذى يعتبر من أغزر المؤلفين المسلمين إنتاجاً، حيث بلغ عدد كتبه ما يزيد على ستمائه كتاب ورسالة، غطت جميع فروع المعرفة الاسلامية واللغوية فضلاً عن التاريخ والتراجم^(٣). وكان الرجل كثير التردد على المدرسة المحمودية ومكتبتها، وأفاد منها افادة كبيرة مما جعل زميل دراسته السخاوى يتهمه بتهمة شنيعة وهى أنه «أخذ من كتب المحمودية كثيراً من التصانيف المتقدمة، التى لا عهد لكثير من العصريين بها، فغير فيها يسيراً وقدم وآخر ونسبها لنفسه، وهول فى مقدمتها، بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفى ببعضه»^(٤). ويلاحظ أن السخاوى قد تناول السيوطى فى ترجمته هذه التى شغلت ست صفحات من كتابه «الضوء اللامع»، على غير عادته فى الترجمة لأهل القرن التاسع الهجرى، بالاتهام والتجريح والقذف. ولم يترك له فضيلة ونسب له كل رذيلة. ويبدو أن السيوطى رد التحية بأفضل منها، فألف رسالة ضد السخاوى أسماها «الكاوى لدماغ السخاوى»^(٥)، ذكر فيها أن هذه الخزانة وغيرها من الخزائن المكتبية المملوكية

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج ٤، ص ٣٠٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان، ج ٦، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) راجع : السيوطى : فهرس مؤلفات السيوطى، مخطوط رقم ٦٤١ ج مكتبة بلدية الاسكندرية.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٤، ص ٦٦.

(٥) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ١، ص ٣٢٩.

هى التى أعانته على كثير من التأليف، وبها كذا وكذا من علوم متفرقة لم يذكر مؤلفوها أسماءهم بها، وأنه لو ادعاها لنفسه لما عارضه أحد^(١). وعلى كل حال، وما يهمنا فى هذه القضية هو أنه كان للسيوطى، كغيره من العلماء فى عصره، فوائد كثيرة من مكتبة المدرسة المحمودية وكانت عوناً كبيراً له فى كثير من تصانيفه التى وضعها، وانتفعت بها الأجيال من بعده. ثم يجب ألا ننسى أن هذه كانت سمة العصر، ولا يعتبر الأخذ من التصانيف السابقة أو النقل عنها سرقة أو عيباً.

هذا عن مكتبات المؤسسات التعليمية ودورها التربوى، أما المكتبات الخاصة فقد قامت بدور تربوى لا يقل أهمية عن مثيلاتها فى المساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات. فهذه المكتبات التى أنشأها علماء ذلك العصر ووجهاءه وفضلاؤه، أثرت فى أصحابها، فجعلت منهم العالم والطبيب والشاعر والأديب. وفى نفس الوقت لم يجعلوها حكراً عليهم، وإنما استفاد منها أهل بيوتهم وأصدقاؤهم، بل وعامة الشعب فى كثير من الحالات. ومن المكتبات التى أثرت فى أصحابها وجعلتهم يتفوقون ويصبحون من علماء عصرهم مكتبة السجائى الأصفهاني (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) الطبيب الشهير الذى كان يقضى معظم وقته فيها مشغلاً فى القراءة والنسخ. وقد ساعدته هذه المكتبة على أن يؤلف أعداداً كثيرة من الكتب. وأن كتابه «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»^(٢) ليعد أحد ثمار اشتغاله بمكتبته. فقد تحدث فيه عن حوالى أربعمائى كتاب فى مختلف العلوم والفنون، مما يدل على اتساع دائرة معلومات الرجل وثقافته. ومن ذلك أيضاً مكتبة الشيخ أحمد بن أسد الأسيوطى (ت فى ق ٩هـ / ق ١٥م)، فصاحبها كان عالماً فاضلاً برع فى فنون كثيرة مع صرف الهمّة فى المطالعة والنسخ، وقد اعتنى بكثير من كتبه، فجعل لها الحواشى والشروح، وكان يسمح باعارة كتبه لخلائه وتلامذته^(٣)، ومثله فى ذلك غيره ممن ذكرناهم بسلفاً^(٤) وتعج

(١) راجع: عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقرئى، مخطوط، رقم ١٩٠ بلدان، تيمور، دار الكتب المصرية، ص ٦٨.

(٢) راجع: السجائى الأصفهاني: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، القاهرة، ١٩٧٨ وقد تحدثنا عن هذا الكتاب كنموذج لتصنيف العلوم. راجع الفصل الثالث من الكتاب، ص ١٨٠ - ١٨٣.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٤) راجع ما ذكرناه من أمثله فى الفصل الأول من الكتاب، ص ٧٧.

كتى السير والتراجم والطبقات بذكر الملوك من العلماء والأدباء الذين أظهروا نشاطا هائلا فى التأليف والبحث نتيجة استخدامهم لموجودات مكتباتهم الخاصة، فضلا عن مكتبات المؤسسات التعليمية فى العصر المملوكى.

وأذا كان الدور التربوى لأى مكتبة يقاس بمدى مساندتها للعملية التعليمية التى تضطلع المؤسسة الأم بمهامها، وذلك من خلال توفير أوعية المعلومات التى تحتاج إليها المقررات الدراسية وأوجه النشاط التعليمى والتربوى بالمؤسسة، وتنظيم هذه الأوعية بشكل ييسر سبل الاستفادة منها وتقديم أنواع مختلفة من الخدمات، وحث المستفيدين وتشجيعهم على الاطلاع والتثقيف الذاتى، وقبل هذا وذاك تهيئة الجو المناسب للاستفادة من محتويات المكتبة بتوفير المكان المناسب لها، والموارد المالية التى تضمن لها استمراريتها لأداء مهامها، واعداد العاملين المؤهلين تأهيلا مناسباً لتقديم خدماتها، أقول إذا كان الدور التربوى يقاس بمدى توفر هذه الأمور فى المكتبة، فإنا نستطيع أن نؤكد فى ضوء ما تقدم أن المكتبات المصرية إبان العصر المملوكى، قد أدت دورها التربوى على أتم وأكمل وجه فى إطار المتطلبات والإمكانات المتاحة وقتها.

٥ - أوجه الشبه والاختلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية المعاصرة لها :

بعد هذا العرض لخصائص المكتبات المصرية إبان عصر سلاطين المماليك وسماتها الخاصة، وتقييم دورها التربوى، يبرز سؤال مؤداه : ما هو موقع المكتبات المملوكية فى خريطة مكتبات ذلك العصر؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابد من وقفه نحاول أن نتبين فيها أبرز الملامح الخاصة بمكتبات أوروبا فى أخريات العصر الوسيط، والتى عاصرت المكتبات المملوكية، للتعرف على أوجه الشبه والاختلاف بينهما، وعما إذا كانت هناك صلات بشكل ما بينهما^(١).

(١) لم نشأ أن نتناول هنا مقارنة المكتبات المملوكية بالمكتبات الأخرى التى وجدت فى البلاد العربية الإسلامية، وذلك على اعتبار أن المكتبات المملوكية عولجت كنموذج لتلك المكتبات حيث تتشابه كلها إلى حد بعيد فى نظمها وإجراءاتها وخدماتها. أما أوجه الاختلاف فيما بينهما فقد تناولنا فى مواضعها المناسبة فى الكتاب.

إذا كانت القرون الأولى من العصور الوسطى قد بدأت في ظل الفوضى والظلام فقد شهدت القرون الأخيرة من تلك العصور إبتداء من القرن الثاني عشر مظاهر نهضة ثقافية نتيجة احتكاك الأوربيين بالعرب في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، وقبل ذلك في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، الأمر الذي أدى إلى انتشار التجارة، وظهور الطبقة المتوسطة التي اغتنت من اشتغالها بالتجارة، وبدأت تنافس الطبقة الأرستقراطية من الملوك والحكام والنبلاء. وقد أدى هذا بدوره إلى إتساع معرفة الناس بالقراءة. وبذلك استيقظت في الناس رغبة جامحة في الثقافة والعلم بعد قرون طويلة من الجهل والخرمول^(١). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دخول صناعة الورق إلى أوروبا واستعماله في إنتاج الكتب، واختراع الطباعة قد أتاح لحركة الكتب أن تنشط وتزدهر، ومن ثم نشأت المكتبات وتعددت أنواعها. ومن الثابت أن أوروبا في أخريات العصور الوسطى قد عرفت أربعة أنواع من المكتبات هي المكتبات الخاصة، ومكتبات الأديرة، ومكتبات الكاتدرائيات، والمكتبات الجامعية.

لقد انتشرت المكتبات الخاصة في جميع أنحاء أوروبا في أواخر العصور الوسطى بنسب متفاوتة. وبشكل عام نجد أن الحكام والنبلاء كانوا أكثر الناس جمعا للكتب، يتلوهم العلماء والباحثون ثم رجال الدين، وأخيرا أفراد الطبقة المتوسطة الذين اغتنوا من التجارة، فأرادوا تقليد الحكام والأمراء والإقطاعيين في هذا المجال. ومن المكتبات الخاصة التي كانت علامات بارزة في تاريخ المكتبات الأوروبية وقتها. مكتبة الفيلسوف الأنجليزى روبرت جروسستست Rober Grosseteste (١١٦٨ - ١٢٥٣ م) وقد أوصى بها من بعده إلى مكتبة الأخوان الرهبان بأكسفورد Oxford Great Friars Library والتي آلت في النهاية إلى مكتبة بودليان في أكسفورد^(٢)، وكذلك مكتبة الفيلسوف الفرنسى ريشارد فورينفال R. Fournival مستشار مدينة إميان في فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي التي حوت

(١) لمزيد من المعلومات من الخصائص العامة للعصور الوسطى. راجع: جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور

الوسطى الأوروبية وحضارتها، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢، ص ٤٩ - ٥٣.

(2) Irwin, Ramand, The Origns of The English Library, London, 1958, p. 128.

العديد من المؤلفات فى الفلسفة والطب والقانون والإلهيات^(١). ومن أبرز رجالات القرن الرابع عشر الذين كان لهم ولع شديد بالكتب وحرص على جمعها، شخصيتان : أولاها الأسقف الانجليزى ريشارد بيورى Richardde Bury (١٢٨٧ - ١٣٤٥ م) الذى حوت مكتبته الخاصة ما يقرب من ١٥٠٠ كتاب، كان من بينها عدد قليل من الكلاسيكيات. فقد كان يرى أن الاقدمين لم يتركوا موضوعا إلا كتبوا فيه ووفوه حقه، ومن ثم كان حرصه على اقتناء آثارهم شديدا^(٢). وأما الشخصية الثانية فهى الشاعر الايطالى بترارك Petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) الذى أنفق شطراً من حياته مرتحلاً يسعى وراء الكتب يجمعها ويبحث عن نوادرها، ومن فرط حبه للكتب ومجالسته لها، وجد ذات صباح ميتاً ورأسه ملقى على دفتى كتاب^(٣). وفى عام ١٣٦٧ م افتتح الملك الفرنسى شارل الخامس Charles V مكتبته الخاصة التى جمع لها ما يزيد على ٩٠٠ مخطوط، وقد جعل مقرها قصر اللوفر، ووصفت بأنها تحتوى على أنفس المجلدات فى كل العلوم^(٤).

ولعل أعظم مكتبة خاصة على الاطلاق شهدتها القرن الخامس عشر الميلادى هى المكتبة البابوية بالفاتيكان، والتى يعود الفضل إلى انشائها إلى البابا نيقولا الخامس Nichola V (١٤٤٧ - ١٤٥٥ م)، فقد نجح فى أن يجمع فى هذه المكتبة مجموعة من الكتب، وصل

(١) Jonnson, E.D. and Harris, M.H., Hisrory of Libraries in Western World, (١) 1976, p.139.

(٢) لقد خلد دى بيورى اسمه بكتاب ألفه بعنوان Philopiblon أى «صديق الكتاب» عبر فيه عن حبه للكتاب وشغفه الشديد بجمعها، وتعرض فيه لحاجة الناس اليها وضرورة العناية بها. كما عالج فى كتابه هذا النظم المكتبية السائدة فى عصره وقرر أن الكتب المكررة فقط هى التى يمكن أن تعار خارجيا، أما ما عداها فلا يسمح للرواد إلا بالاطلاع عليها داخل المكتبة. للمزيد عن دى بيورى وكتابه ومكتبته راجع : Irwin, Ro-mand, The Origns of the English Library, p. 139

(٣) يذكرنا هذا الرجل بالجاحظ الذى كان يكرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والبحث وأنها سقطت عليه فى آخر أيامه وهو مريض ولم يستطع القيام من تحتها، ومات ضحية هرايته المفضلة. راجع : أبو القدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص٤٧. والحقيقة أن بترارك هذا يعتبره الكثيرون أبا لحركة إحياء التراث الكلاسيكى. للمزيد عن بترارك ومكتبته. راجع هيسيل، ألفريد: تاريخ المكتبات، ص٦٧-٦٨.

(٤) هيسيل، ألفريد : المصدر السابق، ص ٥٦.

عددتها إلى ١١٠٠ مخطوط^(١). وهو رقم وإن بدا لنا الآن صغيرا إلا أنه كان يعتبر رقما ضخما وقتها، ولعله من أضخم الأرقام التي حوتها مكتبة خاصة في أوروبا في ذلك الوقت. ووجد مكتبتان طبيئان في أواخر العصور الوسطى، إحداهما كانت خاصة بسيندل Sindell (ت ١٤٥٠ م) طبيب الامبراطور فريديريك الثالث^(٢) Fridrich III ، والثانية لهرمان شيدل H. Schedel وهو طبيب أيضا (ت ١٤٨٥ م) وقد اهتم كلاهما بجمع كتب طبية بلغات مختلفة منها اليونانية واللاتينية والاطالية والألمانية^(٣).

وكانت الأديرة المسيحية تقوم بجمع الكتب الدينية عن طريق الهبات والنسخ والشراء وكان كثير من الحكام والنبلاء يحرصون على مد تلك الأديرة بالكتب تخليدا لذاكرهم، وطمعا في أن يدعو لهم الرهبان عند كل صلاة فينالون ثواب الله وغفرانه. وقد شهدت القرون الأخيرة من العصر الوسيط ازدهار النشاط التعليمي في الأديرة وذلك بانتشار المدارس الديرية^(٤)، ومن ثم ازدهار مكتبات الأديرة، وأبدى البندكتيون نشاطا واضحا في هذا المضمار، وأقدم مكتباتهم الديرية في القرن الثاني عشر هي مكتبة ديرمونت كاسينو، التي كانت من أعظم وأغنى مكتبات عصرها. وتعتبر مكتبة دير القديس بندكت المقام على نهر اللوار في فرنسا والذي يديره الرهبان الكلونيون من أحسن الأمثلة على المكتبات الديرية التي كان لها دور تعليمي، فقد بلغ عدد المستفيدين منها أكثر من خمسة آلاف طالب في وقت واحد^(٥). والحقيقة أن جميع الطوائف الرهبانية التي تأسست في أوروبا في أواخر العصور الوسطى، اهتم قسم كبير منها، بالثقافة والتعليم والمكتبات، ونخص بالذكر طائفة الرهبان الكولونيين والدومينكان والفرنسيسكان، لدرجة أنه قدر عدد الأديرة في

(١) محمد ماهر حمادة : المكتبات في العالم، ص ١٦٨ - ١٦٩ هيسيل، تاريخ المكتبات ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) Thompson, J,W, The Medieval Library, 1976, P. 53

(٣) - Thompson, op. cit, p. 569

(٤) عن المدارس الديرية ودورها في الحركة الثقافية في العصور الوسطى. راجع : جوزيف نسيم يوسف : نشأة

الحامعات في العصور الوسطى، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤، ص ٦٢، ٦٤ - ٦٤، سعيد عبد الفتاح

عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، النظم والحضارة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٥) محمد ماهر حمادة : المصدر السابق، ص ١٤٨.

انجلترا في القرن الرابع عشر بثمانمائة دير كانت تحتوى على حوالى ٣٠٠ ألف مجلد على أقل تقدير^(١).

ويقترب بالمكتبات الديرية المكتبات الكاتدرائية^(٢)، التي بدأت في الظهور والتطور مع القرن الحادى عشر فصاعدا. فقد وجدت مكتبات في جميع الكاتدرائيات والمدارس الملحقة بها، ولكنها تختلف عن مكتبات الأديرة في أنها كانت تحتوى كتباً علمانية أكثر بكثير مما تحتويه المكتبات الديرية، لأن مهمة مكتبة الكاتدرائية كانت تربية تثقيفية، على حين أن وظيفة مكتبة الدير كانت تنمية الجوانب الروحية فحسب. كذلك كان نمو مكتبة الكاتدرائية أكثر من نمو مكتبة الدير لأن موارد الكاتدرائية الثابتة المستقرة كانت تسمح لها بذلك، ومع الأيام غدت مجموعات الكاتدرائيات أكمل وأغزر وأحسن تنظيماً من مثيلاتها الديرية. كما أن الافادة من مكتبات الكاتدرائيات كانت أسهل وأيسر من مثيلتها الديرية والتي اقتصر على الرهبان. ولعل أشهر مكتبات الكاتدرائيات تلك التي وجدت في يورك ودورهام وكانتربرى في إنجلترا، وتلك التي وجدت في مدن نوتردام وأورليان وروان في فرنسا وفي هامبرج بألمانيا.

ومع نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادى، بدأ ظهور الجامعات^(٣) في أوروبا، وفي باريس بفرنسا، وفي بولونيا بإيطاليا، ثم تتابع ظهورها في القرن الرابع عشر الميلادى في كافة بلدان الغرب. فظهرت جامعات جديدة في فينا وبراج وكامبريدج واكسفورد. ولم يكن لهذه الجامعات مكتبات لفترة طويلة من الزمن،

(١) - Ker, N. (ed), Medieval Libraries in Great Britain, London, 1964, B.XI

(٢) الكاتدرائية هي مركز الأساقفة أو رؤساء الأساقفة، ولم تكن مجرد كنائس كبرى وجدت في المدن الرئيسية فقط، ولكن كانت بالإضافة إلى ذلك مدارس لتدريب رجال الدين والكنيسة الجدد الذين سيعملون في وظائف كهنوتية أو في السلك الحكومى. للمزيد عن الكاتدرائيات ونظامها وقانونها. راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور المرجع السابق، ص ١٤٣ - ١٣٥.

(٣) للتعرف على نشأة وتطور الجامعات في أوروبا في العصور الوسطى وظروف ومراحل هذا التطور. راجع: جوزيف نسيم يوسف: نشأة الجامعات في العصور الوسطى، الاسكندرية، ١٩٨٤، سعيد عبد الفتاح عاشور: الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٩ م.

ذلك أن بعض الطلاب كانوا يملكون مجموعات من الكتب، كما كان يوسع الطلاب استئجار الكتب التي هم بحاجة إليها من تجار الكتب الذين انتشرت حوانيتهم بجانب الجامعة وتحت رقابتها^(١). ولما زاد عدد الطلاب أجبرت الجامعات على تأسيس مكتبات خاصة بها. ومع مضي الوقت أصبح الأفراد يهدون الجامعات كتباً لاستعمال الطلاب. ولعل أقدم ذكر موثوق به لمكتبة جامعية هي مكتبة السوربون بجامعة باريس، التي أسسها روبرت السوربوني Robert de Sorbonne راعي كنيسة لويس التاسع. وقد حملت اسمه وأصبحت الآن أشهر من أن تذكر. وكان السوربون في الأصل كلية أقامها روبرت لدراسة اللاهيات بجامعة باريس، وأهداها مكتبته الخاصة، ثم تدفقت عليها بعد ذلك الهدايا والهبات في سرعة هائلة وأعداد كبيرة مما جعلها تفوق الجامعات الأخرى في باريس^(٢). وقد بلغ عدد رصيدها في عام ١٣٣٨ م أي بعد قرن من إنشائها حوالي ١٧٢٢ مجلد^(٣). وأما مكتبة جامعة أكسفورد بانجلترا فلم تملك كلياتها مكتبات خاصة بها إلا في أواخر القرن الرابع عشر. فمثلا كلية ميترتون باكسفورد التي تأسست عام ١٢٧٤ م لم تملك مكتبة خاصة بها إلا في عام ١٣٧٧ م. وأما أول كلية الحقت بها مكتبة منذ تأسيسها في جامعة أكسفورد هي تلك التي أنشأها وليم ويكهام أسقف وينشستر في عام ١٣٨٠ م ومنحها مكتبته الخاصة التي كانت تشتمل على ٣١٢ مجلد^(٤). ولقد تعددت الجامعات في أوروبا في أخريات العصور الوسطى حتى بلغت قبل نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حوالي سبع وخمسين جامعة، لكل واحدة منها عدد من مكتبات الكليات فضلا عن المكتبة المركزية للجامعة.

وهكذا عرفت أوروبا في أخريات العصور الوسطى أربعة أنواع من المكتبات هي المكتبات الخاصة، ومكتبات الأديرة، ومكتبات الكائدراتيات، والمكتبات الجامعية. وهي

(١) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٢) هيسل: تاريخ المكتبات، ص ١٦١.

- Johnson, E.D. ,A history of Libraries, pp. 122 - 123

(٣) جوزيف نسيم يوسف: المصدر السابق والصفحة.

(٤) محمد ماهر حماده: المصدر السابق، ص ١٥٨.

بذلك تتشابه إلى حد بعيد المكتبات المملوكية . فكما اهتم المماليك وأمراؤهم ورجال دولتهم باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة بهم^(١)، كان كذلك الحكام والنبلاء والعلماء ورجال الدين في أوروبا مولعين بجمع الكتب واقتنائها^(٢) . ومرجع ذلك أن حب التملك غريزة فطرية في الانسان، وحينما توجد كتب تجد تلك الغريزة مجالا للانطلاق . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشابهت مكتبات الأديرة بمكتبات المؤسسات الصوفية الإسلامية في أن كليهما كان يهتم بتجميع الكتب الدينية التي تخدم الهدف من إنشاء المؤسسة الأم وهو تنمية الجوانب الروحية^(٣) . أما المكتبات الملحقة بالكاتدرائيات فهي تشبه إلى حد بعيد مكتبات المساجد حيث أن كليهما حرص على توفير الكتب الدينية وغير الدينية بما يخدم هدفيهما التعليمي والتربوي^(٤) . وكذلك هناك وجه شبه بين المكتبات الجامعية والمكتبات المدرسية المملوكية، حيث كانت المدارس هي الكليات الجامعية في العصر المملوكي، غير أن المكتبات المدرسية نشأت مبكرة عن مثيلتها الجامعية، كما تميزت بكثرة عددها ووفرة مجموعاتها^(٥) . ومن ناحية ثالثة عرف المجتمع المصري إبان العصر المملوكي برعا آخر من المكتبات لم تعرفه أوروبا إلا في العصر الحديث هي مكتبات البيمارستانات^(٦) .

وثمة ملاحظة أخرى بشأن تشابه المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية في أخريات العصور الوسطى، وهي أن كليهما ارتبط في نشأته بالأمكان المقدسة، حتى الجامعات قامت على أساس ديني وكانت جذورها تمتد في أرض كنيسة . وهنا يبرز سؤال هو : لماذا هذا الارتباط ؟ أوريما نعلله ؟ هناك عوامل ثلاثة نرجح أنها كانت سببا ارتباط المكتبات المملوكية والأوروبية في نشأتها بأمكان العبادة هي :

١ - أن العلم عباده، وأن الكتب هي أدوات العلم، فمن الطبيعي أن تستقر المكتبات في دور العبادة .

(١) راجع الفصل الأول، ص ٧٠ - ٧٨ .

(٢) راجع الفصل الرابع، ص ٢١٤ - ٢١٦ .

(٣) راجع الفصل الأول، ص ١٠٢ - ١٠٥ وقارن : الفصل الرابع ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) راجع : الفصل الأول ، ص ٧٨ - ٨٥، وقارن : الفصل الرابع ص ٢١٧ .

(٥) راجع : الفصل الأول، ص ٨٥ - ٩٩، وقارن : الفصل الرابع ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٦) راجع : الفصل الأول، ص ٩٩ - ١٠١ .

٢ - أن أماكن العبادة أماكن عامة، يتجمع فيها الناس، ومن ثم فهي أنسب الأماكن لإنشاء مكتبات ينتفع بها الناس كافة.

٣ - أن هذه الأماكن أصون لما فيها، وأكثر أماناً من غيرها وخاصة في أوقات الفتن والحروب والثورات، حيث لها من القدسية وما يجعلها بمنأى عن أن يصيبها التخريب أو يلحقها الأذى^(١).

وإذا كان هذا التشابه بين المكتبات المملوكية والأوروبية في أخريات العصر الوسيط في أنواعها فإن هناك ثمة اختلاف بينهما في محتوياتهما حيث أن مجموعات المكتبات المملوكية كانت تغطي جميع فروع المعرفة البشرية. وذلك راجع إلى تقدم العلوم عند العرب وكثرة المؤلفات في ذلك العصر، أما محتويات مكتبات أوروبا في العصر الوسيط فكانت تختلف من مكان لآخر. ولكن كان هناك نهج موحد في التغطية الموضوعية لها. فقد كانت الغالبية العظمى من الكتب باللغة اللاتينية مع وجود عدد قليل جداً باللغات المحلية، وأقل باللغة اليونانية القديمة. وكانت الكتب الدينية هي العامود الفقري للمكتبة، ويأتي على رأسها الكتاب المقدس وشروحه، وكتابات الآباء وتراجم القديسين، وكانت الصلوات، والقانون الكنسي، ثم تأتي بعد ذلك الكتب الكلاسيكية، فكتابات مؤلفي العصور الوسطى مع شيء من التاريخ والأدب المحلي. وقد زادت المكتبات الجامعية على ذلك كتب الفلسفة والطب والقانون والفلك والرياضيات وغيرها من الموضوعات التي كانت تدرس في الجامعة^(٢).

وإذا كانت المكتبات المملوكية لم تملك أبنية خاصة بها، حيث كانت ملحقة بمؤسسات أخرى، وكانت تخصص لها حجرات مزودة بخزانة ودواليب وأرفف خشبية لحفظ الكتب^(٣)، فإن مكتبات أوروبا في أخريات العصور الوسطى كانت تحفظ مجموعاتاً في بداية الأمر في صناديق، ومع زيادة عدد الكتب وتنوع موضوعاتها استبدلت صناديق

(١) راجع : عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) محمد ماهر حماده : المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٣) راجع الفصل الثاني، ص ١١٤ - ١١٨.

الكتب بخزائن، ثم غرف خاصة بها، حتى بنيت أبنية خاصة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. كما كان الحال في مكتبة كاتدرائية المسيح في كانتربري في إنجلترا، إذ بنيت لها غرفة خاصة ذات أبعاد ٦٠ x ٢٢ قدما لتكون مكتبة^(١)، وقد رتبت الكتب في هذه الغرفة الطويلة الضيقة على أرفف بشكل يسمح لها أن تتعرض لأكبر كمية من الضوء. وأما المكتبات الجامعية فقد كان لأغلبها أبنية مستقلة خصصت منذ البداية لتكون مكتبات، كما كان الحال في جامعة هايدلبرج في جامعة فيينا، وجامعة كامبريدج، والسوربون. وكانت مكتبة السوربون، على سبيل المثال، عبارة عن غرفة طويلة وضيقة ذات أبعاد ٤٠ x ١٢ قدما تديرها تسع عشر فتحة صغيرة من كل جانب من أجل دخول الضوء. وقد وضع في الغرفة ثمان وعشرون منضدة، وسلسلت الكتب الثمينة والممنوع إعارتها خارجيا بالسلاسل حيث ثبتت إلى الرفوف ولكن السلاسل كانت طويلة إلى الحد الذي يسمح بإيصال الكتب إلى المنضدة للاطلاع عليها^(٢).

ويبدو أن معظم العاملين في هذه المكتبات في تلك الفترة كانوا غير معروفين. فلم يذكر المؤرخون الذين تعرضوا لدراسة هذا الموضوع^(٣) أيا منهم، ولكن كان كل اهتمامهم منصبا على دراسة واجبات العاملين، والتي كانت تنحصر في الحفاظ على الكتب. وهنا يجب أن نسجل بشكل موضوعي مدى تقدم المكتبات المملوكية على المكتبات الأوروبية في هذا الجانب، حيث كانت أهم واجبات خازن الكتب المملوكية تقديمها للمستفيدين وتيسير سبل الانتفاع بها، ثم يعا ذلك المحافظة عليها^(٤).

وثمة تشابه آخر بين المكتبات المملوكية والأوروبية فيما يتعلق بمصادر التزويد، حيث كانت كل منهما تحصل على كتبها عن طريق النسخ والاهداء والشراء^(٥) وإذا كانت

(١) - Ker, N. , Medieval Libraries in Gteat Britain, pxix

(٢) للمزيد عن هذا الاجراء الذي كان من أبرز سمات مكتبات أوروبا في العصور الوسطى، راجع

- Streeter, B. H., The Chained Library, London, 193.

(٣) راجع : المراجع الأجنبية الملتب ببياناتها في آخر الكتاب. رقم ٦ - ٨، ١٥، ١٧، ١٨، ٢١.

(٤) راجع الفصل الثاني، ص ١٣٦ - ١٤١.

(٥) راجع الفصل الثالث، ص ١٥٨ - ١٧٣.

المكتبات المملوكية قد انفردت باتباعها نظام الوقف كمصدر أساسى ورئيسى للتزويد، حيث أن هذا النظام الإسلامى لم تستخدمه مثيلتها الأوروبية، فإن بعض المكتبات الأوروبية فى أخريات العصور الوسطى قد اعتمدت على المنح والعطايا كمصدر أساسى ورئيسى أيضا للتزويد. وكانت المنح تأتي من الرهبان الذين ينضمون إلى المؤسسات الدينية والتعليمية مجددا، وإذا كانوا يحملون معهم كتبهم التى يمتلكونها. كذلك أتى عدد هام من الكتب كإرث أوصى به شخص عند موته لمكتبة الدير أو الكاتدرائية أو الجامعة. من ذلك ما أوصى به الامبراطور الألماني فريدريك الثانى Fridrik II مجموعة كتبه بعد موته إلى جامعة بولونيا للقانون، وكان ذلك فى أوسط القرن الثالث عشر الميلادى. كذلك منح الأسقف ماتياس Matiac الذى كان أسقفا لمدينة وورمس Wormc الألمانية تسعين كتابا لجمعة هايدلبرج سنة ١٤١٠ م. كما أوصى جوهانس سيندل G. Ceindei بمائتى مجلد فى الطب والرياضيات لجامعة براغ سنة ١٤٥٠ م^(١).

وإذا كانت المكتبات المملوكية قد استخدمت الفهارس لتنظيم مجموعات المكتبة وتيسير سبل الاستفادة منها^(٢)، فإن المكتبات الأوروبية كانت لها فهارسها التى تتفق ومجموعاتها. وقد أورد المؤرخون نماذج عديدة منها فهرس دير بروفنتج^(٣) Pru Fening وفهرس مكتبة كنيسة المسيح فى كانتربرى الذى يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وهو أول فهرس يستخدم الربط بين الكتب فى الفهرس والكتب فى المكتبة عن طريق الرموز^(٤) وهو غير الفهرس الذى أعد لنفس المكتبة عام ١٣٣١ م وكان مرتبا ترتيبا هجائيا^(٥)، وفهرس مكتبة كاتدرائية أكسيتير Exeter Cathedral Library الذى أعد سنة ١٣٢٧ م، وكان فهرسا بالمؤلف، وكان يُقيم كل كتاب مما يدل على أن الهدف منه هو قائمة جرد فحسب. ولعل من أهم الفهارس التى ظهرت فى القرن الخامس عشر هو

(١) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٢) راجع الفصل الثالث ص ١٧٦-١٨٧.

(٣) - Thompson, The Medieval Library, p 61

(٤) - Ker, N.R, Medieval Libraries in Great Britain, P. Xix

(٥) - Norris, A history of Cataloguing, P. 38

فهرس مكتبة سانت أوغستين St. Augustin فى كانتربرى سنة ١٤٩٧ م. وتبدو أهمية هذا الفهرس فى أنه كان يعطى معلومات ببليوجرافية كاملة عن كل كتاب مثل اسم المؤلف وعنوان الكتاب، واسم الواهب الذى قدم الكتاب إذا كان مهدى، ومحتويات الكتاب^(١).

ولعل أهم ما تميزت به مكتبات أوروبا فى العصور الوسطى هو استخدامها للفهارس الموحدة : Union Catalog وهو ما لم تعرفه المكتبات المملوكية. ويمكن أن نتلمس بدايات هذا النوع من الفهارس فى فهرس المكتبات الإنجليزية الذى أعد سنة ١٢٩٦ م. وكان يحاول حصر مقتنيات ١٨٣ مكتبة ديرية فى إنجلترا. ولكن هذه المحاولة لم تكتمل، حتى جاء أحد رهبان دير سانت ادموندز St. Edmunds فى مطلع القرن الخامس عشر وأكماله، وقد وصل عدد المؤلفين فيه إلى سبعمائة مؤلف^(٢) وكانت فهارس هذه المكتبات مجرد قوائم جرد واسعة مع الربط بين الكتب وأماكن وجودها على الرفوف، وكانت معلوماتها الببليوجرافية مختصرة جدا لكنها كانت تكفى لمعرفة الكتب فى ذلك العصر.

وعلى كل حال، فإن نظام العمل فى هذه المكتبات كان يقضى بتوفير الكتب للاستخدام. وإذا كان للمكتبات المملوكية آدابها وقواعدها الخاصة باستخدام مجموعاتها من الكتب سواء بالإعارة الداخلية^(٣) والنسخ أو الإعارة الخارجية، فإن المكتبات الأوروبية كانت لها أيضا آدابها وقواعدها التى اختلفت قليلا عن تلك التى كانت مطبقة فى مثيلاتها المملوكية. ذلك أن المكتبات الأوروبية يسرت مجموعاتها للإعارة الداخلية، لكن الكتب لاسيما النادر والمهم منها كانت تسلسل بالسلاسل على نحو ما أشرنا سلفا. كذلك كان يوجد فى هذه المكتبة جزء مباح من الكتب للإعارة الخارجية للرهبان وغيرهم. وكانت العادة أن يعار كتاب واحد فقط مرة واحدة لمن يقيم فى منطقة الدير أو الكاتدرائية، وفى بعض الحالات النادرة كان يسمح باستعارة كتاب لمدة سنة، ويسمح للمستعير بحمله معه إلى محل سكنه. وكانت الكتب تعار لبعض المجاورين للكنيسة كأحد رعاة الكنيسة أو الحكام أو

- Savage, E. ,Old English Libraries, P. 1 04

(١)

- Savage, PP. 58 - 59

(٢)

(٣) راجع ص ١٩٩- ٢٠٨ من الكتاب.

النبلاء، وفي هذه الحالة كان يوضع رهن مناسب لما أعير^(١). وأما المكتبات الجامعية فقد كان يسمح للطلاب في بعض الحالات باستعارة كتاب لمدة شهر أو أكثر.

وفي حالات أخرى لم يكن يسمح للأساتذة وطلاب الدراسات العليا، بإخراج الكتب من المكتبة، كما كان يمكن استعارة بعض الكتب لقاء رهن كما في المكتبات الديرية. وفي مكتبة السوربون كانت هناك قواعد لاستخدامها ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر، وكانت تفيد بأن الكتب تستعمل فقط في المكتبة، وإذا خرجت من المكتبة وجب إعادتها قبل انتهاء اليوم، وإذا استعار الكتاب شخص آخر غير الطالب أو الاستاذ وجب عليه أن يضع رهنا مساويا لثمن الكتاب. وفي عام ١٤٨٠م سن السوربون قواعد إضافية لاستخدام المكتبة أكد فيها على نفس القواعد السابقة فضلا عن تحريمها للاطلاع على الكتب المخالفة لمذهب الكنيسة الرسمي وهو المذهب الكاثوليكي، مع استثناء اللاهوت من ذلك^(٢).

ومن كل ما تقدم يتبين لنا مدى التشابه والاختلاف في الموارد والنظم والخدمات بين المكتبات المملوكية في مصر، ومكتبات أوروبا في أخريات العصور الوسطى والتي كانت أوجه التشابه فيها أكثر من أوجه الاختلاف. وهنا يبرز تساؤل يطرح نفسه هو إذا كان ثمة تشابه كبير بين المكتبات المملوكية والمكتبات المعاصرة لها في أوروبا، فهل وجدت صلات علمية بشكل مباشر أو غير مباشر بين هذه المكتبات وتلك؟ للأسف الشديد فإن المصادر العربية المعاصرة والوثائق المملوكية وكذلك المراجع العربية والأجنبية والتي تحت أيدينا لم تمدنا بأي إشارة يمكن أن نستشف منها بأنه كانت هناك صلات أو تعاون بشكل ما بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية في أخريات العصور الوسطى فيما يختص بالموارد المادية والبشرية، والإجراءات الفنية والنظم، والخدمات والأنشطة. ولكن على الرغم من عدم وجود الأدلة التي تثبت قيام تعاون ما بين المكتبات المملوكية ومثيلاتها في أوروبا، إلا أنه في عصر

(١) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

متعطش للعلم والمعرفة، وفي عصر كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية في ذروتها وتسعى أوروبا لكي تلهل منها بشتى السبل بعد قرون طويلة عاشتها في الفوضى والجهل والظلام. يمكن القول في ضوء هذه الاعتبارات بجواز وجود تبادل عقلي وفكري وثقافي بين مكتبات الممالك ومكتبات أوروبا آنذاك. يعزز ذلك أن الاتصالات العلمية كانت قائمة بين حكام مصر وحكام الغرب الأوربي حتى قبل العصر المملوكي، ويتمثل ذلك بجلاء في الاتصالات التي تمت بين الامبراطور الألماني فريدريك الثاني وبين الكامل محمد حفيد صلاح الدين حول مسائل علمية في الفلك والرياضيات والطب وخلافه.

وبعد هذا العرض لتاريخ المكتبات في مصر إبان عصر سلاطين الممالك، وبعد أن تعرفنا على مواردها ونظمها وخدماتها، ودورها التربوي والتعليمي، وأوجه التشابه والاختلاف بينهما وبين المكتبات الأوروبية المعاصرة لها، بعد كل هذا يبرز سؤال يطرح نفسه على بساط البحث ملحا في طلب الإجابة عنه هو: ما هو المصير النهائي الذي آلت إليه المكتبات المملوكية؟ هذا ما سنتناوله بالتفصيل في الفصل التالي والأخير من الكتاب.

الفصل الخامس

مصادر المكتبات المملوكية

- ١ - تدهور أوضاع المكتاب المملوكية والتفريط في محتوياتها:
 - التلف والتبديد : أسبابه ومظاهره.
 - استغلال الكتب ونهبها من قبل العلماء والقضاة .
 - تفريط المشرفين على المكتبات وسوء إدارتهم لها.
 - تدهور الأوقاف ونظامها في أواخر العصر المملوكي وأثر ذلك على المكتبات.
- ٢ - الفتح العثماني لمصر وتأثيره على المكتبات المملوكية:
 - تعرض المكتبات المملوكية للسطو والنهب من قبل الولاة الأتراك، والعوام.
 - مكتبات مصر إبان الحكم العثماني وما بعده.

تبين لنا فيما سبق كيف اهتم المماليك وأمرأؤهم وعلمأؤهم وقضائهم وتجارهم، بل وعامة الشعب المصري، بالكتب والمكتبات بوصفها أداة تعليمية تربية، فانتشرت المكتبات في جميع أنحاء مصر من أقصاها إلى أقصاها فلم يقتصر وجودها على المساجد والمدارس بوصفها مؤسسات تعليمية، بل وجدت المكتبة داخل كل منشأة مملوكية، كبيرة كانت أم صغيرة، لتلبية احتياجات مجتمعا حتى وإن كان محدودا. فنتج عن ذلك مكتبات في البيمارستانات، ومؤسسات الصوفية، حتى وصل الأمر إلى إيجاد مكتبات في الترب والمقابر، فضلا عن المكتبات الخاصة التي انتشرت هي الأخرى في بيوت السلاطين والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم. كما تبين كيف اهتم المماليك بهذه المكتبات فوفروا لها جميع عناصر تقديم الخدمات والأنشطة المكتبية، من موارد مادية وبشرية وتنظيمية، فنمت وازدهرت، وأدت دورها التعليمي والتربوي وكانت الوعاء الذي احتضن التراث العربي الإسلامي بعد النكبات التي أصابت المكتبات في البلدان الإسلامية الأخرى على أيدي المغول والصليبيين^(١).

(١) لعل من أبرز المكتبات التي دُمّرت مقتنياتها نتيجة للغزو الخارجي لبلاد المسلمين : مكتبات العباسيين في بغداد على أيدي التتار، ومكتبات بني عمار في طرابلس الشام على أيدي الصليبيين ، ومكتبات الأندلسيين على أيدي الاسبان.

لمزيد من التفاصيل عن هذه المكتبات ونشأتها وتطورها ومصائرهما. راجع : ابن النديم : الفهرست، ص ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٣٣، ٣٣٤؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج ١، ص ٤٦٦، ٤٦٧؛ المقرئ : نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب، ج ١، ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٧١؛ وراجع أيضا محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام (صفحات متفرقة)؛ خوليان ربيرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية، ترجمة جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤ (مايو ١٩٥٨)، ص ٧٧-٩٧، مج ٥، (مايو ١٩٥٩) ص ٦٩-١٠١؛ السيد النشار : مكتبات بني عمار في طرابلس الشام، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، مج ١١، (١٩٩٠)، ص ٢٨-٦٥؛ محمد مجاهد هلالى : خزائن الكتب العباسية (صفحات متفرقة).

والكتب والمكتبات مخلوق كسائر المخلوقات، تخضع لسنة الهناء والشقاء، أو قصر العمر أو طول البقاء، وقد يقابلها الصديق الوفي الذى يحافظ عليها ويعمل على منفعتها، وكذلك العدو اللدود الذى يسعى لايقاع الأذى بها. وإذا كانت المكتبات المملوكية قد نالت حظها من العناية والإكرام، ومن التعظيم والتشجيع، فإن هناك صفحة مظلمة من تاريخها، قد شوهت معالم الصورة، وقلبت فكرتنا عنها رأساً على عقب، وهو ما نالته المكتبات من تشريد وحرق واتلاف سواء فى عصر المماليك نفسه أو فى العصور التالية له.

ونحاول فى هذا الفصل التعرف على المصير الذى آلت إليه المكتبات المملوكية وتتبع أسباب، ومظاهر تدهور أوضاعها والتفريط فى محتوياتها حتى زالت من الوجود وحلت محلها المكتبات العثمانية لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ المكتبات فى مصر.

١ - تدهور أوضاع المكتبات والتفريط فى محتوياتها:

ويبدو أن ازدهار المكتبات المملوكية وكثرة عددها وتنوع فئاتها وتضخم أوقافها وندرة موجودها، قد حمل فى طياته عوامل الانهيار والتدهور، وذلك بتخريبها وتدميرها والسطو عليها، وسوء إدارتها والتفريط فى تحمل أمانتها. ذلك أن أغلب ما حل بها من رزايا ومصائب كان مصدره إما أفراد أو جماعات استفادت هى أو استفاد أسلافها من موجودها، فضلاً عما حل بها من نكبات بفعل الكوارث الطبيعية والفتن الداخلية.

ويأتى حرق الكتب فى مقدمة هذه الكوارث. ومن المكتبات التى صارت كتبها طعماً للذيرار، مكتبة الشيخ جلال الدين الغونوى الخاصة، فقد ذكر صاحب «عقد الجمان» أن كتبه قد أحرقت إثر حريق أصاب بيته فى عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م^(١). ومن ذلك أيضاً المكتبة السلطانية بالقلعة، فيذكر المقرئى أنه قد وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (١٢٩١ م)، فتلف بها من الكتب فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيئاً كثيراً^(٢). وإذا كنا نشعر من هذين النصين اللذين أوردهما العيني والمقرئى بأن ما وقع لتلك المكتبات من حريق كان قضاء وقدرًا فى جزء كبير منه فإن

(١) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ١٢٩.

(٢) المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤ راجع أيضاً: العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١١٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٣٢٦، ابن الفرات: التاريخ، ج٨، ص ١٣٥، القلقشندى: صبح الاعشى، ج١، ص ٤٦٧.

هناك العديد من الكتب والمكتبات التى تعرضت عمدا للحرق والنهب والاتلاف . من ذلك ما ذكره السخاوى عن تغرى برمش بن يوسف (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٩م) أنه كان متعصبا لأهل السنة كثيرا من الحد على ابن عربى^(١) ونحوه من متصوفى الفلاسفة، ومبالغته فى ذلك بحيث صار يحرق ما يقدر عليه من كتبهم^(٢).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تعرضت بعض المكتبات التى لم يكن لها القدر الكافى من الصيانة، لعوامل التهرية كالرطوبة والحرارة والعفن والندى والغبار والأتربة والضوء الزائد والحشرات، وسوء الاستعمال وتقادم الكتب، وكثرة استخدامها، وغير ذلك من أسباب التلف الطبيعى أو الناتج عن الإهمال . وبعد الحافظ عماد الدين السلفى (ت ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م) من الذين ألفت مكتباتهم الخاصة نتيجة لعوامل الجو الطبيعى . فقد ذكر الذهبى عنه أنه كان من أعظم أهل عصره علما وحفظا، وكان ينفق دخله كله على جمع الكتب، وقد تلفت لأنه لم يتيسر له التفرغ للنظر فيها فأصابها العفن والتصدت أوراقها بسبب النداءة فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها^(٣). ومن ذلك أيضا مكتبة محمد بن محمد المراغى (ت ٨١١هـ / ١٤٠٨م) الذى كان جماعا للكتب دائم الاشتغال بها . وطبقا لرواية السخاوى فإنه خلف كتب كثيرة جدا، تلف أكثرها بالأرضة وغيرها^(٤).

ومن الكوارث التى أتت على السواد الأعظم من مقتنيات بعض المكتبات المملوكية، ذلك الزلزال الذى وقع بأرض مصر عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢ . ومن وصف المؤرخين لهذا الزلزال وما أعقبه من فيضانات نستنتج ما حل بأرض مصر من خراب ودمار للمنازل

(١) هو الشيخ أبو بكر محمد بن على الملقب بمحيى الدين بن عربى الأندلسى (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) وهو شيخ علماء الصوفية، ويعتبر من أكبر علماء العرب وأغزرهم علما، له ما ينوف عن ثلاثمائة رسالة لعل أشهرها «موسوعة الفتوحات المكتبية»، التى جمع فيها أشتاتا من المعارف الإسلامية السائدة فى عصره . راجع أبو العلا عفيفى: فهرست مؤلفات ابن عربى، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية مج ٨، (١٩٥٤) ص ١٩٣ - ٢٠٧، الشحرانى: الطبقات الكبرى ج ١، ص ١٣١.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣١.

(٣) الذهبى: تذكرة لحفاظ، ج ٤، ص ١٣٠٣.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢٩.

والمساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات بما فيها من المكتبات. ومن ذلك الجامع الحاكم والجامع الأزهر، لكن هذه المساجد وغيرها ما لبثت بعد الخراب أن عُمِّرت ووقفت عليها مكتبات جليلة عيل حد رواية المقرئى^(١).

وكان لموقع بعض المؤسسات التعليمية المملوكية فى مواجهة القلعة، أن تعرضت تلك المؤسسات بما فيها مكتباتها للتدمير والنهب والتخريب إبان الفتن والمنازعات التى كانت كثيرا ما تنشب بين المماليك من أجل الاستيلاء على السلطة مثلما حدث لمدرستى السلطان حسن والسلطان شعبان إبان الصراع الذى دار بين ممالك الأمير منطاش، ومماليك برقوق من أجل السلطة بعد أن استولوا على هاتين المدرستين فتمكنوا بذلك من القضاء على الفتنة^(٢). كذلك إبان فتنة الأمراء بقيادة أقبرد فى عام ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م حيثما استخدم المتمردون مدرسة السلطان حسن لضرب القلعة فقام المماليك السلطانية بالرد عليهم، فرموا بالمكحلة^(٣) على من فى المدرسة، ثم زحفوا عليهم وهجموا على كل من كان بالمدرسة وأحرقوا ما بداخلها^(٤)، وفى أعقاب هذه الفتن كانت المدارس تتعرض للنهب والسطو من قبل المماليك المنتصرين، ومن قبل العوام أيضا، وقد شمل هذا السطو كل ما فى المدارس من بسط وقناديل وشبابيك ورخام وكتب وغير ذلك^(٥).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأزمات الاقتصادية التى كانت تشهدها

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٧٨؛ راجع أيضا : الحسن بن عمر بن حبيب : تذكرة التنبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج١، ص ٢٥٣؛ المقرئى : نهاية الأرب، ج٣٠، ق ١، ص ٧٠٢ هـ؛ السيوطى : حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) انظر تفاصيل تلك الصراع فى : المقرئى : السلوك، ج٣، ص ١٠، ص ٣٨١ - ٣٨٢؛ الخطط، ج٢، ص ٣١٥؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، ج٣، ص ١١٨ - ١٩٤.

(٣) المكحلة هى مدفع البارود. راجع : القلقشندى : صبح الاعشى، ج٢، ص ١٤٤.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٥) راجع على سبيل المثال : ابن إياس : المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٨، ٣٢٨ - ٢٣٠؛ المقرئى : السلوك، ج٣، ق ٣، ص ٩٨٧ - ٩٨٨؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء العمر، ج٢، ص ٩٦؛ أبو المحاسن : حوادث الدهور، ج٢، ص ٢٧١.

البلاد من حين لآخر^(١)، كانت تلقى بتبعاتها على المكتبات كغيرها من مرافق الدولة. من ذلك المكتبة السلطانية بالقلعة. فقد ذكر المقرئى أنه لما وقع الغلاء بأرض مصر فى عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م إبان حكم كتبغا المنصورى، مس طلاب العلم الضر، فنهبوا كتبها، وصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما فيها من كتب^(٢) لقاء لقمة العيش. ولم تكن هذه المكتبة السلطانية هى المكتبة المملوكية الوحيدة التى كان مصيرها بيع موجودها من الكتب والمؤلفات، إذ تضم المصادر التاريخية التى ترجع إلى العصر المملوكى، أخبار كثيرة عن أناس باعوا مكتباتهم الخاصة بسبب ضيق العيش، أو تسديداً لديونهم أو لمواجهة حالة الإعصار التى وقعوا فيها لسبب من الأسباب، كما جرت العادة أن تباع محتويات مكتبة العالم الخاصة أو مالك الكتب الذى يموت ولم يخلف ذرية يحبون العلم أو كانوا أناثاً، أو لغيره من الأسباب، وقد ذكرنا من قبل نماذج عديدة لذلك^(٣).

وإذا كانت الكوارث الطبيعية، قد أودت بحياة بعض المكتبات، ودمرت محتوياتها تدميراً، فإن بيع محتويات بعضها الآخر كان أقل وطأة منها حيث كانت النتيجة الطبيعية لبيع مكتبة ما أن تكون نواه لمكتبة تنشأ حديثاً أو لتدعم بها مجموعة مكتبة موجودة بالفعل. فلم نسمع عن أحد فى العصر المملوكى اقتنى كتباً لغرض غير القراءة أو تأسيس مكتبة أو وقفها على طلبة العلم فى أحد المؤسسات التعليمية، إلا فيما ندر، لاسيما وأن ثمن الكتب فى ذلك الوقت مرتفعاً إلى حد ما. ومن هذه المكتبات التى انتقلت مجموعاتا بيعاً إلى مكتبات أخرى : مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين، فقد اشترى جمال الدين يوسف الاستادار الكثير من محتوياتها، بعد هدمها، وجعلها نواه لمكتبة مدرسته التى أطلق عليها الجمالية الاستادارية^(٤). وكذلك مكتبة القاضى برهان الدين بن جماعة الخاصة، فقد اشترىها الأمير جمال الدين محمود الاستادار من ورثته، وجعلها نواه لمكتبة المدرسة المحمودية التى أنشأها خارج باب زويلة سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م^(٥).

(١) راجع ص ٥٢ من هذه الرسالة.

(٢) المقرئى : الخطط، ج ٢ ص ٣٦٦.

(٣) راجع، ص ١٦٣ - ١٦٤ من الفصل الثالث من الرسالة وما بها من مصادر.

(٤) وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار، رقم ١٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٤٠١.

(٥) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥، راجع أيضاً : فؤاد سيد : نسان قديمان فى الاعارة، ص ١٢٧ - ١٢٨.

وانتقلت العديد من كتب خزانة الأمير يشبك بن مهدي الداودار التي أوقفها على تربيته إلى خزانة كتب محمود الغزى الشافعى الخاصة^(١). وإن كنا لا نعرف بالضبط كيف انتقلت هذه الكتب إلى خزانة الأخير، إلا أنه من المرجح أن يكون محمود الغزى قد اشتراها من بعض العوام الذين سطوا على التربة ونهبوها إبان أحداث عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م عقب مقتل الأمير يشبك الداودار^(٢).

وبالإضافة إلى الحرائق قضاء وقدرًا والحرائق العمد والكوارث الطبيعية التي أدت إلى تدمير بعض المكتبات المملوكية وبيع موجود بعضها الآخر، فإن هناك أسباباً أخرى ساهمت في تدهور بعض المكتبات المملوكية، مثل استغلال بعض العلماء والقضاة للمكتبات، ووضع اليد على موجودها للاستئثار بها لأنفسهم وحجبها على عامة القراء والتي وقفت من أجلهم. ومن هؤلاء العلماء: عمر بن على بن أحمد ابن السراج الملقب بابن الملقن (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م). فقد كان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر منها ما هو من ممتلكاته، ومنها ما هو من أوقاف المدارس لاسيما الفاضلية^(٣)، وكذلك صالح بن عمر الكنانى العسقلانى البلقينى (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) الذى وصف بأنه كان عالماً فاضلاً، درس الحديث والفقه والتفسير فى مدارس عدة بالقاهرة، وقد شارك هو الآخر فى نهب المساجد والمدارس المملوكية. ويذكر السخاوى أن الشيخ صالح هذا، على الرغم من علو مكانته وفضله، إلا أنه خلف بعد موته ثروة طائلة، وكتباً جمّة من أوقاف المدارس ما يزيد على ألف مجلد^(٤)، ومنهم أيضاً قاضى القضاة بالديار المصرية أحمد بن بدر الدين ابن شعبان، فقد ذكر صاحب «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية»، أنه كان لدى القاضى بن شعبان من الكتب النفسية ما ينوف عن أربعين ألف مجلد، وأكثرهما من كتب الأوقاف

(١) انظر: ابن ابيك الصفدى: الرافى بالوفيات، ج ١، ص ب، راجع: الملحق الأول، لوحة رقم ١٠ بآخر الرسالة.

(٢) للوقوف على هذه الأحداث - راجع: ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٧١ - ١٧٨.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٠٠، الشوكانى: البدر الطالع ج ١، ص ٥١٠.

(٤) السخاوى: الزيل على رفع الأصر، ص ١٨١.

وضع يده عليها، ومنع أهل العلم من النظر إليها، وطالت الأيام ومضى عليها أعوام، ونسيت عنده وغير شروطها^(١)، وشارك جملة من العلماء والفقهاء في تقويض بنية المكتبة الفاضلة، فساهموا في نكبتها عندما تداولت أيديهم عليها بالعارية حتى تفرقت، طبقاً لرواية المقرئى^(٢).

ومن أسوأ تلك النماذج التي ساهمت في تدمير بنية بعض المكتبات المملوكية القاضي الحنفى محب الدين أبو الفضل محمد الشهاب بن الشحنة (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) الذي وصفه السخاوى بأنه كان مستغلاً لمنصبه في القضاء فكان يستنزل من يشاء في الوظائف بالمؤسسات المملوكية، ويعزل من يشاء، وقد استبد بالأشرفية والصرغتمشية والمحمودية، وحمل له من كتبها ما ينيف على مائة مجلد^(٣). وذكر السخاوى في موضع آخر أن ابن الشحنة كان «عظيم العناية في تحصيل كتب العلوم بحيث اجتمع عنده من نفائس كل فن ما قل أن يجتمع لغيره، وربما اغتصبها ممن هي عنده، ونسب إليه أخذ تفسير الفخر الرازى وهو فى مجلد من أوقاف المؤيدية^(٤). وقد ذكرنا من قبل كيف كان القاضي علم الدين يتوسل بالسخاوى عند القاضي ابن الشحنة لرد الكتب التي استعارها منه. ولكن دون جدوى^(٥).

ولنا أن نعجب من حقيقة هذا السلوك المتسم بالإثرة والأنانية الذي انتهجه هؤلاء العلماء والقضاة والفقهاء، وكيف أنهم ساعدوا على تدمير أهم ركن من أركان العلم والثقافة العربية إبان العصر المماليكى. ففي الوقت الذي كان فيه معظم المجتمع المصرى

(١) التيمى، تقي الدين عبد القادر الغزى : الطبقات السنية فى تراجم الحنفية، تحقيق عبد الفتاح العلى، الرياض، دار الرفاعى، ١٩٨٣، ج ١، ص ٣١٩؛ راجع أيضاً: يحيى ساعاتى : الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٧٨.

(٢) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٣) السخاوى : الذيل على رفع الأصر، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٤) السخاوى : الذيل على رفع الأصر، ص ٣٨٤. وتفسير الفخر الرازى هو : «مفاتيح الغيب» للامام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٩م) وقد طبع هذا الكتاب عام ١٩٣٢ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

(٥) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢٤٨ - ٢٥٠.

حكاما ومحكومين، يتنافسون ويتبارون في اقامه المكتبات ووقف الأوقاف عليها وإغداق العطايا والمنح على من يقومون على أمرها، بهدف إشاعة العلم وتمكين كافة أفراد المجتمع المصرى من الاستفادة منه، كان بعض رجال العلم والقضاء يخرون في هذا البناء. شأنهم شأن أولئك الذين كانوا يستغلون تضعضع الأمن لينقضوا على المكتبات وغيرها من المؤسسات العامة لنهبها وسلبها وإحراقها، ومن ثم حرمان الجماهير العريضة من المجتمع من الاستفادة من نفائسها وذخائرها.

وأما المشرفون على المكتبات فكما كان لهم الدور الكبير في تطور وازدهار الخدمة المكتبية، كان لبعضهم دور مباشر في تدهور بعض المكتبات^(١) وخلخلة بنيتها والعمل على تقويضها، وذلك إما عن طريق سوء إدارتهم للمكتبات والتهاون في أداء الرسالة المنوطة بهم، أو المشاركة في استغلال موجودها من الكتب عن طريق تسهيل سطوها ونهبها أو إعارتها دون ضمان لبعض أكابر الدولة ووجهائها رغبة في الوصول عن طريقهم لأغراض دنيوية ومادية. وقد سبق أن ذكرنا ما وقع من أمر خازنى مكتبة المدرسة المحمودية : السراج عمر، والفخر عثمان البكرى التلاوى، اذ فرط الأول في مجموعتها وأساء في إدارتها فنقصت نحو مائة وثلاثين مجلدا، وعندما اكتشفت أمره، عزل، واستقر بعده الثانى، وكان منضبطا ولكنه كان مجاملاً فيما يبدو، إذ فقد من المكتبة أثناء إشرافه عليها ما يقرب أربعمائى مجلد، فعزل أيضا وغرم قيمة المفقود من الكتب^(٢). ويصف السخاوى سالم العبادى الذى استقر فى خزن المكتبة المحمودية بعد أحمد بن محمد الجلالى بأنه «فسد أمرها»^(٣)، وهو وصف يوحى بالتفريط وسوء الإدارة.

ومن هؤلاء المشرفين الذين تهاونوا فى أداء الرسالة الموكلة اليهم من نظار الوقف أو خازنى الكتب، محمد بن عمر بن عبد الله بن محمد بن غازى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٨م) الذى عمل خازنا غى إحدى المكتبات المدرسية المملوكية، وقد وصف بأنه كان «خفيف ذات

(١) راجع ص ١٣٥ - ١٤٣ من هذه الرسالة.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤، راجع ايضا، ص ١٤٢ من الفصل الثانى من الكتاب.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٤.

اليد،^(١) وهو ما يوحى بأنه قد أساء التصرف فى محتويات تلك المكتبة . كما فرط محمد بن ابراهيم بن خلف القاهرى (ت ٨٨٣هـ / ١٤٤٠) خازن مكتبة المدرسة المؤيدية فى بعض كتبها فطلبه الداودار الكبير^(٢) قبل موته وعزره^(٣) . وفرط كذلك الملك الصالح حسين على مدرسته الأشرفية عندما باعها لجمال الدين يوسف الاستادار بمبلغ ستمائة دينار على الرغم من أنها كانت وقفا، وكان هذا الأخير حفيا بها لأن قيمتها كانت تعد بعشرات أمثال ذلك^(٤)

وهكذا كان سوء إدارة بعض المكتبات المملوكية والتفريط فى تحمل أمانتها من قبل المشرفين عليها عاملا يضاف إلى العوامل السابقة أدى إلى تدهور تلك المكتبات، ولعل هذا كان أحد أسباب تشدد بعض الواقفين فى منع إعاره الكتب أعاره خارجية منعا باتا على نحو ما ذكرنا سلفا^(٥) .

وهناك سبب آخر ساعد على تدهور المكتبات فى أواخر العصر المملوكى، وهو تدهور الأوقاف واغتصاب ريعها ومحاولة حلها أو استبدالها . ذلك أن المكتبات المملوكية قامت أساسا على الوقف وكان ريع الاوقاف هو المصدر المالى الرئيسى لبعض المكتبات، بل المصدر المالى الوحيد لمعظم المكتبات ومؤسساتها^(٦) . فمن المنطقى إذا منع المصدر المالى أو عطل أو نهب أن تتوقف المؤسسة بما فيها مكتبتها عن أداء مهامها . وإذا

(١) السخاوى : التبر المسبوك، ص ٢٣ .

(٢) الداودار هو أحد امراء المماليك المكلف بحمل الدواة السلطانية وتولى امرها وما يتبع ذلك من تبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم الرسائل والقصص إليه . راجع : القلقشندى : صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٦٢، السبكى : معيد النعم، ص ٢٥٠ وراجع ايضا : حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف، ص ٥٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٥٢ . عززه أى منعه ورده وأدبه وعاقبه بما هو دون الحد الشرعى، والتعزير شرعا هو التأديب . راجع : مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٢٠ .

(٤) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٤٠١ .

(٥) راجع ص ٢٠٥ من الفصل الرابع من الكتاب .

(٦) راجع ما كتبناه عن الموارد المالية للمكتبات المملوكية ص ١٢٦ - ١٣٠ من الفصل الثانى من الكتاب .

كان عصر سلاطين المماليك قد شهد بصفة عامة ازدهارا كبيرا في الأوقاف حتى تغلغت في معظم الأنشطة، وأصبحت معظم دور مصر وحوالياتها ورياعها موقوفه، وكانت المؤسسات التعليمية والتربوية والصوفية تفوز بالنصيب الأوفر من تلك الأوقاف، إلا أن هذه الأوقاف كثيرا ما تعرضت إلى الحل والاقطاع والاستبدال لاسيما في عصر المماليك الجراكسة. وقد عبر المقرئى عن ذلك بقوله «أنها - أى الأوقاف - قد اختلت وتلاشت في زماننا هذا، وعما قليل أن دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر البتة»^(١)، ويرجع السبب في ذلك إلى جشع بعض السلاطين والأمراء واستيلائهم على الأوقاف عن طريق الاستبدال^(٢)، وإلى ضعف نفوس جماعة من العلماء والقضاة والمباشرين على الأوقاف الذين تطلعوا إلى اغتصابها واستغلالها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أفتوا للحكام والأمراء بجواز حل أوقاف السلاطين والأمراء السابقين طمعا في الجاه والسلطان. من ذلك القاضي ابن العديم^(٣) الذى مكن جمال الدين الاستادار من الاستيلاء على كثير من الأوقاف الخاصة بالمؤسسات، فتعطلت تلك المؤسسات، وتوقف نشاطها، وأغلقت مكباتها. ومن الغريب أن يعود جمال الدين ليوقف تلك الأوقاف المنهوبة مرة أخرى على مدرسته ومكبتها المسماة بالجمالية. ولكن ما أن يستتب الأمر في البلاد لفرج ابن برقوق حتى يقبض على جمال

(١) المقرئى : الخطط، ج٢، ص ٢٩٦.

(٢) الاستبدال : هو شراء عين أخرى تكفى وقفا بدلها، والابدال هو اخراج العين الموقوفة عن جهة وقفها ببيعها، والابدال والاستبدال متلازمان حيث لا يتم الثانى بدون الأول. للمزيد عن الاستبدال وموقف العلماء منه راجع : محمد أبوزهرة : محاضرات في الوقف، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٧٢، ١٧٣، ١٨٣، ١٩٠. ولعل من أشهر السلاطين الذين استولوا على كثير من الأوقاف عن طريق الاستبدال السلطان الأشرف برسباى والسلطان الغورى. راجع : المقرئى : السلوك، ج٤، ص ٦٣٦ - ٧٦٥، ٧٨٠، ابن اياس : بدائع الزهور، ج٤، ص ٥٣؛ وراجع أيضا : محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٣٥٢ - ٣٥٤.

(٣) هو كمال الدين عمر بن جمال الدين ابراهيم بن العديم، تولى قضاء قضاء الحنفية بمصر في عام ١٤٠٢هـ - ١٤٠٨م. وتوفي في عام ٨١١هـ / ١٤٠٨م المقرئى : السلوك، ج٣، ق٣، ص ١١٠١. ويقول عنه السخاوى «جمع المال من غير حله وتظاهر بالربا وافراط في استبدال الاوقاف» راجع : السخاوى : الضوء اللامع، ج٦، ص ٦٦.

الدين الاستادار ويقتله في عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م^(١) ويضع يده على أوقافه ويستولى على بعضها ويعيد المقتصب منها إلى أهله، ثم جعل مكتبة المدرسة الجمالية الاستادارية نواة لمكتبة مدرسته الناصرية البرقوقة^(٢). وهناك العديد من القضاة الذين ساروا على نهج ابن العديم، منهم علم الدين البلقيني الشافعي^(٣)، وولى الدين السفطى^(٤)، وعبد البرين الشحنة^(٥)، وغيرهم ممن ساعدوا على تدهور الأوقاف وخرابها، ومن ثم تعطيل وتدهور المؤسسات الموقوفة عليها ومنها المؤسسات التعليمية والتربوية بما فيها المكتبات الملحقة بها.

وهكذا ساعدت عوامل عدة على تدهور بعض المكتبات المملوكية، فبعضها دمر بفعل

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٩٥.

(٢) المقرئى : الخطط، ج ٢، ص ٢٩٦-٤٠٢.

(٣) تولى علم الدين البلقيني قضاء الشافعية ثلاث مرات : فى عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م ثم عزل بعد عام ثم أعيد فى عام ٨٣٣ هـ / ١٤٣٠ م ثم صرف عنه بعد سنة وثلاثة أشهر، ثم أعيد فى عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م وكان قد استغل فرصة انتشار وباء الطاعون فى ولايتها الثانية، وتسلب فى تحصيل الأموال من التركات والأوقاف - راجع : ابن حجر العسقلانى : رفع الأصر ج ٣ ص ٢٥٦ - ٢٥٩.

(٤) تولى ولى الدين السفطى القضاء فى عهد السلطان جقمق فى عام ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م وعزل بعد عام. راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٠ - ١٦٠.

(٥) قاض قضاة الحنفية بمصر إبان حكم السلطان الغورى (٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م) وقد عرف عنه استغلاله لمنصبه وتحريمه للحلال وتمكين أعوانه من الاستيلاء على الأوقاف فضلا عن نهبه هو لكثير منها، الأمر الذى أثار العامة عليه حتى مجاء أحدهم بقصيدة جاء فيها:

فشا الزور فى مصر وفى جناباتها	ولما لا وعبد البر قاض قضائها
أجازاً أمورا لا تعل بملء	بحل ويرم مظهرها منكراها
الست ترى الأوقاف كيف تبدلت	وكانت على تقديرها وثباتها
ولا بد من بيع الجوامع، تارك	الجماعات منها مبطل جمعائها
ولو أمكنه كعبة الله باعها	وأبطل منها الحج مع عمرائها
فان كان فى الأوقاف ثمة بقية	تكذبى فيما أقول فهايتها

راجع : ابن اياس : المرجع السابق، ج ٤، ص ١١٣.

وجدير بالذكر أن عبد البر بن الشحنة غير الشهاب بن الشحنة الذى سبق ذكره فى ص ٢٣٥، من هذا الفصل.

الكوارث الطبيعية من حرق وزلزال، وبعضها الآخر تلف نتيجة عدم الصيانة وعوامل الجو الطبيعية، وشاركت الظروف الاقتصادية الصعبة التي كثيرا ما كانت تمر بها البلاد في تقويض بنية بعض المكتبات، ومانجا منها من هذا وذاك، تعرض لاستغلال بعض العلماء، والقضاء لها ونهب موجودها، وذلك فضلا عن سوء إدارة المشرفين على بعض المكتبات وتهاونهم في أداء رسالتهم، فنتج عن ذلك تقويض لأهم ركن من أركان الثقافة والحضارة العربية في مصر إبان عصر سلاطين المماليك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان لتدهور الأوقاف ونظامها في أواخر العصر المملوكي أثره الواضح في تدهور بعض المكتبات نتيجة لفقدانها مصدر تمويلها الأساسي وهو ريع الوقف.

٢. الفتح العثماني لمصر وتأثيره على المكتبات المملوكية :

وعلى الرغم من هذه العوامل التي أدت إلى تدهور بعض المكتبات المملوكية إلا أنها - بصفة عامة - ظلت تؤدي دورها إلى أن دهم الأتراك العثمانيون أرض مصر في عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وقضوا بذلك على دولة سلاطين المماليك، وأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت دولة مستقلة ذات سيادة. وعقب ذلك الغزو استولى الأمراء والولاة الأتراك على كثير من موجودات المكتبات المملوكية، بخلاف ما أخذه السلطان سليم الأول معه عند عودته إلى استانبول. إذ يذكر المؤرخ ابن آياس أن «الوزراء استدرجوا لأخذ الكتب النفسية التي في مدارس المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية، وغير ذلك من المدارس التي فيها الكتب، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ولم يعرفوا الحرام من الحلال في ذلك» (١).

والحقيقة أن ابن آياس (ت ٩٣٠هـ / ١٢٣م) هو المؤرخ الوحيد المعاصر للفتح العثماني (٢) الذي ذكر حادثة السطو على المكتبات المملوكية، ونقل عنه كل من أتى بعده

(١) ابن آياس الحنفى : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، ص ١٧٩.

(٢) من هؤلاء المؤرخين الذين اطلع الباحث على مؤلفاتهم ولم يذكروا شيئا عن سطو العثمانيين للمكتبات المملوكية : أحمد بن زنبيل الرمال : تاريخ غزوة السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر، مخطوط رقم ٤٤ المكتبة التيمورية، دار الكتب المصرية، الاسحاقى : لطائف أخبار الدول فيمن تعرف في مصر من أرباب الدول، القاهرة ١٨٩٤م.

المؤرخين^(١) أخبار هذه الحادثة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من المؤرخين الحديثين من يذكر أن حاشية السلطان سليم الأول كان في عدادها نخبة من أرباب العلم الذين دهشوا بما شاهدوه من نفائس الكتب والمخطوطات في المكتبات المملوكية وما لمسوه من دقة التنظيم وسهولة ومرونة الخدمة؛ فلما أخبروه بذلك أمرهم بجمع خيارها وانتقاء نفائسها ونقلها إلى عاصمة الخلافة استانبول، وقد اقتضى ذلك ألف حمل لنقل تلك الكتب^(٢).

وسواء أمرهم السلطان العثماني بذلك أم فعلوه من تلقاء أنفسهم، فإن النتيجة واحدة وهي انتقال الآلاف من المخطوطات العربية الموقوفة بالمكتبات المملوكية المصرية إلى استانبول، ويعد وجود حوالي مائة ألف مخطوط عربي في اثنتين وأربعين مكتبة في تركيا^(٣) الآن دليلاً على أن هذه الرواية تجرح إلى الصدق.

يضاف إلى ذلك أن الكثير من المكتبات المملوكية قد تعرض للنهب والسلب والدمار والتفريق إبان حوادث عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م، وذلك قبيل هزيمة طومان باي حيث كان القتال بين مماليكه والجلود العثمانيين. من ذلك مكتبة مدرسة السلطان حسن التي نهبت عن آخرها، ومكتبة جامع الأمير شيخو التي أحرقت عن بكرة أبيها وغيرها من المكتبات^(٤) كما هاجم العثمانيون الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير

(١) من هؤلاء المؤرخين الذين اطلع الباحث على أعمالهم: الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٨٨٠ م، ٤ مجلد؛ راجع أيضاً جورجى زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية القاهرة، دار الهلال، ١٩١٢، ج ٤، ص ١١٣.

(٢) فيليب دى طرازى: خزائن الكتب العربية في الخافقين، بيروت، وزارة التربية الوطنية، ١٩٤٨، ص ١٨٨؛ شعبان عبد العزيز خليفة: دار الكتب القومية في رحلة النشوء والارتقاء والقدهور، القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ١١٤.

(٣) راجع: كوركيس عواد: فهرس المخطوطات العربية في العالم، الكويت، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٤، ج ١ ص ٢٨١، ٣٤٤؛ أحمد أنش: المخطوطات العربية في الأناضول، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤، ١٩٥٨، ص ٣ - ٤٢، نوري حمودى القيس: المخطوطات العربية في مكتبات استانبول، مجلة المكتبة، مج ٣٩، ع ١٩٦٤، ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٥٥.

ذلك من الجوامع والمدارس بحجة البحث عن الممالك، وكانت الكتب خير غنيمة ظفروا بها من الهجوم^(١). وذلك فضلا عما تعرضت له المنازل والبيوت للنهب والهجوم من قبل العثمانيين والعوام الذين انتهزوا الفرصة للسرقة والسطو، وكان من جملة ما نهب الأموال والملابس وخزائن الطعام والمكتبات الخاصة^(٢).

ومع كل هذا، فقد بقي لمصر الشيء الكثير من موجود المكتبات المملوكية التي نجت من سطر العثمانيين ونهب العوام لتواصل به مسيرتها المكتبية في ظل الحكم العثماني. وبذلك تنتهي صفحة من تاريخ المكتبة المصرية عبر عصورها التاريخية، لكي تبدأ صفحة أخرى جديدة. إذ شهدت مصر إبان الحكم العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨ م)، على الرغم من أصابها من خمول وضعف في مختلف نواحي المجتمع وبخاصة الحياة العلمية والفكرية، شهدت إنشاء العديد من المدارس الجديدة والمساجد^(٣) والتكايا^(٤) والحاك المكتبات بها،

(١) المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٢) المصدر السابق، والجزء، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) من المدارس التي أنشئت في العصر العثماني في مصر وكانت بها خزائن كتب : مدرسة خير بك الذي أنشأها ملك الأمراء خير بك سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٢ م، ومدرسة داود باشا التي أنشئت سنة ٩٤٥هـ / ١٥٤٠ م والمدرسة الجهرية، ومدرسة اسكندر باشا، والمدرسة الجبلابية، والمدرسة الأشرفية : راجع على التوالي، على مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٦، ص ١٦، ج ٤، ص ١٦٢؛ ابن آياس : بدائع الزهور، ج ٥، ص ٣٢١؛ الإسحاقى : لطائف الاخبار، ص ٣٨، ٤٥، ١٧٨؛ وثيقة وقف داود باشا، رقم ٣٠١٨ أوقاف، وثيقة اسكندر باشا رقم ٣١٦٣ أوقاف؛ وثيقة محمد الجوهري، رقم ٣٤٤١ أوقاف؛ الجبرتي : عجائب الآثار : ج ١، ص ١٦٢، ٢٢٠، ١٧٥، ١٨٦، ٢٢٠.

(٤) التكية مصطلح ظهر في العصر العثماني للدلالة على مؤسسات الصوفية وكبدل لمصطلحات خانقاه ورياط وزواية. وقد كثرت التكايا في العصر العثماني، وكان من عادة المنشئ أن يلحق بها خزانة كتب. هذا ويحتفظ أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة بعدد غير قليل من الوثائق الخاصة بالتكايا في العصر العثماني وتزخر فيما تزخر به من معلومات عن مكتبات التكايا وتزويدها وتنظيمها وخدماتها وشروط القائم على أمرها. من ذلك وثيقة رقم ١٩١٩ أوقاف، و٢٨١٦ أوقاف. وجدير بالذكر أن الدكتورة ناهد حمدي أحمد قد قامت عام ١٩٨٤ م بدراسة وتحقيق لبعض وثائق التكايا في العصر العثماني. راجع : ناهد حمد أحمد : وثائق التكايا في العصر العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الاداب - جامعة القاهرة، ١٩٨٤.

فضلا عن المكتبات الخاصة التي وجدت في بيوت العلماء والقضاة والتجار وشيوخ البلد والعسكريين من رجال الحامية العثمانية وغيرهم^(١).

ومما يذكر أن المكتبات العثمانية ورثت المكتبات المملوكية في نظمها واجراءاتها الفنية والادارية، ولم تكن هناك سمات خاصة عرفت بها المكتبات العثمانية في مصر، اللهم إلا انتشار بعض المصطلحات التي ظهرت في ذلك العصر بديلا للمصطلحات المملوكية، نتيجة لاختلاط اللسانين التركي والعربي. من ذلك «الكتب خانة» للدلالة على خزانة الكتب، و«المغير» للدلالة على خازن الكتب، و«التغيير» للدلالة على الخدمة المكتبية من اعادة وغيرها، و«الدفتر المكتتب» للدلالة على السجل الخاص بتسجيل رصيد الكتب^(٢).

وتعد مكتبة محمد بك أبو الذهب (ت ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م) نموذجا للمكتبات المصرية إبان الحكم العثماني، من حيث إدارتها وتنظيمها واجراءاتها الفنية والإدارية وخدماتها المكتبية، وهي المكتبة التي وقفها أبو الذهب بمسجده على طلاب العلم، وجمع لها النادر وحديث التأليف من الكتب والمعاجم والنفائس في عصره. وبلغ من اهتمامه بها، شراؤه لكتاب «تاج العروس»^(٣) بمبلغ مائة ألف درهم، ووضع في مكتبته ليكمل نظامها وتنفرد بذلك دون غيرها. على حد قول الجبرتي^(٤).

(١) تعد وثائق التركات بمحكمة القسمة العثمانية بمثابة مادة خصبة لدراسة المكتبات الخاصة بشيوخ البلد والعسكريين في العصر العثماني، حيث جرت العادة أن تجرد تركة احدهم بعد موته وتسجيل ذلك في حجة جرد، وكان من جملة ما يتم تسجيله المكتبة الخاصة ومحتوياتها من الكتب. راجع سجلات القسمة العربية بالشهر العقاري بالقاهرة، أرقام ١٩، ٩، ٧، ٢.

(٢) راجع وثائق: وثيقة وقف محمد بك أبو الذهب، رقم ٩٠٠ أوقاف، وثيقة وقف مصطفى بن عبد الله، رقم ٣٠٨١ أوقاف، وثيقة وقف يحيى أغا رقم ١٦٦٢ أوقاف، وجددير بالذكر أن المصطلحات «كتبخانة» - «المغير» - التغيير اظلت تستعمل إلى وقت ليس ببعيد بنفس مفهومها في العصر العثماني. راجع شعبان خليفة: أول لائحة لدار الكتب المصرية، في كتابه: دار الكتب القومية، ص ١٦٨ - ١٧١.

(٣) هو موسوعة لغوية شرح فيها المرتضى الزبيدي، كتاب «القاموس المحيط» للخير وزابادي وأسمائها تاج العروس في شرح القاموس. وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات منها طبعة بيروت عن دار صادر في عام ١٩٨٩، في أربعة عشرة مجلد.

(٤) الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ٤٠٩، ج ٢، ص ١٩٦ - ٢١٩، راجع أيضا وثيقة محمد بك أبو الذهب، رقم ٩٠٠ أوقاف، ص ٩٥ وما بعدها، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٥، ص ١٠٧.

وحددت وثيقة وقف أبو الذهب الشروط الواجب توافرها في المغير أو خازن الكتب ومهامه ومسئوليّاته ومرتبته حيث ذكرت الوثيقة ما نصه: رجل أمين من أهل الدين والصلاح يكون خازنا للكتب الشريفة الآتى ذكرها فيه الموضوعة بخزانة الكتب المعدة لذلك... نظير تقيده بخدمة الكتب المذكورة بالتغيير منها للتدريس والقراءة والمراجعة والكتابة والمقابلة حكم المعتاد في ذلك في كل يوم ستون نصفاً فضة، وفي كل سنة ستون أردبا قمح حنطة^(١). وكان على أمين المكتبة إذا ضاع شيء من الكتب الموقوفة المذكورة القيام بنظيره من ماله وليس على جهة الوقف المذكور القيام بشيء من ذلك^(٢). ويلاحظ أن هذه الشروط تتشابهه إلى حد كبير مع الشروط التي حددتها الوثائق المملوكية لخازن الكتب في المكتبات إبان العصر المماليكي^(٣)، مما يدل على استمرارية العمل بها في العصر العثماني.

وقد اشترطت وثيقة أبو الذهب أن تكون جميع موجودات المكتبة معدة للاستخدام وتقديمها لمن يريد لها للاطلاع والدراسة والمراجعة، وغير ذلك من سبل الاشتغال، والانتفاع بها. فقد ذكرت الوثيقة ما نصه: على أن تكون كامل الكتب الموقوفة المذكورة أعلاه معدة للقراءة والتدريس والمطالعة والكتابة والمقابلة، حكم المعتاد في ذلك أبد الأبدين^(٤). وهذا أيضا يتفق مع ما كان ساريا في المكتبات المصرية في عصر سلاطين المماليك.

(١) وثيقة أبو الذهب رقم ٩٠٠ أوقاف، ص ٦٠، على مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٥، ص ١٠٨.

(٢) وثيقة أبو الذهب، رقم ٩٠٠ أوقاف، ص ١٠١-١٠٢.

(٣) راجع ص ١٣٧-١٤١ من الفصل الثاني من الكتاب.

(٤) وثيقة أبو الذهب رقم ٩٠٠ أوقاف، ص ١٠٠؛ وانظر أيضا: وثيقة الحاج مصطفى بن عبد الله، رقم ٣٨١ أوقاف. وثيقة يحيى أغا، رقم ١٦٦٢ أوقاف. وقد أورد الجبرتي ذكر مكتبتين خاصتين، كانتا تتيجان إعارة كتبهما لأهل العلم وحراريه رغبة منهما في نشر العلم هما: مكتبة آل الشرايبي، ومكتبة الجبرتي الكبير، راجع الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ٢٠٨-٢٠٩، ص ٤٠١.

وعلى هذا المنوال صارت معظم المكتبات العثمانية تنسج خيوطها^(٥)، حتى دهم الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ م، فتعرضت المكتبات المصرية من جديد للنهب والسرقة والتدمير، ومثال ذلك ما حدث لأورقة الجامع الأزهر وحاراته^(٦) أثناء محاولة الفرنسيين اخماد ثورة القاهرة الأولى في نفس العام، ويزودنا الجبرتي بصورة حية نابضة عن ذلك، وخاصة ما لحق بالمخطوطات والكتب من سلب ونهب^(٧) واستغلال اليهود الفرصة للاستيلاء على المصاحف النفيسة والكتب الثمينة^(٨). وما حدث لمكتبة الجامع الأزهر على أيدي رجال الحملة حدث أيضا لمختلف مكتبات المدارس^(٩).

وعند خروج الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ م نقلت معظم الكتب والمخطوطات المتبقية إلى فرنسا حيث استقر معظمها في المكتبة الأهلية بباريس، وقد بلغت حوالى ألفا

(١) من ذلك مكتبة عبد الرحمن كئخدا التى وقفها على رواق الصعايدة بالجامع الأزهر وبلغ عدد كتبها حوالى ألفى مجلد. راجع وثيقة وقف عبد الرحمن كئخدا رقم ١٠٩٣ أوقاف. الجبرتي : عجائب الآثار، ج٢، ص ٥. ١٦ على مبارك الخطط التوفيقية، ج٥، ص ٢٦٦ - ٢٧٤؛ راجع أيضا : عبد العزيز الشاوى : الأزهر جامعا وجامعة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ م، ج٢، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

من الجدير بالذكر أن حركة الكتب والمكتبات في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨ م) لا تزال تنتظر من يكشف عن مختلف جوانبها ويسلط الضوء على خباياها وخواصها، لاسيما وأن أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة والشهر العقارى، يحتفظان بمئات الوثائق والسجلات والحجج العثمانية التى تعج بالمعلومات الخاصة بالدواحي الإدارية والتنظيمية للمكتبات المصرية العثمانية.

(٢) حارات الأزهر هى الممرات والأماكن التى كانت توضع فيها الدواليب والخزائن الخاصة بطلبة الأروقة وتحتوى على ملابسهم وسائر امتعتهم، وتعتبر امتدادا مكانيا للأروقة، لكنها تختلف عن الأروقة فى أنها لم تستخدم فى نوم الطلبة أو استنكار دروسهم فيها. راجع عبد العزيز الشاوى : الأزهر جامعا وجامعة، ص ٢٨٧. ٢٨٨، وعن أروقة الأزهر ومكتباتها، راجع المصدر السابق والصفحات، على مبارك : الخطط التوفيقية، ج٤، ص ٢٩ - ٥٨.

(٣) الجبرتي : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار، ج٩، ص ٢١.

(٤) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والولاة القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٨٦ هـ، ص ٥٥.

(٥) الجبرتي : المرجع السابق، ج٣، ص ٣٤؛ راجع أيضا : جلال يحيى : مصر الحديثة، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٤٤ - وما بعدها.

وخمسمائة مخطوطة عربية^(١)، فضلا عما استولى عليه العلماء الفرنسيون والعسكريون من مكتبات المدارس والتكايا والمساجد وغيرها. وهكذا كان الخط البياني للمكتبة المصرية في عصورها المختلفة يرتفع وينخفض، ويزدهر ويتقلص وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال التي مرت بها البلاد من سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها^(٢).

هكذا تسربت الآلاف من المخطوطات العربية النفيسة التي كانت تشكل بنية المكتبات في مصر في العصر المماليكي إلى الخارج، تارة على أيدي العثمانيين وتارة أخرى على أيدي الأجانب وتجار الكتب، وذلك من جراء الجشع والطمع من ناحية، والاهمال من ناحية أخرى، وتفشى الجهل بين بعض المشرفين على المكتبات من نظار الوقف والخدام^(٣) من ناحية ثالثة.

ومع كل ما تقدم ذكره من مصائب منيت بها المكتبات المملوكية، فقد وصل إلينا بعض ما سلم من مقتنياتها. ومرجع ذلك عدة أسباب منها:

أولا : كثرة عدد مقتنيات المكتبات المملوكية، نتيجة التنافس بين الواقفين من الأمراء والسلاطين وغيرهم في مجال انشاء المكتبات على اختلاف أنواعها وبناء مجموعات في مختلف العلوم والفنون^(٤)، وكثرة عدد النسخ من المكتبات الواحد في المكتبة الواحدة، ووجود الكتاب في أكثر من مكتبة.

(١) محمد حميد الله : المخطوطات العربية في باريس، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٢، ج ٢ (١٩٥٦)، ص ٢٤٤، وراجع أيضا : محمد زهير البابا : التراث العربي في المكتبة الوطنية بباريس، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٦، ج ٢ (١٩٨٢) ص ٦٤٥-٦٦٣.

(٢) راجع : شعبان عبد العزيز خليفة : دار الكتب القومية، ص ١١٤، فيليب دي طرازى : خزائن الكتب العربية في الخافقين، ص ١٩٠.

(٣) من ذلك ما ذكره فيليب دي طرازى أنه في مطلع ولاية عباس الاول سنة ١٨٤٨ م تم حصر مكتبات القاهرة وضمها لديوان الأوقاف المصوية ليتولى إدارتها ورعايتها وقد عين الديوان لها مشرفين يباشرونها ويعيرون الكتب لمن يرغب في المطالعة والبحث. ولكن هؤلاء المشرفين كانوا أجهل الناس وأفقرهم، فقد عهد على سهيل المثال إلى رجل يدعى «ابن السليمانى» كان يحترف مهنة بيع القصب، بالاشراف على مكتبة مدرسة السلطان حسن، ومكتبة مدرسة ازبك من ططخ، ومكتبة مدرسة خوفد بركة، ومكتبة مدرسة قايتباى، ورتب له الديوان راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرين قرشاً. فسار هذا الخازن الفقير والجاهل يبيع المخطوطات للكاتبين والاجانب ليسد بها جوعه وجشعه : راجع : فيليب دي طرازى : المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٤) راجع الفصل الأول من الكتاب من ص ٧٠-١٠٧.

ثانيا : نجاة معظم المكتبات الخاصة ومكتبات بعض المساجد من التخريب والتدمير والتفريط فى محتوياتها والذي تعرضت له معظم مكتبات المؤسسات التعليمية والصوفية .

ثالثا - لم شتات المخطوطات العربية . ذلك أن عددا من علماء مصر^(١) فى نهاية القرن التاسع عشر هالهم ضياع الكتب وتسريبها إلى الخارج واستشراء العبث والاهمال إلى بنية ما تبقى من مقتنيات المكتبات التى بددها الجشع والطمع والجهل، فكان أن عملوا على لم شتات ما بقى من مقتنيات مكتبات المدارس والمساجد والتكايا التى يرجع عدد غير قليل منها إلى العصر المماليكى فى مكتبات مركزية حديثة تحفظ فيها المخطوطات بعد أن تعالج مما يكون قد أصابها من أمراض وتلف، وتخزن فى أماكن مناسبة، وتتاح للاستخدام العام بما يعيد روح الهدف الأسمى الذى وقفت من أجله وهو تيسير العلم والمعرفة .

وتعج بعض المكتبات العامة والجامعية فى مصر^(٢) بالآلاف من تلك المخطوطات العربية، والتى تقدر بحوالى مائة وخمسين ألف مخطوطا منها ما يرجع إلى العصر المملوكى والعصور السابقة عليه، ومنها ما نسخ بعد ذلك . ومن الصعوبة بمكان معرفة أيا

(١) تذكر منهم على سبيل المثال : على باشا مبارك الإمام محمد عبده ، فقد تنبه الأول إلى خطورة ما تعرضت له المخطوطات من إهمال وسطو وتهريب فعرض على الخديوى عباس جمع تلك الكتب من المدارس والمساجد والاضرحه فى مكتبة واحدة تكون وطنية لمصر على غرار المكتبة الأهلية فى باريس، فوافق الخديوى وأسست المكتبة فى ٢٣ مارس عام ١٨٧٠ م . أما الامام محمد عبده مجدد الأزهر فى العصر الحديث فقد عمل على انشاء مكتبة عامة للأزهر جمع فيها شتات الكتب المتفرقة فى الأروقة وقد اختيرت المدرسة الاقباقوية مقرا لهذه المكتبة، وذلك فى عام ١٨٩٦ م . للمزيد عن هاتين المكتبتين وظروف تأسيسها ومراحل تطورها - راجع : شعبان عبد العزيز خليفة : المرجع السابق، ص ١١٤ - ١٢٠ ؛ عبد العزيز الشناوى : الأزهر جامعا وجامعة ص ٣٠١ - ٣٠٥ .

(٢) تذكر من هذه المكتبات على سبيل المثال :

- (أ) دار الكت القومية بالقاهرة ويوجد بها حوالى ٧٠ ألف مخطوط عربى .
- (ب) معهد المخطوطات العربية ويضم صور ميكروفيلمية لحوالى ٢٠ ألف مخطوط .
- (ج) المكتبة الأزهرية بالقاهرة وتضم حوالى ٣٥ ألف مخطوط .
- (د) مكتبة بلدية الإسكندرية وتضم حوالى أربعة آلاف مخطوط .
- (هـ) مكتبة مسجد أبو العباسى المرسى بالاسكندرية وتضم حوالى ألف مخطوط .
- (و) المكتبة العامة لجامعة الاسكندرية وتضم حوالى ألف مخطوط .

منها كان ضمن موجودات المكتبات المملوكية . يهدف دراستها والتعرف على حالتها العامة . وتتمثل هذه الصعوبة في أن معظم هذه المكتبات لم تعد لمقتنياتها فهارس تحليلية^(١) تعطى صورة كاملة لكل كتاب من ناحيتي الشكل والموضوع ، الأمر الذي يعيننا على تكوين صورة واضحة عن هذه المخطوطات . فأغلبها لم يذكر تاريخ نسخ المخطوط أو بيان التمليكات والسماعات المثبتة عليه وغير ذلك من البيانات الضرورية التي يمكن عن طريقها التحقق من نسبة المخطوط إلى عصر معين^(٢) .

= (ز) مكتبة بلدية سوهاج (رفاعة الطهطاوى) وتضم حوالى ألف مخطوط .

(ح) المكتبة الاحمدية فى ملطا وتضم حوالى ألف وخمسمائة مخطوط .

(ط) دار الكتب بالمنصورة وبها حوالى اربعمائة مخطوط .

(ى) ومكتبة بلدية دمهور وبها حوالى مائتى مخطوط .

وغيرها من المكتبات . وللمزيد راجع : عزت ياسين أبوهيبة : المخطوطات العربية ، فهارسها وفهرستها ومواطنها فى جمهورية مصر العربية ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٢١٣ - ٢٨١ ، كوركيس عواد : فهارس المخطوطات العربية فى العالم ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٣٦ .

(١) جدير بالذكر أن المكتبة المصرية الوحيدة التى أعدت فهارس تحليلية لمخطوطاتها هى مكتبة دير سانت كاترين فى سيناء حيث قام الدكتور عزيز سوريال عطية باعداد هذه الفهارس باللغة الانجليزية عام ١٩٥٠ ولكنها لم تنشر وقام استاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف بنقل الجزء الأول منها إلى اللغة العربية بعد الرجوع إلى النسخة الانجليزية ومضاعاتها بالمخطوطات الموجودة بمكتبة الدير ونشرت عام ١٩٧١ عن منشأة المعارف بالاسكندرية .

(٢) وإذا أضفنا إلى ذلك الإجراءات الإدارية والتعقيدات الروتينية التى تفرضها هذه المكتبات على الباحثين للاطلاع على المخطوطات إلى جانب عامل الزمن فإنه يصبح من المعتذر بل من المستحيل القيام بالاطلاع عليها فى الوقت الحاضر وفرزها لمعرفة ما كان موجود منها فى مكتبات العصر المملوكى سواء ما نسخ فى هذا العصر أو ما يرجع إلى العصرين الأيوبي والفاطمى .

الختام

إستعرضنا على امتداد فصول الرسالة الخمسة الحركة المكتبية فى مصر إبان عصر سلاطين المماليك، وطرحنا العديد من التساؤلات التى فرضت نفسها على بساط البحث ملحة فى طلب الإجابة عنها فى ضوء ماورد فى مصادر البحث وأصوله. وثبت أن المكتبة وجدت فى مصر المملوكية داخل كل منشأة كبيرة كانت أم صغيرة، لتلبية احتياجات مجتمعها حتى ولو كان محدودا. فكانت هناك المكتبات الخاصة، ومكتبات المساجد، ومكتبات المدارس، ومكتبات البيمارستانات، ومكتبات مؤسسات الصوفية من خوانق وريط وزوايا وخلوى، ومكتبات التربة والمدافن والقباب. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الكتاب والمكتبة كانا جزءا لا يتجزأ من حياة الإنسان فى مصر المملوكية.

وأوضح الفصل الثانى أن المكتبات المملوكية لم يكن لها مبان مستقلة، لأنها كانت ملحقة بمؤسسات أخرى، ولكن المقننات كانت توضع فى أبنية ملحقة بالمنشأة التى تتبعها، وكانت المكتبة تحتل مكانا متوسطا ومناسبا من البناء كله، يسهل الوصول إليه ويتوافر فيه الهدوء والبعد عن الضوضاء الأمر الذى يسمح للمستفيدين بالتركيز فى القراءة والبحث. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى زودت المكتبات المملوكية بوسائل التهوية والاضاءة الطبيعية، بهدف توفير جو صحى يتيح للمستفيد استخدام المكتبة والاستفادة فيها دون تعب أو مضايقات. كذلك أوضح الفصل الثانى أن المكتبة المملوكية استخدمت العديد من التجهيزات مثل الأثاث والأدوات الخاصة بحفظ المجموعات من كتبيات وصناديق الكتب ورفوفها، وكراسى الكتب، وأدوات الكتابة، وأدوات إعداد الكتب وتسجيلها وصيانتها. وفيما يتعلق بالموارد المالية ووجوه الإنفاق، فقد تبين أن المكتبات المملوكية اعتمدت بصفة أساسية ورئيسية على الوقف، فضلا عن بعض الهبات، والتبرعات. ومن هذه الموارد كان ينفق على مرتبات العاملين بالمكتبة، وصيانة وترميم المبنى والمجموعات والتجهيزات

والأدوات. ومن بين القضايا التي عرضت في هذا الفصل أيضا قضية الموارد البشرية في المكتبات المملوكية. فقد تبين أنه كان هناك فئات للعاملين، هم أمناء المكتبات، والمناولون، والوراقون، وكان لكل فئة صفاتها وآدابها وواجباتها. ومن بين النتائج العامة في هذا الفصل أيضا أن حجم الكتب في المكتبة المملوكية وموضوعاتها كان يتناسب تناسباً طردياً مع عدد المستفيدين ومقررات الدراسة في المؤسسة الأم.

وإذا كان الفصل الثاني قد ناقش القضايا المتعلقة بالاستفسارات من الثاني حتى السادس، والتي طرحناها في مقدمة الرسالة، فإن الفصل الثالث قد حمل إجابة السؤالين السابع والثامن. إذ تبين أن المكتبة المملوكية عرفت ما يشبه سياسة التزويد متمثلة في وثائق الوقف، التي كانت بمثابة لوائح تنظيمية للمكتبات ومؤسساتها. وتعددت مصادر التزويد ما بين شراء ووقف وإهداء ونسخ، ومن بين النتائج الهامة في هذا الفصل أن اختيار الكتب كان يتم بالتشاور بين أمين المكتبة والمدرسين بالمدرسة أو الأطباء بالبيمارستان، وهكذا في كل المؤسسات. كما عرفت المكتبات المملوكية نظم التسليم والتسلم، والتسجيل والسجلات، والجرد والفهرسة والفهارس والتصنيف والتجليد والترميم والصيانة.

وأما الفصل الرابع فقد حاولنا الإجابة فيه على الأسئلة من التاسع حتى الثالث عشر، والتي تدور حول الخدمات والأنشطة المكتبية. وقد تبين أن مواعيد فتح المكتبة للمترددين عليها وعدد ساعات العمل بها كان يختلف من مؤسسة لأخرى حسب لائحة कामها وشروط الواقف. وكذلك الحال بالنسبة لأعداد المستفيدين وفئاتهم. وقد تعددت أنماط الإفادة من المكتبة المملوكية بين خدمات الاطلاع الداخلي والنسخ، وخدمة الإعارة الخارجية، وإرشاد القراء، والخدمات البيبلوجرافية والتعليمية. وقد تناولنا في هذا الفصل، أيضا، تقييم الدور التربوي للمكتبة المملوكية. كذلك أثبتنا وجود أوجه شبه عديدة بين المكتبات المملوكية ومكتبات أوروبا في أخريات العصور الوسطى، وإن كانت المصادر التي تحت أيدينا لم تمدنا بأدلة تثبت أنه كان هناك اتصال بينهما.

وفي الفصل الخامس والأخير حاولنا تتبع أسباب ومظاهر تدهور أوضاع المكتبات

المملوكية والتفريط في محتوياتها حتى زالت من الوجود خاصة في الفترة الأخيرة من عصر دولة المماليك الثانية. وكان ذلك نتيجة سوء إدارة بعض المشرفين على المكتبات واستغلال بعض العلماء والقضاة لها ونهب موجودها. هذا، فضلاً عن تدهور بعض المكتبات إما نتيجة لفقدانها مصدر تمويلها وهوريع الوقف لسبب من الأسباب، أو بفعل عوامل الجو الطبيعية. كما أبرزنا مدى تأثير الفتح العثماني لمصر على المكتبات المملوكية وما تعرضت له من سلب ونهب من قبل الولاة الاتراك والعوام.

ولعل من أهم النتائج التي خرجنا بها على امتداد فصول الرسالة هي العلاقة الطردية بين أحوال المجتمع والمكتبات. فقد تبين أن الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، والنشاط الاجتماعي، والتقدم العلمي، الذي عاشته مصر إبان العصر المملوكي، كان له انعكاساته الطيبة وتأثيره الإيجابي على تقدم النهضة المكتبية والعكس صحيح أثناء فترة انتقال الحكم من المماليك إلى العثمانيين. فقد عانت الحركة المكتبية كثيراً بسبب تدهور الأحوال.

وعلى الرغم من أن منهج البحث التاريخي لا يستلزم تقديم مقترحات وحلول لمعالجة المشكلات والقضايا التي تمت مناقشتها، إلا أن هذا البحث - بحكم صلته بتاريخنا وتراثنا من ناحية، وبحكم ارتباطه العضوي الوثيق بالحركة المكتبية بمفهومها الدقيق للمعنيين بعلم المكتبات من ناحية أخرى - فيه ما يمكن تقديمه كتوصيات نرى إمكانية الاستفادة منها في حياتنا المكتبية المعاصرة نجلها فيما يلي:

١ - إذا كانت الحركة المكتبية قد غزت جميع مرافق الحياة في العصر المملوكي، وذلك إيماناً من رجال ذلك العصر بأهمية المكتبات كأداة تعليمية تربية، فوفرنا لها جميع عناصر تقديم الخدمة اعتماداً على الوقف كمورد مالي رئيسي للإنفاق على المبنى والتجهيزات والقوى البشرية والإجراءات الفنية والخدمات وغيرها، وإذا كانت مكتباتنا اليوم تعاني من تدهور الخدمات بسبب ضعف الميزانيات التي لم تعد تفي بتحقيق الحد الأدنى من الخدمات الأساسية للمكتبة، لذلك نرى ضرورة العودة إلى نظام الوقف

الخيرى كمورد مالى أبدي يكون سبيلا نحو بناء حركة مكتبية نشطة، كما كانت عليه فى العصر المملوكى، وهو ما يتطلب نشر الوعى لدى القاعدة الغريضة من أبناء الشعب وخاصة الأثرياء منهم والعلماء بأهمية مشاركتهم فى دعم وتمويل المكتبات، وأن تتحمل نصيبها فى خدمة المجتمع.

٢ - تعميق الوعى لدى الدارسين والباحثين المعاصرين بالتجربة العربية فى مجال المكتبات بصفة عامة، والتجربة المملوكية بصفة خاصة، والتأكيد على الدور الحضارى لها والذي نعتبره القاعدة التى انطلقت منها الحضارة العربية الإسلامية والتى نفخر بها حتى اليوم والتى أسهمت فى الحقبة الوسيطة من التاريخ فى خروج أوروبا من عصر الظلمات إلى عصر النور. وإذا كان لنا من سبيل لبعث نهضتنا الحضارية فلنبداً من المكتبة، وعاء العلم والمعرفة كما فعل أسلافنا.

٣ - إذا كانت هذه الدراسة قد انصبت على حركة المكتبات فى عصر دولة المماليك فى مصر فقد كانت هناك نهضة مكتبية رائعة فى بلاد الشام فى العصر المملوكى أيضاً، تستحق الدراسة. كما أن فترة الحكم العثماني لمصر عقب هزيمة المماليك حتى بداية الحملة الفرنسية لم تدرس بعد رغم وفرة المصادر التى تعج بالنصوص الخاصة بتاريخ المكتبات وقتذاك^(١) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن تاريخ المكتبات فى المغرب العربى يمثل حقلاً خصيباً للبحث لاسيما «التجربة الأندلسية»، وهى فى رأينا أخطر من التجربة الشرقية، ذلك لأنها دورة تاريخية متكاملة مرت بالأندلس بفتحها، ثم سقوطها. ومن ثم فالدرس المستخلص من التجربة فى ضوء ما ذكرنا يمكن أن يكون أغنى وأثمن. وعموماً، فإن مثل هذه الدراسات وغيرها مما يتناول تاريخ المكتبات فى العالم العربى إبان عصوره المختلفة، سوف يكون محصلتها فى النهاية مجموعة من التجارب والخبرات فى مجال المكتبات، ويمكن أن نفيد منها فى حياتنا المعاصرة، كما أنها تعتبر الأساس الذى يركز عليه علم المكتبات والمعلومات العربية.

(١) راجع ص ٢٤٢ - ٢٤٥ من الكتاب وما بها من مصادر.

الملاحق

الملحق الأول : ١٢ لوحة مصورة لنصوص وقفية من العصر المملوكي.

الملحق الثاني : جدول بمرتبات أمناء المكتبات في العصر المملوكي.

الملحق الثالث : نص السخاوي عن خزانة الكتب بالمدرسة الحمودية وتولى ابن حجر العسقلاني أمانتها وإعداده فهرس لها، وموقفه من قضية إعارة الكتب. نقلا عن السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، ص ٧٨٢ - ٧٨٣ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٨ - ١٣٧٩.

تتصل هذه الملاحق الثلاثة اتصالاً وثيقاً بموضوع البحث، وتلقى الأضواء على العديد من مغاليقه وخبائاه، وتكشف الغموض عن بعض قضاياها بمزيد من التفاصيل. والملحق الأول عبارة عن مجموعة من اللوحات المصورة لنصوص وقفية من العصر المملوكي. وتبدو أهمية هذه اللوحات في أنها تحمل نصوصاً متباينة لوقف الكتب على المكتبات المملوكية، كما تحمل تمليكات المكتبات لها، وأختام التمليكات. والملحق الثاني جدول يوضح المرتبات الشهرية، والمستحقات الإضافية التي كان يتقاضاها أمناء المكتبات في العصر المملوكي، استخرجناه من بطون الوثائق. ويبرز هذا الجدول التفاوت في هذا المرتبات. وقد عالجنّا ذلك تفصيلاً في الفصل الثاني من الكتاب.

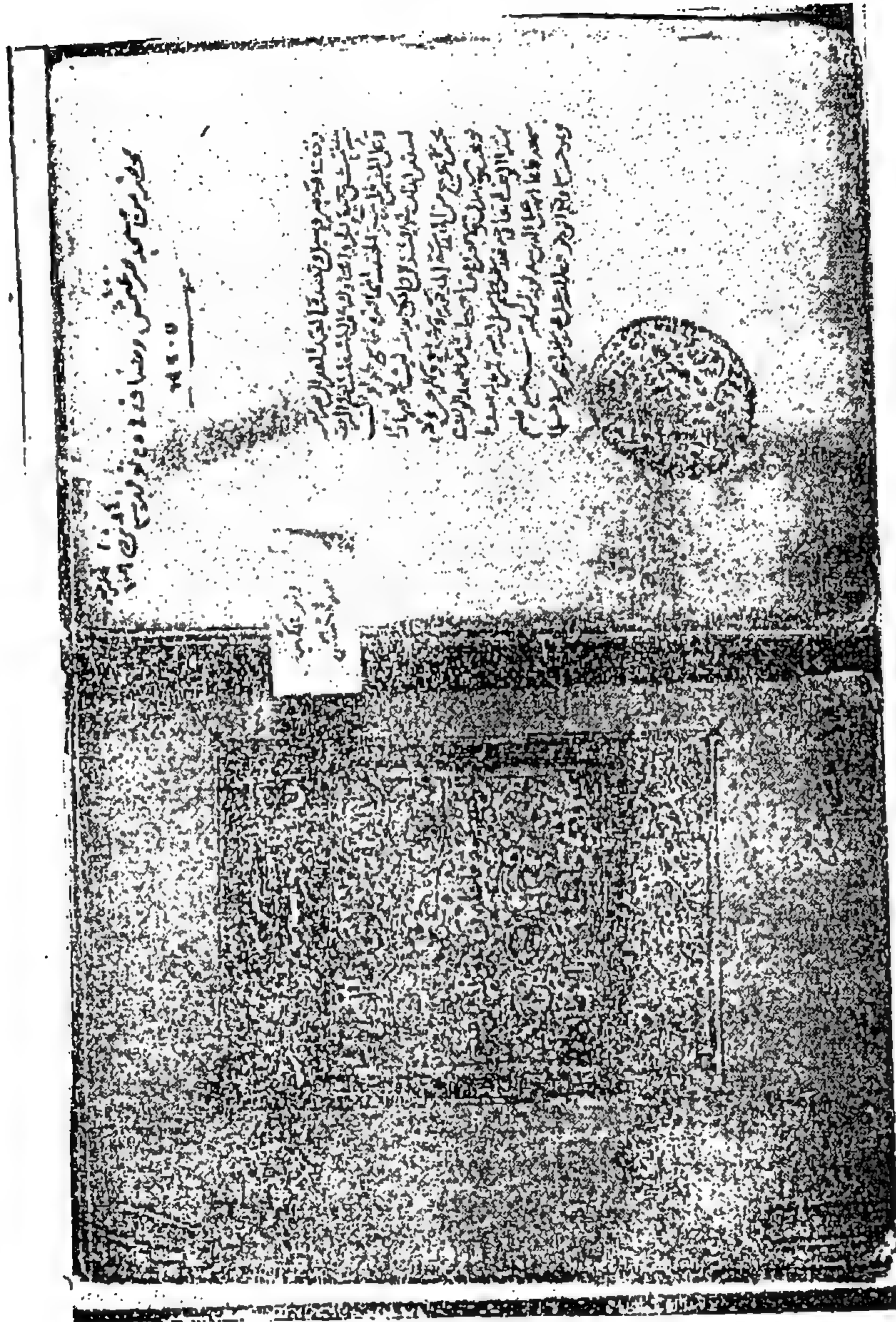
أما الملحق الثالث والأخير فهو نص السخاوي عن خزانة الكتب بالمدرسة الحمودية. وهو ينشر لأول مرة من مخطوطة الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، وقد أضفنا إليه بعض التفسيرات في الحواشي ويتناول هذا الملحق تولى ابن حجر العسقلاني خزانة الكتب بعد عزل خازنها الفخر عثمان، وإعداده فهارس لها. ويستفاد من النص أيضاً تفريط بعض المشرفين على المكتبات فيما تحت أيديهم، كما يلقي الضوء على قضية الإعارة في المكتبات المملوكية. وقد سبق مناقشة هذه الأمور في مواضعها المناسبة من الكتاب.

المسوق الأول

١٢ لوحة

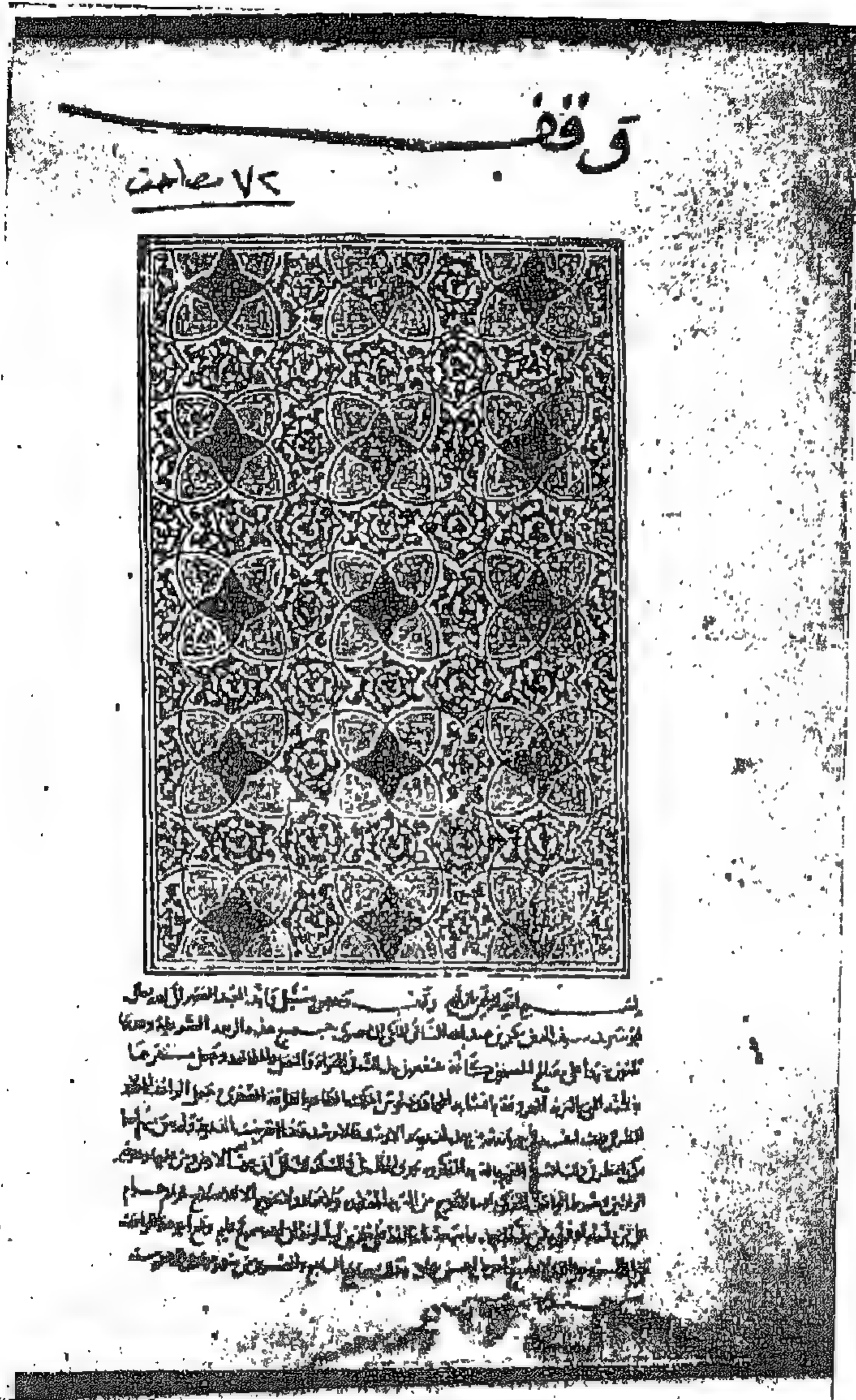
مصورة لنصوص وقفية من العصر المملوكي

لوحة رقم ١



صفحتان من ربيعة شريفة وقلها الأمير صرغتمش بدرسته، رقم ١٥٠ مصاحف، دا، الكتب. ويظهر على إحدى الصفحتين نص الوقفية وختم التملیكة.

لوحة رقم ٣



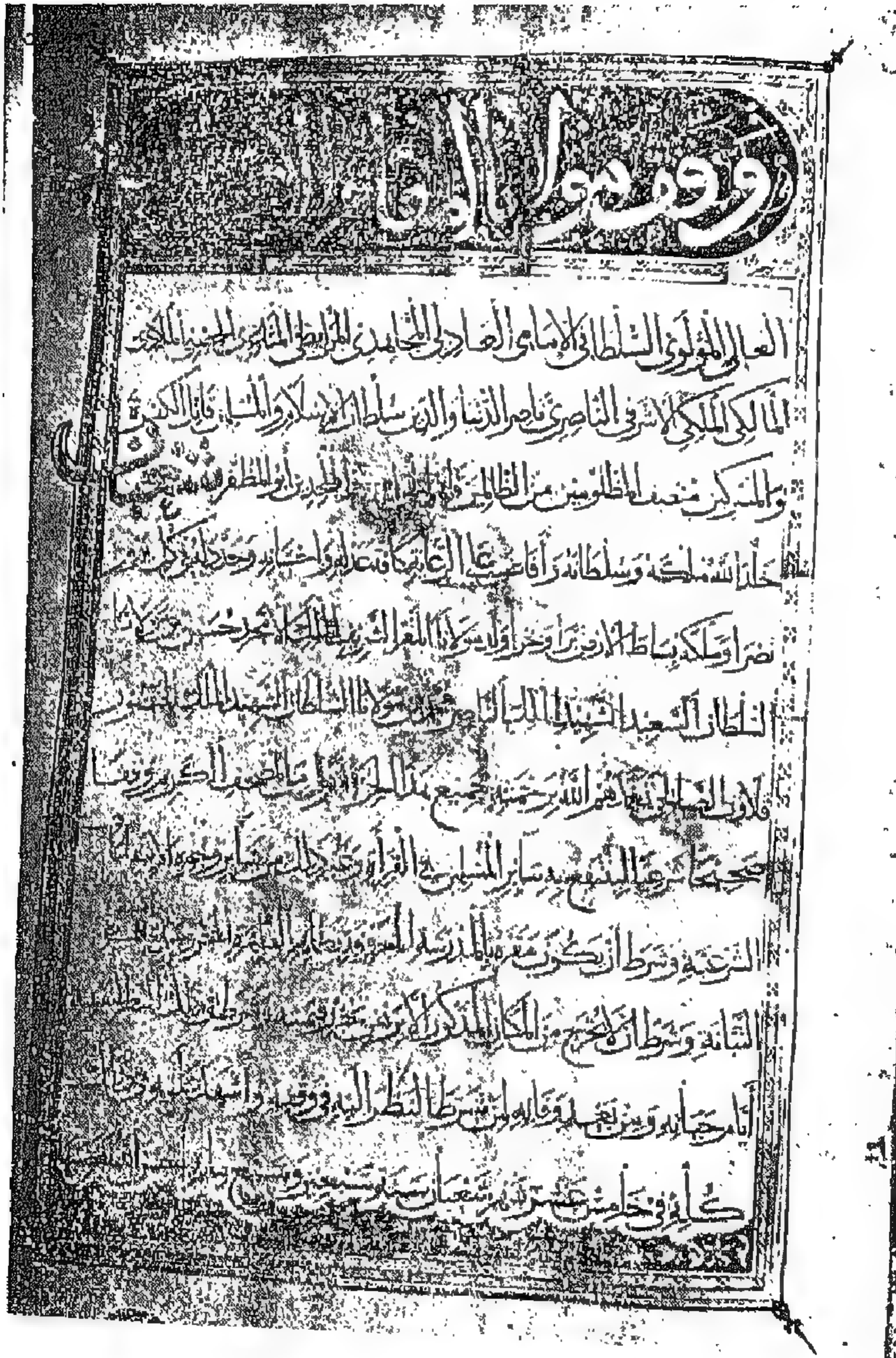
صفحة مزخرفة من ربعة الامير بكتمر الساقى، وبأسفلها نص الوقفية بتاريخ ٢٧
جمادى الآخر سنة ٧٢٦هـ، دار الكتب ٧٢ مصاحف.

لوحة رقم ٤



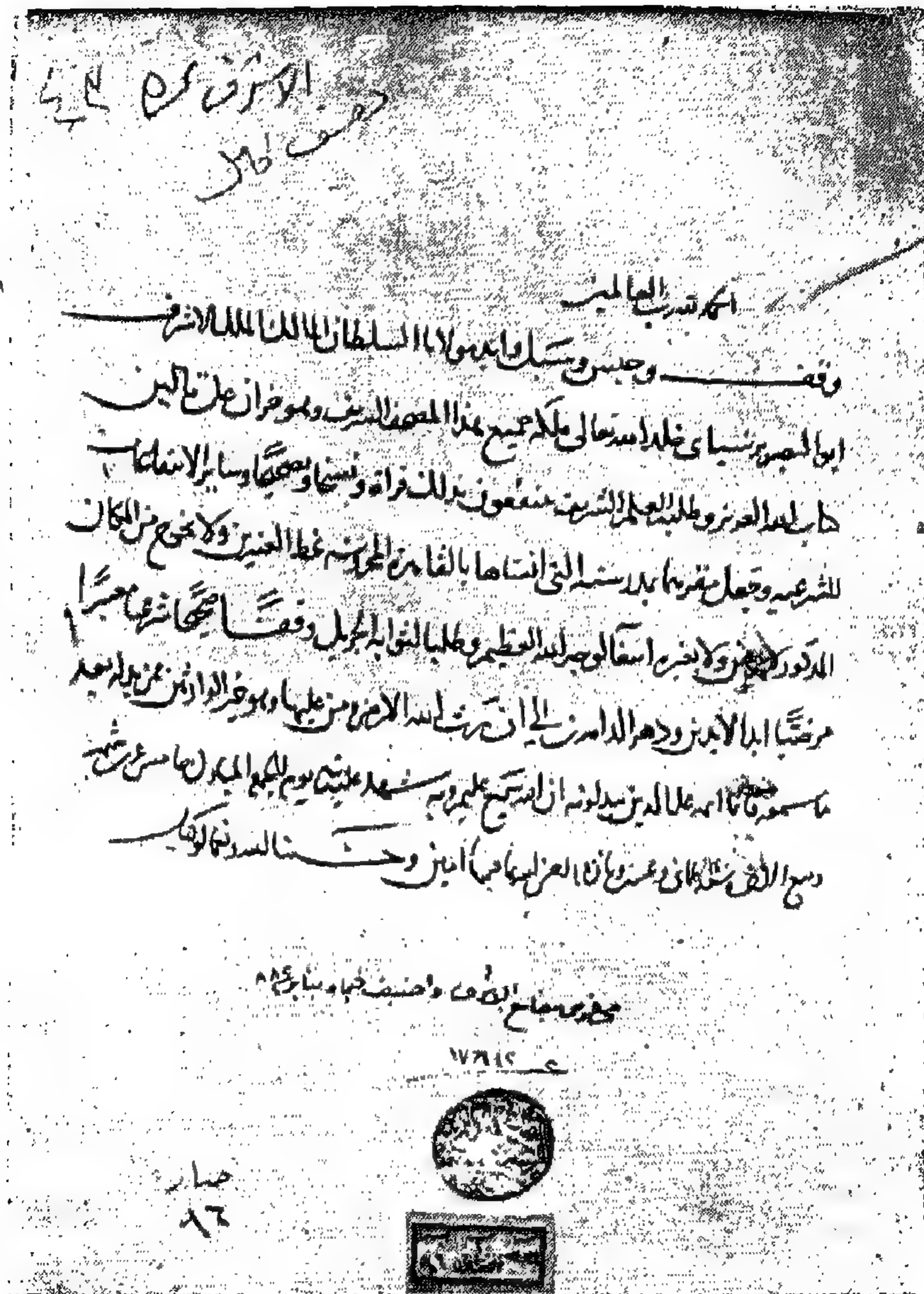


صفحة عنوان المجلد الحادى عشر من كتاب «تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى، (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) من نسخة بخط المؤلف وعليها قراءه على المؤلف للصفدى سنة ٧٣٥هـ. وفى زيل الصفحة وثيقة النسخة المخطوطة على المدرسة المحمودية بالقاهرة (معهد المخطوطات العربية، مكتبة أبا صوفيا ٣٠٠٥).



الصفحة الاولى من مصحف السلطان شعبان بن حسين وعليها نص الوقفية بتاريخ ١٥ شعبان سنة ٧٧٠هـ على مدرسته، (دار الكتب، ٩ مصاحف).

لوحة رقم ٩



نص الوقفية على مصحف السلطان برسباى بتاريخ يوم الجمعة ٢٥ ربيع الآخر سنة ٨٢٨ هـ على مدرسته بالقاهرة بخط الحريرين، وعليها تملكة المكتبة، (دار الكتب، ٩٦ مصاحف).

لوحة رقم ١٠



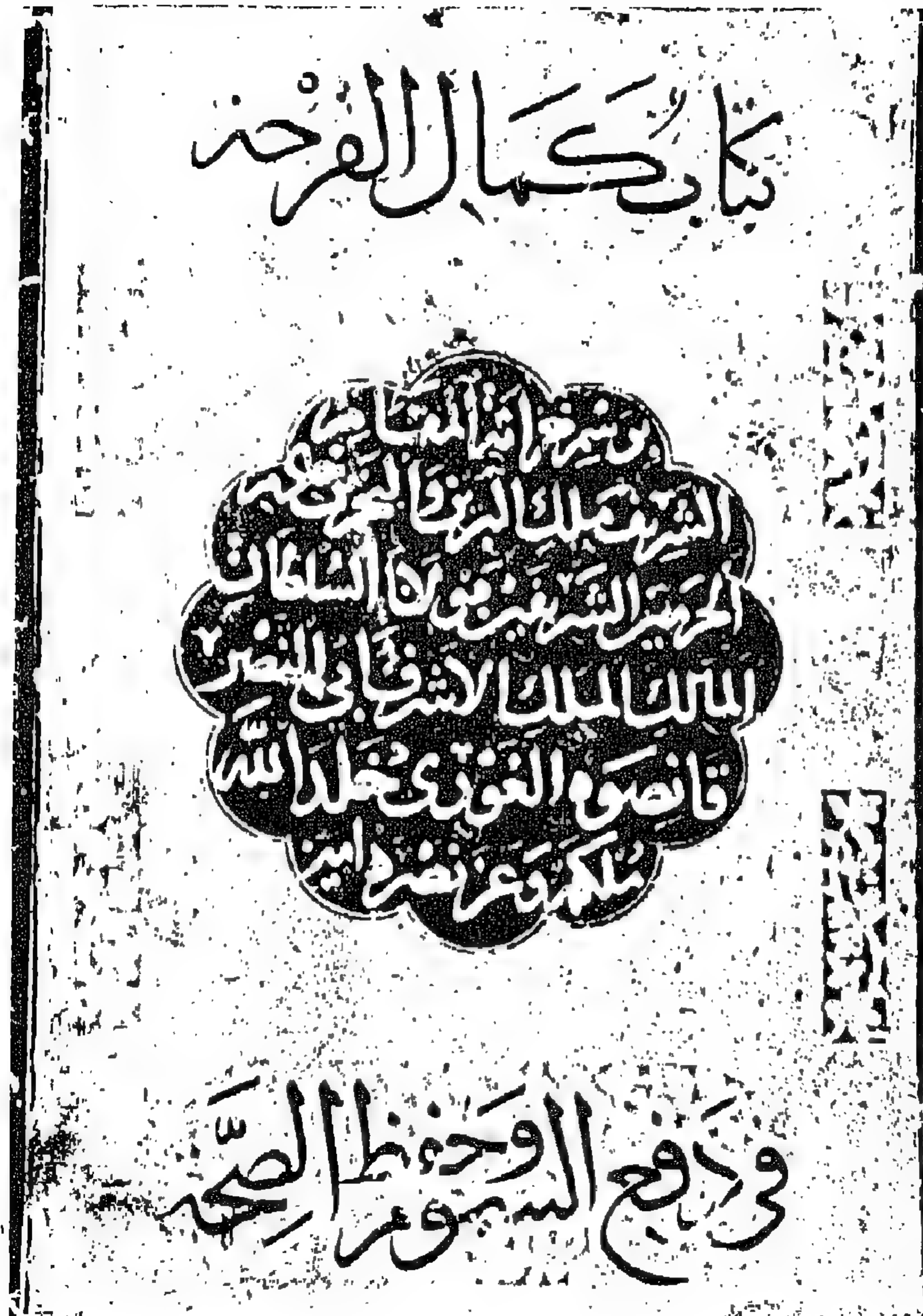
صفحة عنوان الجزء الثاني من كتاب «الوافي بالوفيات»، للصفدي نسخة كتبت برسم خزانة الأمير بشبك من مهدى الداودار وعليها تملیكة المكتبة. وقد آلت هذه النسخة مع شقیقاتها إلى مكتبة أحمد الثالث بعد الغزو العثماني لمصر (أحمد الثالث - ٢٩٢٠، مصدر المخطوطات العربية).

لوحة رقم ١١

وقف هذا المصحف الشريف مولانا
 ومالك رقا الملقب بالشرف السلطان المالك
 الملك الاشرف ابو النصر قايتباي نصر الله تعالى
 وتقبل منه ليقرا فيه ويهديه من اهل القراء للنبي
 محمد عليه افضل الصلوة والسلام (مصحف) صحيفه
 مولانا الواقف صمد الله ثمره وصحفه ذريته
 وانوات المسلمين وجعلهم في حلاله
 الكان خط الكاشي في حاشيته شرط ان لا يخرج
 من الجامع المذكور ومنه ولا يخرج من حلاله
 فانما انما كل الذين يتناولون من حلاله
 بتاريخ التاسع عشر من شهر ربيع الثاني الحرام
 سنة ثمان مائة وثمانين في شهر ربيع الثاني
 في شهر ربيع الثاني في شهر ربيع الثاني

نص الوقفية وشهادة كل من محمد الأسيوطي وابن بكر بن أحمد الزعيفرين بتاريخ ١٩
 محرم سنة ٨٩٠ هـ على مصحف السلطان قايتباي الذي وقفه على مكتبة جامعه (دار
 الكتب، ١٢٦ مصاحف).

لوحة رقم ١٢



صفحة عنوان «كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة»، لمحمد بن محمد القوصوني، من نسخة كتبت سنة ٩١٢ هـ برسم خزانة قانصوه الغوري. (دار الكتب، ٧٧٩ طب)

الملاحق الثاني

جداول بمرتبات مناء المكتبات في العصر المملوكي.

الملحق الثاني

جدول يوضح البرقيات الشهرية والمستحقات الإضافية التي كان يتقاضاها أمين المكتبة الملكية.

م	بيان المكتبة	سنة الإنشاء	المرتب الشهري	المستحقات الإضافية	مصدر المعلومات
١	أمين مكتبة المدرسة المنصورية (قلاوون)	٦٨٣ - ٦٨٤ هـ / ١٢٧٦ - ١٢٧٧ م	٤٠ درهماً		المعريزي: السلوك، ج١، ص ١٠٠١؛ الدويري: نهاية الأرب (مخط)، ج٩، ورقة ٨٣ ب. وثيقة الناصر محمد بن قلاوون، محكمة ٢٥، محفوظة ٤.
٢	أمين مكتبة المدرسة الناصرية (محمد بن قلاوون)	١٢٠٣ هـ / ١٢٠٣ م	٣٠ درهماً		وثيقة صدر غشمش، ٣١٩٥ أوقاف. وثيقة السلطان حسن ٨٨١ أوقاف.
٣	أمين مكتبة المدرسة الصرغتمشية	١٢٥٢ هـ / ١٢٥٦ م	٥٠ درهماً		
٤	أمين مكتبة مدرسة السلطان حسن بن قلاوون	٧٥٨ - ٧٦٤ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٣ م	١٠٠ درهم	عشر دراهم في المشر الأواخر من رمضان ثمان ٣ رطل من السكر وسن رطل من زيت الزيتون.	

تابع الملحق الثاني
جدول يوضح المراتب والشهرية والمستحقات الإضافية التي كان يتقاضاها أمين المكتبة الملكية.

م	بيان المكتبة	سنة الإنشاء	المراتب الشهري	المستحقات الإضافية	مصدر المعلومات
٥	أمين مدرسة السلطان برقوق	٧٨٦ - ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٦ م	١٥ درهماً	عشرين درهماً شهرياً نظير وظيفة الصوفية التي كان يشغلها نفس الأمين.	وثيقة وقف برقوق، محكمة ٥١، محفظه ٩.
٦	أمين مكتبة مدرسة سولون من زاده.	٨٠٤ - ١٤٠١ هـ / ١٤٠١ م	٢٠ درهماً		وثيقة سولون من زاده، محكمة ٥٨، محفظه ١٠.
٧	أمين مكتبة المدرسة الاستدارية (جمال الدين يوسف الاستادان)	٨١٠ - ٨١١ هـ / ١٤٠٧ - ١٤٠٨ م	١٠ دراهم		وثيقة جمال الاستادان، محكمة ١٠٦، محفظه ١٧.
٨	أمين مكتبة جامع فرج بن برقوق (الجامع الأبيض بالحوش السلطاني)	٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م	٢٠ درهماً		وثيقة فرج بن برقوق، محكمة ٦٦، محفظه ١١.

تابع الملحق الثاني

جدول يوضح البرقيات الشهرية والمستحقات الإضافية التي كان يتقاضاها أمين المكتبة المملوكية.

م	بيان المكتبة	سنة الإنشاء	المرتب الشهري	المستحقات الإضافية	مصدر المعلومات
٩	أمين مكتبة جامع المريد شيخ	٨١٨-٨١٩هـ/١٤١٥-	٤٠ نصف فنة		وثيقة المريد شيخ، ٩٣٨ أوقاف.
١٠	أمين مكتبة المدرسة الاشرافية برسباى	٨٢٦-٨٢٩هـ/١٤٢٣- ١٤٢٦م	٣٠٠ درهماً	ثلاثة أرحال من الخبز فى اليوم	وثيقة برسباى، رقم ٨٨٠ أوقاف.
١١	أمين مكتبة مدرسة قايتباى	٨٧٧-٩٠٦هـ/١٤٧٢-	٢٠٠ درهماً	رطلان من الخبز فى اليوم	وثيقة قايتباى، رقم ٨٨٦ أوقاف.
١٢	أمين مكتبة مدرسة الأمير أريك من طلخ	٨٨٠هـ/١٤٧٥م	٣٠٠ درهماً		وثيقة أريك من طلخ، محكمة ١٩٨، محفلة ٣١.
١٣	أمين مكتبة المدرسة النورية	٩٠٨-٩٠٩هـ/٩٥٠٣هـ-١٥٠٣	١٥٠٠ درهماً	هذا مرتب أمين المكتبة والغراش	وثيقة النورى، ٨٨٣ أوقاف.
١٤	أمين مكتبة مدرسة قانسى باى	٩٠٨هـ/١٥٠٣م	١٦ درهماً		وثيقة قانسى باى الرماح، ١٠١٩ أوقاف
١٥	الرماح أمين مكتبة الإيشادى بالجامع الأزهر	٩١٩هـ/١٥١٣م	٥ أنصاف فنة		وثيقة الإيشادى، محكمة ٢٧٨، محفلة ٤٣.

الملحق الثالث

نص السخاوي المؤرخ عن خزانة الكتب بالمدرسة المحمودية عن كتاب

«الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر»

ص ٧٨٢-٧٨٣-١٣٧٦-١٣٧٩م.

«وأما خزن الكتب فإنه كما بيده خزانة الكتب بالمدرسة المحمودية الكائنة بالموازين، وكان قد عزل عنها خازنها الفخر عثمان المعروف بالطاغى فى سنة ست وعشرين وثمانى مائة لكونها نقصت بتفريطه العشر وهو أربع مائة مجلدة. وهذه الكتب من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة، جمعها القاضى برهان الدين بن جماعة طوال عمره، ولما مات اشتراها محمود من تركة ولده، ووقفها، وشرط أن لا يخرج منها شىء من المدرسة. ولفاسة كتبها رغب شيخنا^(١) فى مباشرتها بنفسه، وعمل لها فهرستا على الحروف غى أسماء^(٢) التصانيف ونحوها، وآخر على الفنون. وقد انتفع بذلك ونفع الله به، فإنه كان يقيم بها فى الإِسبوع غالباً يوماً، وفى مدة الإِسبوع يكتب فى قائمة^(٣). ما يحتاج لمراجعتها منها (نسبته)^(٤) فى تصانيفه وغيرها ليتذكره فى يوم جلولة بها كما شاهدته بخطه وتيسر على يدي عود^(٥) أشياء مما كان صناع قبله. واستمرت بيده حتى مات،^(٦).

وأما عاريته^(٧) للكتب فأمر انفرد به عن سائر أهل عصره حتى لا أعلم نظيره فى ذلك بل كان يعيرها لمن يسافر بها، وربما افتدى كتب المحمودية التى تحت نظره بها حتى كان رحمه الله يقول لى لا تأخذ من كتب الخزانة إلا ما ليس فى كتبى بل أقسم بالله

(١) المقصود بالشيخ هذا الإمام المؤرخ ابن حجر العسقلانى صاحب الترجمة.

(٢) فى الأصل اسما بدون همزة.

(٣) فى الأصل قائمة

(٤) هكذا فى الأصل ويبدو أن المقصود هنا هى «إضافة».

(٥) أى إعادته.

(٦) السخاوى: الجواهر والدرر، ورقة ٧٨٢ - ٧٨٣. وجدير بالذكر أنه ابن حجر توفى فى عام ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م.

(٧) أى إعارته.

أنه نهانى عن الإستعارة من غيره. ورأيت معه فى رمضان من السنة التى توفى فيها مجلدا كنت أحب الوقوف عليه، فالتمست منه عاريته بعد فراغ أريه من مطالعته، فقال نعم ومضى بقية الشهر وشوال وذو القعدة، واتفق دخولى مع الجماعة لعيادته فى ذى الحجة فأشار إلى فأخذته من بين كتبه... (١).

وسالته فى فهرست الكتاب بخطه ففعل. ولو شرحت ما اتفق لى معه من ذلك لقضى العجب فكيف بغيرى من جماعته، بل كان شديد الإنكار على من بخل بعارية الكتب بحيث سمعته مرة يقول أرسل إلى القاضى بدر الدين ابن السبتي المالكى يطلب السنن لأبى داود ليحدث به، فأعلمته بأن النسخة التى عندي بخطى وتعسر القراءة منه غالبا على من لم يكن من أهل الحديث، لكنه كان عند الأمير تغرى برمشى (٢) الفقيه نسخة موقوفه بخط المحدث أبى العباس احمد الملقب بالملك المحسن بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٣)، وهو إن كان الآن فى بيت المقدس فهى عند فلان وسمى له بعض اصحابنا المحدثين، وقال له انه يطلبها منه فأرسل اليه، فانكروا وجودها وقال انها عند الامير مع كون سبطى (٤)، استكتب منها فى هذه الأيام نسخة نسخة وفرغت أمس وأعادها إليه، وصار يقضى العجب من ذلك ويقول هذا وهى وقف، فلو كانت ملكا ماذا كان يفعل... (٥).

(١) السخاوى : الجواهر والدرر، ورقة ١٣٧٦.

(٢) تغرى برمش الناصرى سيف الدين الجلالى نائب القلعة بالقاهرة، توفى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى. راجع ترجمته فى : السخاوى : الضوء اللامع، ج٣، ص ٣٣ - ٣٤.

(٣) هو : صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية.

(٤) السبط : هو ولد الإبن أو الإبنة، راجع : المعجم الوسيط ج١ ص ٤٢٩.

(٥) السخاوى : المصدر السابق، ورقة ١٣٧٨ - ١٣٧٩.

استقر فيها ابو الخير النحاس وهي الآن
 بيد ققيه الشافعية الشرف المناوي
 وأما خزان الكتب فانه كان سيده خزانه
 الكتب بالمدينة بسية المحمودية الجانية بالواز
 وكان قد عمل عتقها خازنها الفخر عثمان
 المعروف بالطاغى في سنة ست وعشرين
 وثمان مائة لكونها نقصت بغير رخصة
 وهو اربع مائة مجلدة لان كتبها كانت
 اربعة آلاف مجلدة وهذه الكتب من الفرس
 الكتب الموجودة الآن بالقاهرة في
 لخاصة برهات الدين ابن حاتم صول
 ولأمانات استخرها محمود بن ترقم
 وه قفها وشرط ان لا يخرج منها شيء
 المدرسة ولعمارة دارها رجب تشيخ
 في مدينته وتكلمت في عمله في سنة
 على الحدود في السنة التي تصدق ونحو
 آخذ على الفنون وقد استعم بذلك
 الله به فانه كان يقدم به في
 لم له به ما في هذه الاشياء
 في سنة ما يحتاج لراجمه
 في سنة رة في حاله ذكره في يوم

مما ولله بها كما شهدته بوطه وتيسر على
 يد غير الاشياء مما كان ضاع قبله
 واستثمرت بيده حتى مات فاحد ما

١٣٧٠

١ - حتى أتته مكث في مرض منومة
 ٢ - مدة لا يعلم من يقرا عليه ليلا
 ٣ - مزاكاة لظاهره وهو يتحل المشقة
 ٤ - الى ان اعصى فاعلمه بلطف
 ٥ - ارثته للكتب فامروا القرد به
 ٦ - نهر اهل مصر حتى لا اعلم تطير
 ٧ - لك بل كان يعيرها لمن يسافر فيها
 ٨ - بما افندي كتب الممودة التي تحت
 ٩ - رة ثا حتى كان رحمه الله يقول
 ١٠ - تاخا من كتب الخزانة الاما ليس في
 ١١ - بي قسم بالله انه سها في الاستفارة
 ١٢ - رة رايت معه في رمضان من السنة
 ١٣ - التي تو فيها مجلدا كنت احب الوقوف
 ١٤ - له قال نمت منه عاريت بعد فراغ
 ١٥ - رة من لما لعت فقال نعم ومضى
 ١٦ - له الش هو وشوال و ذو القعدة والتفوق
 ١٧ - ولى مع الجماعة لعيادته في ذي الحجة
 ١٨ - سار الى ما حدثه من بين كتبه هذا
 ١٩ - و صعد وود مضى من سوالى له
 ٢٠ - وتلات اسهم ولم ينس ذلك وبالله
 ٢١ - رة بعض صحابنا اثر من ذلك فانا
 ٢٢ - لله

اظهرها اربعة وجيئة به فقصي العجب
 من ذلك وسالته في فهرست الكتاب
 بخطه ففعل ولو شرح ما اتفق له
 من ذلك لقضي العجب فكيف يغيري من
 جماعته بل كان شديد الارتكان على من
 يخل بعارية الكتب بحيث سمعته مرة
 يقول ارسل الى القاضي بدو الدين ابن
 البسني المالكى لطلب السني لابي داود
 ليعود به فاعلمنا بان النسخة التي
 عنده يخطي ونعسر القراءة منه غالباً
 على من لم يكن من اهل الحديث لكنه كان
 عند الامير ثوري يرمس القبة نسوة

موقوفة بخط المحدث ابن العباس أحمد
الملقب بالملك الحسن ابن السلطان صلاح الدين
يوسف بن ايوب وهو وان كان الآن
في بيت المقدس فهي عند فلان وسمي له
بعض اصحاب الحديثين وقال له انه
يطلبها منه فارسل اليه فانكرو وجودها
وقال انها عند الامير نزع كون سبلي
استكتب منها في هذه الايام نسخة
نسخة وفسرغت امس واعادها اليه وصار
يقضي العجب من ذلك ويقول هذا وهي
وقف فلوكانت ملكا ما ذا كان يفعل

قائمة المصادر والمراجع

- أولا - الوثائق .
- ثانيا - المصادر العربية المخطوطة والمصورة.
- ثالثا - المصادر العربية المنشورة.
- رابعا - المراجع العربية والمعربة (الكتب) .
- خامسا - رسائل الماجستير والدكتوراه.
- سادسا - مقالات الدوريات وابحاث الندوات والمؤتمرات.
- سابعا - المراجع الأجنبية.

أولا - الوثائق (١)

(أ) أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة:

اسم الوثيقة	الرقم	المحفظة	سنة الوقف
١ - وثيقة وقف الأمير قراقبا الحسنى	٩٢		١٤٤١/٨٨٤٥ م
٢ - وثيقة الزينى خشقدم	١٨٨		١٤٣٤/٨٨٣٧ م
٣ - وثيقة قجماش الاسحاقى	٦٧٩		١٤٦٤/٨٨٦٩ م
٤ - وثيقة السلطان قلاوون	٧٠٦		١٢٨٥/٨٦٨٤ م
٥ - وثيقة السلطان برسباى	٨٨٠		١٤٢٤/٨٨٢٧ م
٦ - وثيقة السلطان حسن بن قلاوون	٨٨١		١٣٥٨/٨٧٦٠ م
٧ - وثيقة السلطان قانصوه الغورى	٨٨٣		١٥١٦/٨٩٢٢ م
٨ - وثيقة السلطان قايتباى	٨٨٦		١٥٠٧/٨٩١٢ م
٩ - وثيقة السلطان المؤيد شيخ المحمودى	٩٣٨		١٤٢٠/٨٨٢٣ م
١٠ - وثيقة السلطان قلاوون	١٠١٠		١٢٨٦/٨٦٨٥ م
١١ - وثيقة الأمير قانى باى قرا الرماح	١٠١٩		١٥٠٢/٨٩٠٨ م
١٢ - وثيقة الصفوى جوهر اللالا	١٠٢١		١٤٢٧/٨٨٣١ م
١٣ - وثيقة مغلطاي الجمالى	١٦٦٦		١٣٢٩/٨٧٢٩ م
١٤ - وثيقة الأمير صرغتمش	٣١٩٥		١٣٥٦/٨٧٥٧ م

(ب) وثائق المحكمة الشرعية (دار الوثائق القومية)

١٥ - وثيقة السلطان قلاوون	١٥	٢	١٢٨٦/٨٦٨٥ م
١٦ - وثيقة السلطان حسام الدين لاجين	١٧	٣	١٢٩٧/٨٦٩٧ م

(١) جدير بالذكر أنا أطلنا على جميع الوثائق المملوكية التى أورد د. / محمد محمد أمين بياناتها فى فهرست وثائق القاهرة، لكن نكتفى فى هذه القائمة بذكر الوثائق التى تحتوى على معلومات مباشرة أو غير مباشرة عن الكتب والمكتبات.

اسم الوثيقة	الرقم	المحفظة	سنة الوقف
١٧ - وثيقة السلطان الدين لاجين	١٨	٣	١٢٩٧هـ / ١٢٩٧م
١٨ - وثيقة السلطان بيبرس الجاشنكير	٢٢	٤	١٣٠٧هـ / ١٣٠٧م
١٩ - وثيقة السلطان محمد بن قلاوون	٢٥	٤	١٣٢٥هـ / ١٣٢٥م
٢٠ - وثيقة جمال الدين محسن الاخميمي	٣٢	٥	١٣٤٣هـ / ١٣٤٣م
٢١ - وثيقة السلطان حسن بن قلاوون	٣٧	٦	١٣٥٨هـ / ١٣٥٨م
٢٢ - وثيقة محمد بن بدر العباس	٤٣	٧	١٣٦٣هـ / ١٣٦٣م
٢٣ - وثيقة الجمالي عبد الله	٤٦	٧	١٣٦٥هـ / ١٣٦٥م
٢٤ - وثيقة خوند بركة	٤٧	٧	١٣٦٩هـ / ١٣٦٩م
٢٥ - وثيقة السيفي سودون من زادة	٥٨	١٠	١٤٠١هـ / ١٤٠١م
٢٦ - وثيقة مقبل الرومي الزمام	٦١	١٠	١٤٠٤هـ / ١٤٠٤م
٢٧ - وثيقة السلطان فرج بن قلاوون	٦٦	١١	١٤٠٨هـ / ١٤٠٨م
٢٨ - وثيقة شمس الدين الواسطي	٧٠	١١	١٤١٢هـ / ١٤١٢م
٢٩ - وثيقة الصفوي جواهر اللالا	٨٥	١٤	١٤٣١هـ / ١٤٣١م
٣٠ - وثيقة الصفوي جواهر اللالا	٨٦	١٤	١٤٣١هـ / ١٤٣١م
٣١ - وثيقة السلطان جقمق	٩٧	١٥	١٤٣٩هـ / ١٤٣٩م
٣٢ - وثيقة الأمير تغرى بردى	٩٨	١٦	١٤٤٠هـ / ١٤٤٠م
٣٣ - وثيقة الجمالي يوسف ناظر الخواص	١٠٥	١٦	١٤٤٥هـ / ١٤٤٥م
٣٤ - وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار	١٠٦	١٧	١٤٤٨هـ / ١٤٤٨م
٣٥ - وثيقة القاضي يحيى بن زين الدين	١١٠	١٧	١٤٥١هـ / ١٤٥١م
٣٦ - وثيقة يشبك بن عبد الله	١٢١	٢٠	١٤٥٩هـ / ١٤٥٩م
٣٧ - وثيقة أبو المحاسن بن تغرى بردى	١٤٧	٢٣	١٤٦٥هـ / ١٤٦٥م
٣٨ - وثيقة أبو زكريا يحيى	١٥٤	٢٤	١٤٦٦هـ / ١٤٦٦م

١٧٣	٢٧	١٤٢٤/٨٢٧ م	٣٩ - وثيقة برسبای الدقماقی
١٨٦	٢٨	١٤٧٣/٨٧٨ م	٤٠ - وثيقة عيسى الزواوی
٢١٠	٣٣	١٤٩٠/٨٩٥ م	٤١ - وثيقة السلطان قايتباي
٢٢١	٣٥	١٤٩٧/٩٠٢ م	٤٢ - وثيقة بدر الدين الوفائي
٢٢٢	٣٥	١٤٩٨/٩٠٣ م	٤٣ - وثيقة الزينى عبد اللطيف أنسباي
٢٥٣	٤٠	١٥٠٦/٩١١ م	٤٤ - وثيقة عبد الرحمن المغربي
٢٧٨	٤٣	١٥١٣/٩١٩ م	٤٥ - وثيقة على بن سليمان الإيشادى

ثانيا - المخطوطات والمصورات والميكروفيلم

- ١ - ابن أبي السرور، محمد بن السيد (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) :
 (أ) عيون الأخبار ونزهة الإبصار، دار الكتب المصرية - القاهرة رثم ٧٢ تاريخ.
 (ب) النزهة الزاهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية، دار الكتب المصرية - القاهرة، رقم ٢٢٦٦ تاريخ.
- ٢ - ابن أبيك، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :
 (أ) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، دار الكتب المصرية - رقم ٤٤٩ تاريخ.
 (ب) كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، دار الكتب المصرية، رقم ٤٦٤٣ تاريخ.
- ٣ - ابن بهادر، محمد بن محمد (ت ق ٩هـ / ١٥م) :
 فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، جزآن، دار الكتب المصرية، رقم ٢٣٩٩ تاريخ، تصوير شمس.
- ٤ - ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) :
 المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، دار الكتب المصرية، ٢٠٩ تيمور.
- ٥ - ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
 درة الأسلاك في دولة الأتراك، دار الكتب المصرية، رقم ٦١٧٠، تصوير شمس.

- ٦- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) :
تاريخ المائة التاسعة، دار الكتب المصرية، رقم ٤٧٦٧ تاريخ، تصوير شمس.
- ٧- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) :
(أ) الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، دار الكتب المصرية
رقم ١٥٢٢ تاريخ.
- (ب) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دار الكتب المصرية، رقم ١٧٤٠
تاريخ.
- ٨- ابن زنبيل الرمال، أحمد بن علي بن أحمد المحلى (ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٥م) :
تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغوري، دار الكتب، رقم ٤٤ تاريخ.
- ٩- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحيم بن علي
(ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) :
تاريخ الدول والملوك، ١٨ مجلد، دار الكتب المصرية، رقم ٣١٩٧
تاريخ، تصوير شمس.
- ١٠- بامخرمه، أبو محمد بن عبد الله (ت ق ١٠هـ / ١٦م) :
قلادة الفخر في وفيات أعيان الدهر، ٦ مجلد، مصور بدار الكتب
المصرية رقم ١٦٧ تاريخ.
- ١١- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله عمر (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) :
تعريفات العلوم وموضوعاتها، معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة،
رقم ٤ معارف عامة.

- ١٢ - البكرى، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى السرور (ت ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) :
 قطف الأزهار من الخطط والآثار، دار الكتب المصرية، رقم ٤٠٧
 جغرافيا.
- ١٣ - السخاوى، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) :
 الجواهر والدرر فى سيرة شيخ الإسلام ابن حجر، دار الكتب
 المصرية رقم ١١٤٧٠ ح.
- ١٤ - السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) :
 تاريخ السلطان الأشرف قايتباى. دار الكتب المصرية، رقم ٦١
 تاريخ.
- ١٥ - الشيلى اليمنى، جمال الدين أبو علوى محمد بن أبى بكر (ت ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م) :
 السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر، دار
 الكتب المصرية، رقم ١٥٨٦ تاريخ.
- ١٦ - الصفدى، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) :
 (أ) أعيان العصر وأعوان النصر، ٦ مجلد، دار الكتب المصرية، رقم
 ١٠٩١ تاريخ.
- (ب) الوافى بالوفيات، ١٧ مجلد، دار الكتب المصرية، رقم ٢١٩ تاريخ تصوير
 شمس.
- ١٧ - العمرى، فضل الله (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) :
 مسالك الأبصار فى معالك الأمصار، ٤ مجلد، دار الكتب المصرية رقم
 ٥٦ معارف عامة (تصوير شمسى).

١٨ - العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ٦٩ مجلد، دار الكتب المصرية
رقم ١٥٨٤ تاريخ، ، تصوير شمس.

١٩ - الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) :

نشر الجمان في تاريخ أهل الأعيان، ٢ مجلد، دار الكتب المصرية،
رقم ١٧٤٦ تاريخ.

٢٠ - القرمانى، أبو العباس أحمد حلب بن يوسف بن أحمد (ت ١٠١٩هـ / ١٥٥٧م) :

أخبار الدول وآثار الأول، دار الكتب المصرية، رقم ١٩٢١ تاريخ.

٢١ - الكتبي، محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) :

عيون التواريخ، ١٦ مجلد، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٩٧ تاريخ تصوير
شمس.

٢٢ - المقدسى، مرعى بن يوسف (ت ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م) :

نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء
والسلاطين، دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٧٦ تاريخ.

٢٣ - النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٢م) :

نهاية الأرب في فنون الأدب، ٥٥ مجلدا، دار الكتب المصرية، رقم
٥٤٩ معارف عامة، تصوير شمس.

ثالثا - المصادر العربية المطبوعة

١- ابن أبى أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد القاسم (ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠) :

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار
مكتبة الحياة ١٩٦٥.

٢- ابن أبي الوفاء القرشي، محي الدين عبد القاهر بن محمد (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) :
الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو،
الرياض دار العلوم، ١٩٧٨.

٣- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) :
الكامل في التاريخ، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٨٢.

٤- ابن أسعد اليافعي، أبو محمد عبد الله (ت ٦٧٨هـ / ١٣٦٦م) :
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث
الزمان، الهند، ١٩١٨ - ١٩٢٠.

٥- ابن الاكفاني، شمس بن ابراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) :
ارشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، تحقيق محمد العبد، القاهرة،
مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.

٦- ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفى (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ جزء، تحقيق محمد مصطفى،
القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ - ١٩٨٤.

٧- ابن أبيك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) :

كنز الدرر وجامع الغرر:

(أ) الجزء الثامن : الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية،
تحقيق أولريخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١.

(أ) الجزء التاسع: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر،

تحقيق هانس روبرت دوير، القاهرة، ١٩٦٠ م.

٨- ابن أبيك الصفدى، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):

الوافى بالوفيات:

الجزء الأول، تحقيق هـ، ريتز، استانبول، ١٩٣١ م.

الجزء الثانى، تحقيق س. د. بدرينغ، استانبول ١٩٤٩.

الجزء الثالث والرابع والخامس والسادس، تحقيق س، ويدرينغ، دمشق

١٩٥٢، ١٩٥٩، ١٩٦٧، ١٩٧٢ م.

الجزء السابع، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٥٩.

٩- ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصنجى (ت ٧٧٩هـ/١٧٧٧م):

تحفه الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزء،

القاهرة ١٩٥٨ م:

١٠- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

(أ) الدليل الشافى على المنهل الصافى. تحقيق فهم شلتوت، جزءان

مكة المكرمة، مركز البحث العلمى، ١٩٧٤ م.

(ب) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى.

ج١، ٢ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٨٤ م.

ج٣، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٨٥ م.

ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٨٦م.

ج٥، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٨٨م.

ج٦، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٨٩م.

(ج) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة،
١٩٢٩-١٩٥٦م.

١١- ابن جماعة، بدر الدين ابراهيم سعد الله، (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):
تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق أحمد عبد
الغفور عطار، بيروت، ١٩٦٧م.

١٢- ابن الجوزي، ابو الفتوح عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م):
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٠ أجزاء، الهند، ١٣٥٨هـ/.

١٣- ابن الجيعان، شرف الدين ابو البقاء يحيى علم الدين شاکر (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م):
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر موريترز، القاهرة، ١٨٩٦.

١٤- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م):
المدخل: مدخل الشرع الشريف على المذهب، أربعة أجزاء، القاهرة
١٩٢٩.

١٥- ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):

تذكرة النبوة في أيام المنصور وبينيه، ثلاث أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦-١٩٨٦.

١٦- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م):

١- انباء الغمر بأبناء العمر، ٣ أجزاء، تحقيق حسن جبشي، القاهرة ١٩٦٩.

٢- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، الهند، ١٩٢٩م.

٣- رفع الاصر عن قضاة مصر، جزءان، تحقيق حامد عبد الموجود وآخرون، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٧- ابن الحسن الحسيني، شمس الدين أبو المحاسن (ت ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م):

زيل تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٨٦م.

١٨- ابن خلدون، عبد العزيز بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م):

(أ) العبر وديوان المبتدأ والخبر...، ٤ جزء القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(ب) المقدمة، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م.

١٩- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م):

وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧.

٢٠- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدير (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م):

الانتصار بواسطة عقد الأمصار، جزء ٤-٥، القاهرة، مطبعة بولاق
١٣٠٩هـ / ١٨٩٠م.

٢١- ابن الزيات، شمس الدين محمد (ت ٩هـ / ١٥م) :

الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الصغرى
والكبرى، القاهرة ١٩٠٧م.

٢٢- ابن سعيد، على بن موسى بن محمد عبد الملك (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦) المغرب في
حلى المغرب:

(أ) الاغتباط في حلى خضرة الفسطاط، تحقيق زكى محمد حسن
وآخرون القاهرة، ١٩٥٣م.

(ب) النجوم الزاهرة في حلى خضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار،
القاهرة، ١٩٧٠م.

٢٣- ابن شاعر الكتبي، محمد بن شاعر بن احمد (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :

(أ) فوات الوفيات، ٢ جزء، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر
١٩٧٣م.

(ب) عيون التواريخ، ج ٢٠، تحقيق نبيله عبد المنعم داود وفيصل السامر
بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨٤م.

٢٤- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين بن خليل (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) :

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس روايس،
باريس ١٨٩٤م.

٢٥- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال،
القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٦- ابن الصيرفي، على بن داود الجوهري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م):

(أ) أنباء مصر بأبناء العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٢٠م.

(ب) نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٣ جزء، القاهرة، دار
الفكر العربي، ١٩٦٩م.

٢٧- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م):

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان: تاريخ مصر والشام، تحقيق محمد
مصطفى القاهرة، ١٩٦٩م.

٢٨- ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن أبي بكر (ت ٩٠٠هـ / ١٥٠٠م):

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا
وكامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩م.

٢٩- ابن عبد الظاهر، محي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م):

١ - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد
كامل القاهرة ١٩٦١م.

٢- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر،
الرياض، ١٩٧٦م.

٣٠- ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، بيروت، دار صادر ١٩٨١.

٣١- ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م):

تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات.

(أ) جزء ٤، تحقيق حسين محمد الشماع، البصرة، ١٩٦٩م.

(ب) جزء ٧، ٨، ٩، نشر قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٤٢م.

٣٢- ابن فرحون: برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمرى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):

الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، القاهرة، ١٣٢٩هـ / ١٩٠٩م.

٣٣- ابن فضل الله العمرى: شهاب الدين احمد (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م):

التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٩٦٩م.

٣٤- ابن الفوطى، عبد الرازق أحمد (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م):

(أ) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومى، دون تاريخ.

(ب) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد المكتبة العربية، ١٩٣٢م.

٣٥- ابن القاضى: ابو العباس أحمد بن محمد المكناسى (١٠٢٥هـ / ١٦١٥م):

درة الجمال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ٤ أجزاء القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٦- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ٢٣٧٢م):

البداية والنهاية، ٤ أجزاء، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٦٦-١٩٧٧ م.

٣٧- ابن المبرد، جمال الدين الحنبلي (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٢م) :

معجم الكتب : أتمه عبد الله بن داود الزبيرى الحنبلى ، تحقيق
ودراسة يسرى عبد الغنى البشرى، القاهرة، مكتبة ابن سينا ١٩٨٩ م.

٣٨- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) :

لسان العرب، ٢٠ جزء، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ م.

٣٩- ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف بن حلب (٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) :

أخبار مصر، اعتنى بنشره هنرى ماسيه، ٢ جزء، القاهرة ١٩١٩ م.

٤٠- ابن الوردي، زين الدين عمر الوردي (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) :

تتمة المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ١٨٦٨ م.

٤١- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ / ١٢١٧م) :

(أ) الروضتين فى أخبار الدولتين، جزءان، القاهرة، ١٢٨٦ م.

(ب) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالزيل على
الروضتين، نشر السيد عزت العطار الحسينى، ط٢، بيروت ١٩٧٤ م.

٤٢- أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ٣٣١م) :

المختصر فى تاريخ البشر ويعرف بتاريخ أبى الفدا، ٤ أجزاء القاهرة
١٩٠٦ م.

٤٣- الإدفعوى، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) :

الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن،
القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٤- الاسحاقى، محمد بن عبد المعطى أبى الفتح بن أحمد بن عبد المغنى (ت ق ١١هـ/ :
١٧م) :

لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول،
القاهرة، المطبعة الشرقية، ١٣٠٠هـ/ ١٩٠٠م.

٤٥- الإسئوى، جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) :

طبقات الشافعية، تحقيق عبد الجنورى، الرياض، دار العلوم، ١٩٨١.

٤٦- لأشرف الغسانى، عماد الدين أبو العباس اسماعيل بن العباس (ت
٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) :

المسجد المسبوك والجوهر المحكوم فى طبقات الخلفاء والملوك،
تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، بيروت، دار التراث العربى، ١٩٧٥م.

٤٧- البورىنى، الحسن بن محمد (ت ٩٦٣هـ/ ١٥٥٣م) :

تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق
المجمع العلمى العربى، ١٩٧٣م.

٤٨- ببيرس الداودار، ركن الدين ببيرس المنصورى (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) :

التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان القاهرة،
١٩٨٧.

٤٩- التميمى الدارى، تقى الدين بن عبد القادر المغرى (ت ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٩م) :

الطبقات السنية فى تراجم الجنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو
الرياض، دار الرفاعى، ١٩٨٣م.

٥٠. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م) :
عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ مجلد، القاهرة، مطبعة بولاق
١٣٠١هـ / ١٨٨٣م.
٥١. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلي (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م) :
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، ١٩٤١.
٥٢. الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) :
١. سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنؤوطي وآخرون، بيروت، مؤسسة
الرسالة، ١٩٨٣م.
٢. كتاب تذكرة الحفاظ، ٤، بيروت، دار احياء التراث العربي ١٩٥٧م
٥٣. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م) :
تاج العروس في جواهر القاموس، عشرة أجزاء، القاهرة، ١٨٨٩م.
٥٤. الزركشي، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩٠م) :
أعلام الساجد بأحكام المساجد، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٩م.
٥٥. سبط ابن الجوزي، شمس أبي المظفر يوسف التركي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م) :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ٤ أجزاء، حيدر أباد الركن، دائرة
المعارف العثمانية، ١٩٥٢م.
٥٦. السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) :
(أ) طبقات الشافعية الكبرى، ٨ أجزاء القاهرة، ١٩٦٨.
(ب) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد محمد علي النجار وآخرون،

القاهرة مكتبة الخانجي، ١٩٤٨ م.

٥٧- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) :

(أ) التبر المسبوك في زيل السلوك، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨ م.

(ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت : دار التراث، ١٩٨١ م.

٥٨- السلامي، تقى الدين أبو المعالي محمد بن رافع (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :

الوفيات، تحقيق صالح مهدي عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢.

٥٩- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

١- بذل المجهول في خزانة محمود، تحقيق فؤاد سيد، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤، ج ٤، ج ١، القاهرة، ١٩٥٨ م. ص ١٧٤- ١٣٦.

٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، مطبعة السعادة ١٩١٤ م.

٣- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، بيروت، دار التراث، ١٩٧٨ م.

٤- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار النهضة بمصر، ١٩٧٥ م.

٦٠- الشجاعى، شمس الدين (ت ق ٩ هـ / ١٥ م) :

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده حققه وترجمه إلى

الالمانية بريارة سيفر، القاهرة، المعهد الالمانى للآثار، ١٩٧٨م

٦١- الشعرانى، عبد الوهاب (ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م) :

الطبقات الكبرى: لواقع الأنوار فى طبقات الأخبار، جزءان، القاهرة دار الفكر العربى، ١٩٨٦م.

٦٢- الشوكانى، شمس الاسلام محمد بن على الشوكانى (ت ١٢٥٠م / ١٨٣٤م) :

البدر الطالع بمن بعد القرن السابع، جزءان، القاهرة، ١٩٦١م.

٦٣- طاشبكى زادة، أحمد بن مصطفى بن خليل (ت ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م) :

مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، ٣ مجلد، تحقيق عبد الوهاب عبد السلام أبو النور وكامل كامل بكري، القاهرة، المكتبة التجارية الحديثة، ١٩٧٠م.

٦٤- العلائى، ابراهيم بن محمد بن أيدير (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) :

الجواهر الثمينة فى سير الخلفاء والملوك والسلطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مكة المكرمة، مركز البحث العلمى لآحياء التراث الاسلامى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦٥- العلموى، عبد الباسط بن موسى (ت ٩٨٠هـ / ١٥٧٣م) :

المعبد فى أدب المفيد والمستفيد، حيدرآباد الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ / ١٩٢٩م.

٦٦- العيدروسى، محى الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م) :

النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بغداد، مكتبة المثنى، ٩٦١.

٦٥- العلموى، عبد الباسط بن موسى (ت ٩٨٠هـ/١٥٧٣م) :

٦٧- العيلى، بدر الدين محمود (ت ٨٥٢هـ/١٤٥١م) :

١- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهم شلتوت، مراجعة مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٩م.

٢- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان :

- حوادث وتراجم ٦٤٨-٦٩٨، ٣ جزء، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧-١٩٩٠م.

- حوادث وتراجم ٨١٥-٨٢٤ تحقيق عبد الرازق الطنطاوى القاهرة، ١٩٨٥.

٦٨- الغزى، نجم الدين بن محمد بن احمد القرشى الشافعى (ت ١٠٦١هـ/١٦٤٩م) :

الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة، ٣ أجزاء، بيروت- دار التراث، ١٩٥٩م.

٦٩- الفيروز أبادى، محمد بن يعقوب الشبراوى (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) :

القاموس المحيط، أجزاء، القاهرة، ١٩٥٢م.

٧٠- القلقشندى، شهاب الدين احمد بن على (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ١٤ جزء، القاهرة، دار الكتب، ١٩٣٨.

٧١- المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥/١٤٤٢م) :

(أ) السلوك، لمعرفة دول الملوك.

الجزء الأول والثانى مطبوع فى ستة أقسام، تحقيق محمد مصطفى زيادة،

القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨ م.

الجزء الثالث والرابع مطبوع في ستة أقسام، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور،
القاهرة، ١٩٧٠م-١٩٧٣م.

(ب) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢ مجلد، بيروت، دار صادر،
١٩٨٣م.

٧٢- مبارك، علي (ت ١٣١٢هـ/ ١٨٩٣م) :

الخطط التوفيقية، ٢٠ جزء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

٧٣- مجهول، (من القرن ٨هـ/ ١٤م) :

تاريخ سلاطين المماليك، ينسب إلى إبراهيم مغطاي، نشر زيتريستين ليدن،
١٩١٩.

٧٤- المحبى، محمد أمين (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٧م) :

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر، بيروت، دار صادر، بدون
تاريخ.

٧٥- المقرئ: أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣٤م) :

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار
صادر، ١٩٦٨م.

٧٦- النعمى الدمشقى، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) :

الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسينى، دمشق، المجمع العلمى
العربى، ١٩٤٨م.

٧٧- ياقوت الحموى، ياقوت بن عبد الله الرومى (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) :

معجم الأديباء، القاهرة، دار الكتب، ١٩٣٨م.

٧٨- اليونينى، قضب الدين أبى الفتح موسى بن أحمد بن قضب الدين اليونينى (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٤م) :

ذيل مرآة الزمان، أربعة مجلدات، حيدر أباد الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٣م.

رابعاً - المراجع العربية والمعرية

١- ابراهيم على طرخان:

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٠.

٢- أحمد أحمد بدوى:

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٢م.

٣- أحمد أنور عمر:

المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٨٣م.

٤- أحمد دراج :

(أ) حجة وقف الأشرف برسباى؛ نشر وتحقيق، القاهرة، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٦٣م.

(ب) الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر

الميلادى، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦١ م.

٥- أحمد عيسى :

تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق، جمعية التمدن الإسلامى.

١٩٣٩ م.

٦- أحمد شلبى :

تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣ م.

٧- أحمد فكرى :

مساجد القاهرة ومدارسها:

(أ) المدخل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١ م.

(ب) الجزء الثانى، القاهرة - دار المعارف، ١٩٦٩ م.

٨- أحمد فؤاد الأهوانى:

التربية فى الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨ م.

٩- أحمد محمد الشامى وسيد حسب الله :

المعجم الموسوعى لمصطلحات المكتبات والمعلومات، الرياض، دار

المريخ، ١٩٨٨ م.

١٠- أحمد محمد عوف :

الأزهر فى ألف عام، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠ م.

١١- أحمد مختار العبادى :

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٨م.

١٢- السيد عبد العزيز سالم :

(أ) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦١م.

(ب) التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٣م.

١٣- أنور زقلمة :

المماليك في مصر، القاهرة، مطبعة المجلة الجديدة، (دون تاريخ).

١٤- توفيق الطويل :

التصوف في مصر إبان العصر العثماني. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

١٥- جورجى زيدان :

(أ) تاريخ آداب اللغة العربية، ٤ جزء، القاهرة، دار الهلال ١٩٠٣م.

(ب) تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ جزء، القاهرة، دار الهلال ١٩٠٢-١٩٠٦م.

١٦- جوزيف نسيم يوسف :

(أ) تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤م.

(ب) دراسات في تاريخ العصور، الاسكندرية، دارالمعرفة الجامعية ١٩٨٨م.

(ج) علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق
صبح الأعشى ، فى : كتاب أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى
١٩٧٣ م.

(د) نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب
الجامعة ، ١٩٨٤ م.

١٧ - جومار :

وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل مع مقدمة عن التطور العمرانى
لمدينة القاهرة منذ إنشائها وحتى سنة ١٨٠٠ م ، نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد
سيد ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨٨ م.

١٨ - حبيب الزيات :

خزائن الكتب فى دمشق وضواحيها ، القاهرة ، ١٩٠٢ م.

١٩ - حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، القاهرة ،
١٩٦٧ م.

٢٠ - حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن :

النظم الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ م.

٢١ - حسن الباشا :

(أ) الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، دار
النهضة العربية ، ١٩٥٨ م.

- (ب) مدخل إلى الآثار الإسلامية ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٧٩ م .
- (ج) الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ جزء ، القاهرة دار النهضة العربية ، ١٩٦١ م .

٢٢- حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م .

٢٣- حسنى نويصر :

مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة ، مدرسة الأمير سودون من زادة بسوق السلاح ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥ .

٢٤- خطاب عطية :

التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٢٥- خليل طوطح :

التربية عند العرب ، القدس ، المطبعة التجارية ، ١٩٥٩ م .

٢٦- خير الدين الزركلى :

الأعلام ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٤ م - ١٩٥٩ م .

٢٧- دائرة المعارف الإسلامية .

أصدرها نخبة من المستشرقين ، ترجمة واعداد وتحرير ابراهيم زكى خورشيد وآخرين ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٩ ، مج ٣ .

٢٨- دال ، سفند :

تاريخ الكتاب منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، ترجمة محمد صلاح

الدين حلمى، القاهرة، المؤسسة القومية للنشر والتوزيع، ١٩٥٨ م.

٢٩- دى جروليه، اريك:

تاريخ الكتاب، ترجمة خليل صابات، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩ م.

٣٠- ديورانت، ول:

قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والنشر ١٩٤٩ م.

٣١- رالف، ر.ج :

المكتبة ودورها فى التربية، ترجمة مصطفى الصاوى الجوينى، القاهرة مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٧٨ م.

٣٢- زكى محمد حسن:

فنون الإسلام القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ م.

٣٣- سعيد الجوزى الشرنوبى:

معجم أقرب الموارد فى فصيح العربية والشوارد، بيروت، مطبعة مرسلى اليسوعية، ١٨٩٣.

٣٤- سعيد عبد الفتاح عاشور:

(أ) أوروبا فى العصور الوسطى، جزآن، القاهرة، ١٩٥٩ م.

(ب) الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٨ م.

(ج) الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٥٩ م.

(د) الظاهر ببيرس، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م.

(هـ) العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م.

(و) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.

(ز) المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية، القاهرة، ١٩٦٣م.

(ح) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

٣٥- سيده اسماعيل كاشف:

أحمد بن طولون، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م.

٣٦- شعبان عبد العزيز خليفة:

دار الكتب القومية فى مرحلة النشوء والارتقاء والتدهور، القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

٣٧- شعبان عبد العزيز خليفة ومحمد عوض العايدى:

الفهرسة الوصفية للمكتبات، المطبوعات والمخطوطات، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

٣٨- صالح لمعى مصطفى:

الوثائق وائعمار، دراسة فى العمارة الاسلامية فى العصر المملوكى الجركسى

بيروت، دار النهضة العربية، بدون تاريخ.

٣٩- صلاح الدين المنجد:

الكتاب العربي المخطوط، القاهرة، ١٩٦٠ م.

٤٠- عبد ربه محمود وعبد الجليل حسن:

المكتبة والتربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨ م.

٤١- عبد الرحمن زكي:

(أ) الأزهر وما حوله من الآثار، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٠ م.

(ب) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩ م.

(ج) القاهرة، تاريخها وآثارها، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦ م.

٤٢- عبد الستار عبد الحق الحلوجي:

(أ) دراسات في الكتب والمكتبات، جده، مكتبة مصباح، ١٩٨٧.

(ب) لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢ م.

(ج) المخطوط العربي، جده، مكتبة مصباح، ١٩٨٧ م.

٤٣- عبد العزيز الشاوي:

الأزهر جامعاً وجامعة، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٧ م.

٤٤- عبد الغنى عبود:

فى التربية الاسلاميه، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٧ م.

٤٥- عبد الغنى محمود عبد العاطى:

التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٤ م.

٤٦- عبد اللطيف ابراهيم على:

دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلاميه، من الوثائق العربيه، القاهرة مطابع الشعب، ١٩٦٢ م.

٤٧- عبد اللطيف حمزة:

الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول، القاهرة دار الفكر العربى، ١٩٦٨ م.

٤٨- عبد المنعم ماجد :

(أ) تاريخ الحضارة الاسلاميه فى العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الانجلوالمصريه، ١٩٧٨ م.

(ب) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، القاهرة، مكتبة الانجلوالمصريه، ١٩٦٤ م.

٤٩- عبد الوهاب حمودة :

صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى، القاهرة، الهيئة المصريه العامة للكتاب، ١٩٦٥ م.

٥٠- عبد الوهاب عزام :

مجالس السلطان الفوري، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٤١ م.

٥١. على إبراهيم حسن :

(أ) استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامى العام
وفى التاريخ الوسيط، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨ م.

(ب) تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧ م.

٥٢. على سالم النباهين :

نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر، تقديم عبد
الغنى عبود، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨١ .

٥٣. عمر طوسون :

وادی النظرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطارقة، الإسكندرية
١٩٣٥ م.

٥٤. فوزى محمد أمين :

المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول (٦٤٨ - ٧٨٤هـ -)،
الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٢ م.

٥٥. فيليب دى طرازى :

خزائن الكتب العربية فى الخفاقيين، بيروت، وزارة التربية الوطنية والفنون
الجميلة، ١٩٥١ م.

٥٦. قاسم عبده قاسم :

النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار

المعارف، ١٩٧٨م.

٥٧- الكرملى، انستاس مارى :

النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩م.

٥٨- مدحت كاظم وحسن عبد الشافى :

الخدمة المكتبية المدرسية: مقوماتها وتنظيمها وأنشطتها، ط٢، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م.

٥٩- محمد جلال كشك :

ودخلت الخيل الأزهر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨م.

٦٠- محمد جمال الدين سرور :

دولة الظاهر بيبرس فى مصر، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٠م.

٦١- محمدرمزي :

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، ٦ جزء، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٥٤م.

٦٢- محمد زغلول سلام :

الأدب فى العصر المملوكى، ٢ جزء، دار المعارف، ١٩٧٠م.

٦٣- محمد الصادق حسين :

البيت السبكى بيت علم فى دولتى المماليك، القاهرة، دار الكتب المصرى، ١٩٤٨م.

٦٤- محمد عبد الرحمن غليمة :

تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، المغرب، تطوان، ١٩٥٣م.

٦٥- محمد عبد الستار عثمان:

وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار: دراسة تاريخية أثرية وثائقية
الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٣م.

٦٦- محمد عبد العزيز مرزوق:

الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر،
١٩٦٤م.

٦٧- محمد عبد الله عنان:

(أ) تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٨م.

(ب) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة - مطبعة دار الكتب
المصرية، ١٩٣١م.

(ج) مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، القاهرة، لجنة
التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٩م.

(د) أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى: في أبو العباس
القلقشندي تأليف نخبة من الأساتذة، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١م، ص ٢٣ - ٧٠.

٦٨- محمد عطية الإبراشي:

التربية الإسلامية وفلسفتها. القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٩م

٦٩- محمد كامل الفقي:

الأدب في العصر المملوكي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦ م.

٧٠. محمد ماهر حمادة:

(أ) المكتبات في العالم؛ تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين،
الرياض - دار العلم، ١٩٨١ م.

(ب) المكتبات في الإسلام؛ نشأتها وتطورها ومصائرهما، بيروت، مؤسسة
الرسالة، ١٩٨٦ م.

٧١. محمد محمد أمين:

(أ) فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك مع
نشر وتحقيق تسعة نماذج. القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية،
١٩٨١ م.

(ب) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين
المماليك، القاهرة دار النهضة العربية، ١٩٨٠ م.

٧٢. محمد مختار:

التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين الأمريكية
والقبطية، القاهرة، ١٣١١ م.

٧٣. محمود أحمد:

جامع عمرو بن العاصي بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية،
القاهرة، المطبعة الأميرية، دون تاريخ.

٧٤. محمود مرزوق سليم:

(أ) الأشراف قنصوه الغوري، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر
١٩٦٥ م.

(ب) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، ٥ مجلد القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٦٥ م.

٧٥ - مجلد عبد الرزاق شفشق :

التعليم فى عهد المماليك والإحتلال العثمانى فى : تاريخ ونظام التعليم والجمهورية العربية المتحدة، وتأليف منير عطالله وآخرين مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨ م.

٧٦ - مصطفى حسين السباعى :

من روائع حضارتنا، دمشق، مكتبة دار السلام، ١٩٥٩ م.

٧٧ - مصطفى العبادى :

مكتبة الإسكندرية القديمة، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧ م.

٧٨ - منز، آدم :

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبوريده، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٦٧ م.

٧٩ - ناجى معروف :

إنشاء المدارس المستقلة فى الاسلام، بغداد، ١٩٦٦ م.

٨٠ - وزارة الأوقاف وشئون الأزهر:

الأزهر تاريخه وتطوره، القاهرة، مجمع البحوث الاسلامية، ١٩٦٤ م .

٨١ - هيسيل، الفرد :

تاريخ المكتبات، ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة، دار المريخ الرياض،
١٩٨١ م.

٨٢ - يحيى محمود ساعاتى :

الوقف وبنية المكتبة العربية، استبطان للموروث الثقافى، الرياض مركز الملك
فيصل للبحوث والدراسات الاسلامى، ١٩٨٨ م

٨٣ - يوسف أحمد :

جامع أحمد بن طولون . القاهرة، مطبعة الترقى ١٩١٧ م.

٨٤ - يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٥٧ م.

خامسا - الرسائل الجامعية

١ - أحمد نشاطى العقباوى :

الحياة العمرانية فى القاهرة الكبرى فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة الإسكندرية،
١٩٨٦ م.

٢ - أسامة أحمد حماد :

الإسكندرية فى عصر دولتى المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)
رسالة ماجستير. كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧ .

٣ - جرجس قام ميخائيل :

السلطان جقمق وحالة مصر في عصره، رسالة ماجستير، كلية الآداب،
جامعة القاهرة، ١٩٧٤ م

٤- حسن سيد جودة القصاص:

المدرسة الصرغتمشية، دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير، كلية الآثار،
جامعة القاهرة، ١٩٧٣ م.

٥- حسنى محمد حسن نوبصر:

منشأة السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه، كلية
الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م.

٦- دولت عبد الله عبد الكريم:

الخوانق في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه،
كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣ م.

٧- رأفت التبراوى:

مسكوكات المماليك الجراكسة في مصر، نظمها، وقيمتها النقدية، دراسة
أثرية، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨١.

٨- زينب محمد محفوظ هنا:

وثائق البيع في مصر خلال العصر المملوكي، رسالة دكتوراه كلية الآداب -
جامعة القاهرة، ١٩٧٧ م.

٩- سامى أحمد حسين:

السلطان أبنال وآثاره المعمارية في القاهرة، رسالة دكتوراه - كلية الآثار -
جامعة القاهرة، ١٩٧٦ م.

١٠- سامى أحمد عبد الحليم امام:

آثار الأمير قانى باى قرا الرماح بالقاهرة، دراسة أثرية معمارية، رسالة
دكتوراه، كلية الآثار- جامعة القاهرة، ١٩٧٥م.

١١- سهام محمد المهدى:

تجليد الكتب فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير كلية الاداب، جامعة
القاهرة، ١٩٧٤م.

١٢- سوسن سليمان يحيى سليمان:

منشأة الأمير الاسحاقى، دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير، كلية الآثار،
جامعة القاهرة، ١٩٨٥م.

١٣- شاهنده كريم:

جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، رسالة
دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م.

١٤- عبد اللطيف إبراهيم على:

دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر السلطان الغورى، رسالة
دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٦م.

١٥- على حسن زغلول:

مدرسة السلطان حسن، دراسة معمارية أثرية، رسالة ماجستير كلية الآثار،
جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

١٦- فايزة الوكيل :

(أ) جامع السلطان المؤيد شيخ، بحث أثرى معمارى، رسالة

ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م.

(ب) العمانر الاسلامية بمصر فى عصر السلطان المؤيد شيخ، رسالة

دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٨٦ .

١٨- ليلى كامل محمد الشافعى :

منشآت القاضى يحيى زين الدين بالقاهرة، دراسة أثرية معمارية، رسالة

دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٣ م.

١٩- متولى محمد متولى :

المكتبة ودورها التربوى فى مصر الفاطمية، رسالة ماجستير ، كلية

التربية، جامعة المنوفية، شبين الكوم، ١٩٨٣ م.

٢٠- محمد فتحى الشاعر :

إقليم الشرقية فى عصر الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير، كلية

الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٦ م.

٢١- محمد مجاهد الهلالى:

خزائن الكتب العباسية، دراسة فى الموارد والنظم والخدمات، رسالة دكتوراه،

كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٨٧ م.

٢٢- محمد محمد مرسى الكحلاوى:

مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى، دراسة أثرية معمارية فنية، رسالة

ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨١ م.

٢٣- محمد مصطفى نجيب:

١- مدرسة الأمير كبير قرقماس وملحقاتها، دراسة أثرية معمارية،

رسالة دكتوراه ، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م.

٢- مدرسة خايربك بباب الوزير، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة

القاهرة، ١٩٦٨ م.

٢٤- مختار الكسباني:

جامع الأمير تميز الاحمدى . دراسة أثرية معمارية ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ م .

٢٥- يسرى مصطفى عنانى:

دراسة عن مباني المكتبات الجامعية ، رسالة ماجستير كلية الهندسة ، جامعة الاسكندرية ١٩٨٨ م .

سادسا - مقالات الدوريات وابحاث المؤتمرات والندوات

١- أحمد أنشى:

المخطوطات العربية فى مكتبات الأناضول ، مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٤ ، ج ٢ ، مايو ١٩٥٨ م .

٢- أحمد أمين سليم:

المكتبات فى مصر فيما قبل مكتبة الاسكندرية ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، مج ٣٨ ، ج ٢ ، ١٩٩٠ م .

٣- حسن الباشا:

(أ) كرسى المصحف فى الفن الإسلامى ، مجلة منبر الاسلام ، س ٢٥ ، ع ٦٤ ، سبتمبر ١٩٦٧ م .

(ب) الدواه فى الفن الإسلامى ، مجلة منبر الاسلام ، س ٢٥ ، ع ٧ ، أكتوبر ١٩٦٧ م .

(ج) جامع عمرو فى عصر الأيوبيين والمماليك ، س ٢٧ ، ع ٦٤ ، يونية ١٩٦٩ م .

٤- حسن عبد الوهاب:

خانقاه فرج بن برقوق ، كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ١٩٥٩ م .

٥- حسين أمين:

المسجد المعهد الأول للتعليم عند المسلمين، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مج ٢٢، ١٩٦٨ م.

٦- حسين سليمان فوده:

المكتبات المدرسية ضرورة تربوية، صحيفة المكتبة، مج ١، ع ٢، أكتوبر-ديسمبر ١٩٦٩ م.

٧- جمال الدين الشيال:

أول أستاذ لأول مدرسة في الاسكندرية، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، مج ١١، ١٩٧٧ م.

٨- رومر، هـ. ر:

المخطوطات العربية في ألمانيا، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٥، ج ٢، نوفمبر ١٩٥٩ م.

٩- زكى محمد حسين:

الكتاب في الفنون الإسلامية، مجلة الكتاب، س ١، ج ٨، يونيو ١٩٤٦ م.

١٠- عبد العزيز محمود عبد الدايم:

الرعاية الطبية في عصر دولة المماليك، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ع ٢، ١٩٧٧ م.

١١- عبد اللطيف إبراهيم على:

(أ) وثيقة الأمير يشبك من مهدى، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، ع ٢، ١٩٧١ م.

(ب) وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى، دراسة وتحقيق، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ١٨، ج ٢، ١٩٥٦ م.

(ج) وثيقة السلطان قايتباى على الجامع والمدرسة بغزة، كتاب المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية، ١٩٥٩ م.

(د) نسان من وثيقة الأمير صرغتمش، دراسة وتحقيق، مجلة كلية الآداب،

جامعة القاهرة، مج ٢٧، ١٩٦٥، مج ٢٨، ١٩٦٦ م.

(هـ) الوثائق في خدمة الآثار، كتاب المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية ١٩٥٧ م.

١٢- فؤاد سيد:

نصان قديمان في إعارة الكتب، مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٤، مايو ١٩٥٨ م.

١٣- فوزية مصطفى عثمان:

من تاريخ البليوجرافيا، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، س ٢٩، ع ١ يناير ١٩٨٩ م، ص ٦٧-١٠٠.

١٤- محمد الحبيب بن خوجه:

الحياة الثقافية بمصر والقاهرة والاسكندرية في سنة ٦٨٤هـ، ٦٨٥هـ من خلال رحلة ابن رشد، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس-ابريل ١٩٦٩ م، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١ م.

١٥- محمد حميد الله:

المخطوطات العربية في باريس، مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٢، ج ٢، ن، فمبر ١٩٥٦ م.

١٦- محمد رستم ديوان:

المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مجلة المورد، مج ٩، ع ٤٤، ١٩٨١ م.

١٧- محمد زهير البابا:

التراث العربي في المكتبة الوطنية بباريس، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٢٦، ع ٢٤، ١٩٨٢ م.

١٨- محمد كامل حسن:

التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمعاليك، مجلة كلية

الآداب، جامعة القاهرة مج ١٥، ج١، ١٩٥٣م.

١٩- محمد محمد أمين :

(أ) وثيقة وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط، المجلة التاريخية المصرية، مج ٢٢، ١٩٧٥م.

(ب) الأوقاف ونظام التعليم في مصر في العصور الوسطى، بحث مقدم لندوة الحضارة الإسلامية، عمان، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٦م.

٢٠- محمد مصطفى زيادة :

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ٤، ج١، مايو ١٩٣٦م.

٢١- نوري حمودي القبسي :

المخطوطات العربية في مكتبات استانبول، مجلة المكتبة، ع ٣٩٤، ١٩٦٤م.

سابعا : المراجع الأجنبية

1- Creswell A.C.

The Muslim Architecture of Egypt, Oxford, 1952.

2- Dodge, Bayaed.

Muslim Education in Medieval Times, Washington, 1962.

3- Encyclopedia of Lslam, London, 1936, Vol. 3.

4 -Encyclopedia of library and Information Science, (ed .) by Allen Kent and Harold Lancour, New York, 1968.

5 - Hassanein Rabie.

Some Financial Aspects of The Wagf System in Medieval Egypt .Egyptinan Historical Review" Vol . 18, 1971.

6 -Irwin, Raymond

The Origins of the English Library, London, 1958.

7 - Johnson, E.D, and Harris, M . H .

History of Libraries in the Western World, Newy ork, 1976.

8 - Kabir Ahmed Khan,

1 - Library Movement in The Muslim World, "Islamic Culture, VOL . LVI. No . 4., October 1982, PP. 304 - 316 .

II- Organization and Administration of Libraries in Islamic World, "Islamic World" Vol. LV, No .2, April 1981, pp. 123 - 129.

9 - Ker, M . R . (e . d)

Medieval Libraries in Great Britain, London, 1964.

10 - Lane - Poole, Stanlly.

A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

11 - Matchlf, K. D.

Planning Academic and Research Library Building, New York, 1984.

12 - Mohamed Makki Sibai

Mosque Libraries : An Historical study, London, 1987.

13 - Moskensen, Ruth Stallhorn.

Background of the History of Moslem Libraries."The American Journal of semitic Languages and Literatures", Vol. 51, January 1935, pp. 114 - 125.

14 - Norris, D.M.

A History of Cataloguing and Cataloguing Methods 1100-1800, London, 1939.

15 - Olle, J . G.

Library History, London, Clive Bingley, 1971.

16 - Persons, E . A .,

The Alexandrian Library: Glory of the Hellenic World, London, The Elsevier Press, 1952.

17. Rider, A.D.

A History of Books and Libraries, Metuchen, 1976.

18. S.M Emaad EL- Din.

Arabic Writing & Arabic Libraries, London, Ta Ha Publishers, 1983.

19. Savage, E.

Old English Libraries: The Making Collection and Use of books during the middle ages, London, 1911.

20. The ALA Glossary of Library and Information Science, Chicago, ALA, 1983.

21. Thompson, James westfell.

The Medieval Library, New York, Hafner Publishing Company, 1967.

22. Youssef Eche.

Les Bibliothèques Arabes Publiques et semi- Publiques en Mesopotamie, en Syrie et en Egypt au Moyen Age, Damas, Institute Francaise de Damas, 1967.

رقم الإيداع ١٦٩٨ لسنة ١٩٩٣

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 — 270 — 053 — 0

التجهيزات الفنية : آر-تك / ٢٢٩ ش السودان - ت ٢٤٧٢٥٥٥

تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي

إذا كانت دراسة التاريخ بالنسبة لأي علم هي بمثابة الأساس الذي يُبنى عليه هذا العلم ، فإننا نستطيع أن نؤكد أن « علم المكتبات والمعلومات العربية » يعتبر في حاجة ماسة لهذا الأساس ، لاسيما وأن تاريخ المكتبات في العالم العربي بصفة عامة وفي مصر بصفة خاصة ، يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب والخبرات التي تعيننا على فهم الحاضر ، وتفسير ظواهره ، بل والتنبؤ بالمستقبل كذلك .

ويتناول هذا الكتاب تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي والذي يُعد من أنشط عصور التاريخ المصري فيما يتعلق بحركة الكتب والمكتبات ، وذلك من حيث أنواع هذه المكتبات ، ومواردها المادية ، والبشرية ، والمالية ، وإجراءاتها الفنية ، والأنشطة والخدمات . اعتماداً على الوثائق والمصادر الأولية الموثقة .

ويتوجه المؤلف بهذا الكتاب إلى الطلاب والباحثين في مجال المكتبات والمعلومات ، كما يتوجه به أيضاً إلى الباحثين في التاريخ الإسلامي الوسيط ، وتاريخ التربية الإسلامية ، فضلاً عن أعضاء هيئة التدريس والعاملين في هذه المجالات .

الناشر

١٦٠٠٠٠

طباعة • نشر • توزيع

الدار المصرية اللبنانية

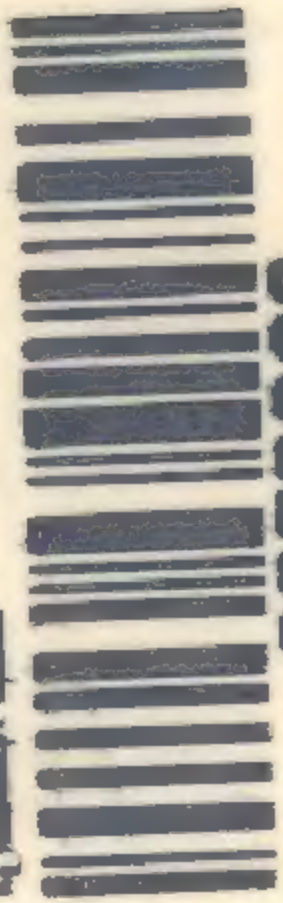
١٦ شارع عبد الحالق لروت - تلفون ٣٩٢٣٥٧٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

Bibliotheca Alexandrina



0259963

